الأسلوب الأخلاقي في التعامل

أمل الرفاعي

© حقوق النشر الإلكتروني محفوظة لدار ناشري للنشر الإلكتروني.
www.Nashiri.Net

© حقوق الملكية الفكرية محفوظة للكاتب.
نشر إلكترونيا في ذي الحجة،1438/أغسطس 2017.

يمنع منعا باتًا نقل أية مادة من المواد المنشورة في ناشري دون إذن كتابي من الموقع. جميع الكتابات المنشورة في موقع دار ناشري للنشر الإلكتروني تمثل رأي كاتبيها، ولا تتحمل دار ناشري أية مسؤولية قانونية أو أدبية عن محتواها.

الإخراج الفني: أبرار الحازمي
تصميم الغلاف: دعاء خيري
التدقيق اللغوي: خيرية الألمعي، د. محمد سعيد الملاح

محتـــويات الكتـــاب

المقدمة 4
أسلوب التعامل في الحياة 6
الأمل 11
قوّة الإيمان 15
الخوف والإيمان 17
الصداقة 19
صديق مخلص 22
الصديق الصغير 35
مـــــلح الحيـــاة 44
حلم الطفل بالنجمة 56
ما الذي فعلته طيور السنونو 60
نصيحة طائر السنونو 69
اليتيم 71
الابن المُتبنّى 78
نعم الحياة الخمس 85
على بعد ستة أقدام من الريف 88
عاهات الجسد وجمال الروح 102
نصائح الجدّ 104
قابل الشر بالخير 116
كيف يمكن تجنب الشجار 120
الكلمة الطيبة 125

نهاية الحفل 128

النافذة المفتوحة..... 140

الشجاعة وحضور البديهة..... 144

النافذة..... 149

تعلم كيف تقول "لا" 152

المقدمة

عزيزي القارئ الناشئ أمل المستقبل.

يسرني أن أقدم إليك مجموعة من القصص التي اخترتها لك من مؤلفات مشاهير كتاب العصر الماضي، وهي من القصص الهادفة التي تُبيّن الفارق بين الفضيلة والرذيلة وبين الخير والشر، وبأن على المرء ألا يُنكر الجميل، وأن تكون لديه المقدرة على مقاومة المُغريات التي قد تقوده إلى ارتكاب الأخطاء والآثام.

محتويات الكتاب:

- قصّة تبيّن نماذج عن سوء التعامل بين البشر والمقولة المقصودة منها أن على المرء ألا يُنكر الجميل، للكاتب ب. كريس أسبجوسن.
- مقالة قوّة الإيمان، للكاتب هنري فريدريك كوب.
- مقالة تُبيّن أثر ودور الإيمان في نفوس البشر وفي إرشادهم إلى التعامل الأخلاقي.
- مقالة عن الصداقة، للكاتب آرثر بنسين تُبيّن أهمية الصداقة والأسلوب الأفضل لاختيار الأصدقاء.
- قصة الصديق الوفي، للكاتب أوسكر وايلد.
- قصّة تعرض نموذج الصديق الذي يستغل صديقه.
- قصة الصديق الصغير، للكاتب آبي فرويل براون.
- قصّة لطيفة تدور حول براءة ونقاء الطفولة.
- قصة ملح الحياة، للكاتب هاورد بايل.
- قصّة خيالية لكنها ذات مغزى كبير حول المعنى الحقيقي للمحبة العائلية.
- قصة حلم الطفل بالنجمة، للكاتب شارلز ديكنز.
- قصّة رقيقة مؤثرة حول العلاقة المقدسة بين الأشقاء.
- قصة ما الذي فعلته طيور السنونو، للكاتبة لويزا ماي ألكوت.
- قصّة تُبيّن ما يمنحه العطاء من راحة وسكينة.
- قصة نصيحة طائر السنونو، للكاتب آلان رامسي، وهي قصة طريفة بأسلوب فكاهي.

- قصة اليتيم، للكاتب غي دو موباسان، وهي قصّة مؤثرة حول نكران الجميل.
- قصة الابن المُتبنى، للكاتب غي دو موباسان، وهي قصّة حول مقايضة البنوة بالمال.
- قصة نعم الحياة الخمس، للكاتب مارك توين، وهي قصّة تُبيّن زوال كل النعم بمرور الزمن.
- مقالة عاهات الجسد وجمال الروح، للكاتب تيموثي آرثر، تبيّن أن جمال الروح هو الجمال الحقيقي.
- قصة نصيحة الجدّ، للكاتب تيموثي آرثر.
- قصة هادفة تتضمن نصائح جدّ خَبِر الحياة لحفيده الغرّ.
- قصة قابل الشرّ بالخير، للكاتب تيموثي آرثر.
- قصة كيف يمكن للمرء أن يتجنب الشجار للكاتب تيموثي آرثر.
- مقالة الكلمة الطيبة، للكاتب تيموثي آرثر، وهي مقالة حول أثر الكلمة الطيبة.
- قصّة نهاية الحفل، للكاتب غراهام غرين، وهي قصّة حول انعكاس الأفكار والتخاطب بين التوائم.
- قصّة الشجاعة وحضور البديهة.
- قصّة النافذة.
- قصة تعلّم كيف تقول لا.

أتمنى لك قراءة مفيدة وممتعة.

أمل عمر بسيم الرفاعي

أسلوب التعامل في الحياة

The way of world

للكاتب ب.كريس.أسبجورسن

كان رجل قد ذهب ذات يوم إلى الغابة كي يقطع بعض الأخشاب ويصنع منها سارية خشبية، لكنه لم يتمكن من العثور على أية أشجار طويلة مستقيمة الأغصان كما كان يرغب. ظلّ الرجل يسير في الغابة بحثًا عن مثل تلك الأغصان إلى أن وصل إلى جانب كومة مرتفعة من الصخور، وإذا به يسمع من هناك صوت نحيب وأنين كما لو أن أحدهم كان يفارق الحياة.

أسرع الرجل إلى المكان الذي سمع منه ذلك الصوت لكي يستطلع الأمر ولكي يرى فيما إذا كان هناك من هو بحاجة إلى المساعدة، فتبيّن له أنه صادر من تحت صخرة تقع فوق تلك الكومة من الصخور. كانت الصخرة ثقيلة الوزن جدًّا بحيث يتطلب حملها وتحريكها جهد كبير من عدة أشخاص أقوياء، وكان بذلك قد عاد من جديد إلى الغابة حيث عثر هناك على شجرة كبيرة قطعها وصنع منها سلمًا تمكن بواسطته الوصول إلى أعلى كومة الصخور إلى أن استطاع بعد الكثير من الجهد أن يرفع تلك الصخرة.

لكن، ولهول المفاجأة زحف من تحت تلك الصخرة تنين كبير هاجم الرجل وكان على وشك التهامه.

فقال له الرجل بأنه من المعيب أن يفعل ذلك بعد أن تكبّد كل ذلك الجهد لانقاذ حياته.

لكن التنين أجابه:

"ربما كان ذلك صحيحًا، لكنك لو علمت كم أتضوّر جوعًا لتقبلّت قدرك، لقد أمضيت تحت تلك الصخرة مئات السنين ولم أتذوق اللحم طوال حياتي، فهذا هو القانون المطبق حاليًّا في الحياة، وهو أسلوب تصرف بني البشر تجاه الآخرين"

كان الرجل قد دافع عن نفسه بجرأة وعناد وتوسل إلى التنين بأن يهبه الحياة، إلى أن اتفقا على أن يؤجل التنين ذلك ليوم واحد فقط وعلى أن يأخذا رأي أول مخلوق

حيّ سوف يمر بتلك الغابة. فلو كان رأيه خلافًا لما قاله التنين فلن يفقد الرجل حياته لكن لو أيّد ما قاله التنين فسوف يلتهم التنين الرجل.

كان أول من شاهداه هو كلب صيد عجوز كان يركض على الطريق المؤدية إلى الهضبة. رويا له القصة وطلبا من أن يحكم بينهما.

قال كلب الصيد:

"لست أؤيد رأي التنين، لكن هذا هو على ما يبدو الأسلوب المتبع في الحياة لردّ الجميل. كنت قد خدمت سيدي بكل إخلاص منذ كنت جروًا صغيرًا، كنت أمضي ليالٍ طويلة وأنا أحرس المكان بينما كان سيدي يستلقي في فراشه الدافئ، وكنت قد أنقذت منزله مرتين من النيران ومن اللصوص. لكن بعد أن لم يعد بإمكاني الآن أن أرى جيدًا وأن أسمع جيدًا تبيّن لي بأن سيدي قد بدأ يرغب بإطلاق النار عليَ وقتلي. وبذلك كان عليَ أن أهرب وأتسلل من منزل لآخر لكي أتسول من أجل ما يُقيتني لكيْلا أموت من الجوع"

ثم قال كلب الصيد من جديد:

"نعم، هذا هو الأسلوب الذي تسير به الأمور في الحياة، وهذه هي الطريقة التي يتم بموجبها سداد الدين وردّ المعروف"

قال التنين حينئذ:

"أترى سوف ألتهمك الآن!"

وكان على وشك أن يلتهم الرجل، لكن الرجل عاد يتوسل إليه من جديد إلى أن اتفقا على أن يُطلب من أول مخلوق سوف يريناه أن يحكم بينهما، فلو كان ذلك المخلوق سيردّد ما قاله التنين فسوف يأكل التنين الرجل ولو أنه خالفه في الرأي فسوف ينجو.

شاهدا بعد ذلك حصانًا. كان الحصان يركض بسرعة نحو الهضبة وهو يعرج على إحدى قوائمه، وبذلك أسرع التنين باستدعائه لكي يحكم بينهما. وكان الحصان قد أبدى استعداده التام على ذلك وقال:

"لقد خدمت سيدي لسنوات وبكل إخلاص. كنت أحمل الأشياء وأسحب الأثقال. عملت لديه أشبه بعبد وكافحت بكل ما لدي من مقدرة لكي أرضيه. كان العرق يسيل من كل شعرة من شعري. عملت إلى أن تقدمت بالسن وإلى أن استهلكت بمرور الأيام وأصبحت أعرجًا. وكان سيدي قد قال لي ذات يوم:

"أصبحت الآن ضعيفًا ولم تعد تصلح لأي عمل وأنا أرى بأنك لم تعد تستحق حتى ثمن قوت يومك"

وقد علمت بذلك بأنه كان يقصد بأن عليّ أن أتلقّى رصاصة تُنهي حياتي.

"نعم! نعم! هذا هو أسلوب التعامل حاليًّا في الحياة، وهذه هي كيفية ردّ الجميل"

حينئذ قال التنين للرجل:

"حسنًا أترى! عليَ الآن أن ألتهمك"

لكن الرجل كان قد توسل إليه من جديد أن بأن يمتنحه فرصة أخيرة.

وقال التنين: "لكن لم يعد بإمكاني الانتظار. عليّ أن أحصل ولو على لقمة من لحم إنسان من البشر فأنا جائع جدًّا"

وكان الرجل قد أشار فجأة إلى ثعلب ماكر الذي كان قد تسلل بين الصخور وقال للتنين:

"انظر، انظر، هناك من يسترق النظر إلينا. يبدو أن الله تعالى قد أرسله لكي يقوم بالحكم بيننا. القاعدة العامة تقول إن لكل أمر ثلاث مرات من المحاولة لذا دعنا نسأله عن رأيه، فلو كان رأيه بأن عليك أن تأكلني كما فعل الآخرون، فسوف أكون على استعداد لتنفيذ ذلك الحكم عليّ وعلى الفور"

قال التنين الذي كان سمع أيضًا بأن كل الأشياء الجيدة يجب تكون من ثلاثة:

"حسنًا وسوف يكون هذا آخر اتفاق بيننا"

وبذلك كان الرجل قد روى للثعلب ما حدث بينه وبين التنين كما فعل مع الآخرين.

وكان الثعلب قد قال:

"نعم، نعم لقد فهمت الأمر تمامًا هذا ما تسير عليه الأمور في هذه الحياة"

لكن الرجل كان عندما سمع ما قاله الثعلب قد أخذه جانبًا وقال له:

"لو نجوت من التنين. ولو استطعت أن تُحررني منه سوف أصطحبك إلى منزلي وسوف تكون السيد وستستطيع أن تأكل كل ما لدي من دجاجات ومن إوز كل ليلة ثلاثاء"

حينئذ قال الثعلب الماكر من جديد:

"حسنًا أيها التنين العزيز! لكنني أرى مع ذلك بأن من العسير جدًّا أن تطقطق رقبة هذا الرجل فلست أفهم كيف بإمكانك أن تفعل ذلك فكيف حدث بأن تكون ذلك الحيوان الكبير القوي وأن تُحتجز تحت مثل تلك الصخرة لسنوات"

قال التنين: "ألا تصدق ذلك؟ حسنًا! كنت ذا يوم مستلقيًا تحت تلك الهضبة لكي أستمتع بأشعة الشمس لكن حدث انهيار صخري جعل تلك الصخرة تندفع وتسقط عليّ"

قال الثعلب الماكر من جديد:

"قد يكون الأمر كذلك، لكنني لا أزال لا أفهم كيف كنت تحت تلك الصخرة ولن أصدقك إلى أن أرى ذلك بنفسي"

حينئذ كان الرجل قد قال بأن من الأفضل لهما أن يثبتا صحة روايتهما للثعلب، وبذلك كان التنين قد زحف نحو الفجوة التي كان فيها.

وكان الرجل والثعلب بلمح البصر قد أخرجا ذلك السلم ورميا الصخرة في الفجوة وبذلك سقطت على التنين واحتجزته من جديد في الحفرة.

قال له الثعلب الماكر:

"استلق الآن إهنا لى يوم الحساب. كنت تنوي التهام الرجل الذي أنقذ حياتك أليس كذلك؟"

أخذ التنين يتأوه وينتحب ويتوسل لهما ويرجوهما إخراجه من الفجوة، لكن الاثنان كانا قد غادرا المكان معًا وتركاه بمفرده.

وفي عشية يوم الثلاثاء جاء الثعلب إلى منزل ذلك الرجل بناء على الاتفاق بينهما، واختبأ فوف كومة كبيرة من الخشب المتين. وبذلك لم تكن الخادمة قد رأته أو سمعت صوته عندما جاءت لكي تطعم تلك الدجاجات والإوز.

ظلّ الثعلب مختبئًا في مكانه وكان عندما غادرت الخادمة قد بدأ يأكل من تلك الدجاجات والإوز إلى أن التهم ما يكفي ما يكفي لأسبوع وكان قد أكل بنهم بحيث لم يعد بإمكانه أن يتحرك. وكانت الخادمة عندما عادت في صباح اليوم التالي كانت قد وجدت الثعلب مُستلقيًا على ظهره كان نائمًا تحت أشعة الشمس. كان لكثرة ما أكله من دجاجات قد أصبح أشبه بنقنقة كبيرة.

وعندما صاحت الخادمة طالبة النجدة انضم إليها جميع الأطفال الصغار يحمل كل منهم عصا وبدؤوا يضربون الثعلب إلى أن كادوا يقضون عليه، وكان الثعلب قبل أن تكون حياته قد انتهت وبعد أن اعتقد بأن ساعته الأخيرة قد وجد حفرة في الأرض وقفز إلى داخلها. واختبأ هناك.

وكان قد قال عندما خرج منها وهو يعرج ويتوجه نحو الغابة:

"أووه. أووه. كان ذلك صحيحًا، يبدو أن هذه هي الطريقة التي يتم بها ردّ الجميل في عالمنا هذا".

أما تعليقي الخاص على هذا الموضوع أيها القارىء فهو أن على الإنسان الذي يتميّز عن جميع المخلوقات الأخرى بما لديه من شعور إنساني، أن يُقابل دومًا يقابل الخير بالخير وأن يردّ الجميل بالجميل كما قال الله تعالى في كتابه الكريم: "هل جزاء الإحسان إلا الإحسان".

الأمل

Hope

للكاتب ج.س. آدامس

كان الظلام القاتم قد لفّ الأرض لفترة طويلة. حرب وإراقة دماء وجرائم ومآس وويلات، بحيث كانت الأرض تبدو كأنها التفت بثياب الحداد.

كان هناك بالطبع ما يدعو لمعاناة القلوب فقد ذهب إلى القتال أولاد وآباء وأزواج الكثير من العائلات ولم يكونوا قد عادوا لأنهم قضوا في الخدمة حتى دون أن يكون بإمكان الأمهات والزوجات إلقاء نظرة وداع واحدة أخيرة عليهم.

نساء بقلوب مُنكسرة وأجسام نحيلة ووجوه شاحبة لكن عليهن مع ذلك الاستمرار بأداء أعمالهن وبإنجاز واجباتهن المنزلية كما لو أن شيئًا لم يحدث، وكما لو أنهن لم يفقدن من كانوا يعنون لهن الكثير جدًّا.

كان أحد الملائكة في أعالي السماء قد قال:

"يا لبؤس هذه الأرض! بودّي أن أواسي من في هذه الأرض من البشر لكن مهمتي هي إرشاد الأرواح عبر هضبة الموت وحملهم إلى أرض الخلود، لذا عليّ ألا أغادر مكان عملي فمن على استعداد للذهاب إلى الأرض لأداء هذه المهمة؟

قال الحب بصوت رقيق عذب:

"أنا على استعداد للذهاب إليهم"

وقال الملاك: "أنت ضعيف جدًّا وسهل الانقياد لذا ليس بإمكانك أن تذهب إلى مثل هذا المكان المظلم القاتم وإلى تلك العتمة التي تلفّ الأرض. هم بحاجة الآن إلى شخص آخر. هم بحاجة إلى شخص مختلف. شخص أقوى لكي يكون بإمكانه أن يُهيئ لهم السّبل إلى حياة أفضل"

نظر كل منهم إلى الآخر ثم قال الجميع بصوت واحد:

"فمن الذي سيكون بإمكانه إذن أن يقوم بهذه المهمة؟"

قال ملاك آخر: "الأمل! نعم الأمل هو أهل للقيام بهذه المهمة"

وكان الأمل قد تقدّم لدى إيراد اسمه وهو يحمل بيده إكليلًا من الزهور لم يكن انتهى بعد من جدله.

سأله الملاك: "أيها الأمل الطيّب! هل توافق على الذهاب هذه الليلة إلى الأرض؟"

لمع النجم على جبين الأمل الطيب وقال دون تردّد:

"سوف أفعل ذلك"

قال الملاك: "لا شك أنك الوحيد من بإمكانه أن يفعل ذلك ومن بإمكانه أن يدخل البهجة على القلوب الحزينة وهوالأمر الذي ما ليس بإمكان الآخرين أن يفعلوه. سوف تكون مهمتك حمل أكاليل الزهور إلى كل مسكن ترى فيه ضوءًا"

اقترب الآن ودعني أعطيك هذه الأكاليل من الزهور لكي تأخذها إلى الأرض، وسوف ننشد نحنالأناشيد لأجلك لكي يحفظ لك الله تعالى قلبك نقيًّا ولكي تظل مرتبطًا بنا.

أما على الأرض فكانت ماري دين جالسة مع شقيقتها في كوخهما الصغير وهما يتيمتان توفي والدهما وشقيقهما الوحيد في المعارك وكانت شقيقتها تقرأ لها. قالت الشقيقة الأصغر سنًّا:

"دعينا نُطفئ المصباح وننظر لبعض الوقت إلى النجوم في السماء"

أجابتها شقيقتها: "لا يا حبيبتي! ليس بعد. فلا زال الوقت مبكرًا وهذا الضوء من شأنه أن يساعد كثيرًا المسافرين الذين يمرون عبر الطريق المُجاورة، فف يكثير من الأحيان كان الضوء المُنبعث من منزل الجوار قد ساعدني في الوصول إلى منزلنا بشكل أسرع وأكثر أمنًا"

قالت شقيقتها: "كما تشائين. لكن يُخيل إليّ بأنني أسمع وقع أقدم أمام المنزل"

أصغيتا بصمت ولم تسمعا أي شيء آخر إلى أن ذهبت كل منهم إلى سريرها بعد أن انتهت من مطالعتها.

لكنهما كانتا قد شعرتا بفرحة غامرة عندما فتحتا باب منزلهما في صباح اليوم التالي فقد فوجئتا بوجود إكليل جميل جدًّا من الزهور على حلقة الباب. كان العبير يفوح بغزارة من تلك الزهور كان ما أضاف إلى فرحتهما أن تلك الزهور ظلّت يانعة وبأنها لم تكن قد ذبلت في اليوم التالي.

كان الأمل قد مرّ بعد ذلك بعدّة منازل كانت تبدو من نوافذها الأضواء ووضع على أبوابها أكاليل الزهور، وكان عليه أيضًا أن يمر بعدة منازل أخرى لم يكن يبدو فيها

أي أثر لضوء المصابيح لكنه كان مع ذلك قد ترك على تلك الأبواب بعض أكاليل الزهور لكي يُدخل البهجة على قلوب قاطنيها.

وكان الأمل وهو في تجواله بين المنازل قد وصل إلى منزل تُقيم فيه سيدتان وحيدتان، وسمع من خلف الباب إحدى السيدتين تقول:

"لا فائدة من استهلاك الوقود فليس لدينا ما نقرؤه، وليس لدينا ما يثير اهتمامنا"

وبذلك كانت السيدتان قد جلستا حزينتين في العتمة والظلام ما أضاف إلى وحدتهما وحزنهما المزيد من الكآبة، بينما كان مجرد شعاع من الضياء بإمكانه أن يُدخل بعض البهجة إلى نفسيهما وأن يُخفف من معاناتهما.

وبذلك كان الأمل قد استمر في تجواله بين المنازل حاملًا أكاليل الزهور. كان بإمكانه بكل سرور أن يترك إكليلًا من تلك الأكاليل لتلك السيدتين فقد كان لديه العديد منها، لكنه لم يكن قد شاهد ما يُشير إلى وجود أحد في ذلك المنزل.

وكانت الشقيقتان قد تحدثتا عن الفراق وعن المآسي وعن العالم الكئيب الذي تعيشان فيه إلى أن خلدتا إلى النوم.

ولكن في صباح اليوم التالي، كانت دهشتهما كبيرة عندما شاهتا القاطنين في الجوار يبتهجون بتلك الزهور الجميلة اليانعة التي حصلوا عليها.

تساءلتا مرّة بعد مرّة:

"لِم لم نحصل نحن على مثل هذه الهدايا؟ لِم لا يحصل البؤساء الفقراء على ما يحصل عليه الأثرياء"

ثم عادتا لما كانتا فيه من بكاء مرير وإلى الأسى والكآبة.

وكانت إحدى السيدات المبتهجات القاطنات في الجوار قد طرقت بابهما مساء لكي تطلب منهما بعض الطعام وسألتهما:

"ألم تجدا أمام باب منزلكما هذا الصباح إكليلًا من الزهور؟"

أجابتا: "لا. هل وجدت أنت مثل ذلك الإكليل أمام باب منزلك؟"

وأجابت السيدة:

"نعم، وجدت أجمل إكليل زهور في العالم. إكليل رائع لم يسبق أن شاهدت مثله طوال حياتي. تُرى من قد يكون من صنعه بمثل هذا الجمال والروعة؟ لكن..."

ثم توقفت على الفور عندما شاهدت تعبير الحزن والأسى على وجهيهما ثم طلبت منهما التحليّ بالصبر ثم قالت:

"سوف أعطيكما جزءًا من الإكليل الذي لدي. سوف أقسمه إلى قسمين"

لكن الأخت الأكبر سنًّا قالت بسرعة:
"لا. هذا مستحيل. لابد أن هناك سببًا ما قد جعلنا لا نحصل على مثل هذا الإكليل. يجب أن تحتفظي بإكليل زهورك كما هو إلى أن نعلم سبب حرماننا من مثل هذا الإكليل"
كان من الجيد بالطبع أن تُقاوم نفسها وأن ترفض العرض وألا تقبل الحصول على ما لا يخصّها ولما لا يعود إليها.
مرّ أسبوع، ثم كان أحد الأطفال في القرية قد روى لجميع الجوار بأنه قد حلم حلمًا غريبًا. كان قد حلم بأن ملاكًا جميلًا قدِم من السماء وجلب الزهور لجميع المنازل التي شاهد من نوافذها ضوءًا لمصباح.
وكانت الشقيقة الأكبر سنًّا عندما سمعت ما روته لها جارتها عن ذلك الحلم الغريب قد قالت لشقيقتها:
"ربما كان هذا هو سبب عدم حصولنا على إكليل للزهور، فنحن لم نكن قد أشعلنا المصباح في تلك الليلة هل تذكرين ذلك؟
لابد أن هذا هو السبب لأن جميع المنازل التي كان يبدو من نوافذها الضوء قد حصلت على تلك الزهور"
وأجابتها شقيقتها: "أعتقد ذلك. لذا أن علينا أن نتحلى دومًا بالأمل وألا نطفئ الأنوار في منزلنا فهي التي تشير إلى الأمل وهي تجعل شعلة الأمل مضيئة في حياتنا على الدوام".

قوّة الإيمان

Faith Force

للكاتب هنري فريدريك كوب

عندما يتقبل المرء السقوط في بؤرة الوحل عليه أن يتأكد بأنه سوف يجد هناك من سوف يدوسونه بأقدامهم.

ـ ليس بإمكان المرء الذي يؤمن بالأمور الصغيرة فقط أن يُحقق الأمور الكبيرة، فأنت إن آمنت بإمكانية تحقيق البعض فقط من طموحاتك لن تتمكن من الوصول إلى تحقيق كامل طموحاتك لأن إيمان المرء هو الذي يحفّز، وهو الذي يُعيّن له حدود ما عليه أن يقوم به لتحقيق طموحاته، فليست الجبال سهلة الارتقاء بالنسبة للرجال الذين يقفون مُثبطي الهمة أمام مجرد هضبة خالية.

ـ على المرء أن يقهر الصعاب وأن يتغلب على الإجهاد العصبي في نفسه وإلا فلن يتمكن على الإطلاق من الانطلاق في طريقه، فلابد أن تكمُن خلف كل تصرف حرّ عقيدة واقتناع وإيمان راسخ.

ـ جميع المعارك التي خاضها بني البشر سواء أكانت المعارك التي خسروها أم التي انتصروا فيها كانت بالإيمان، لأن الإيمان هو الثقة التي تقود إلى جميع الجهود التي تُحقق النصر، وهو الذي يوصل إلى الرؤية التي تملأ نفس المرء بالمقدرة والعزم.

ـ عين المؤمن الحقيقي ترى الجائزة في النهاية قبل أن تبلغها، أما عين الخائف فهي تنظر عن كثب إلى الصعوبات والى المخاطر في طريق سعيها لتحقيق هدفها بحيث تغفل تمامًا عن رؤية الجائزة التي تناضل من اجلها.

ـ هناك قدر لا بأس به من الاعتقادات التي تؤخذ على أنها من الإيمان، فقد يقول بعض الأشخاص:

"كل ما علينا فقط هو أن نؤمن بالله تعالى وأن ندَع الأمور تأخذ مجراها ولابدّ أن تكون الأمور بخير"، لكن هذا الأسلوب في التفكير يُعتبر نوع من الاستسلام

والتكاسل والتواني. المؤمن الحقيقي هو الذي يعمل يملؤه شعور بالثقة بأنه سوف يحصد نتيجة عمله لأنه قام بواجبه بكل مثابرة.

ـ السذاجة والإيمان بالخرافات ليسا بالإيمان وإنما الإيمان هو بُعد النظر والبصيرة التي تجعل المرء يتطلع إلى ما ينتظره في الجنان، والعين التي ترى بوضوح هي التي العين التي تنظر بوضوح إلى الأمور.

أفضل من يتحلى المرء هو الثقة التي لايمكن أن يتوصل إليها المرء ما لم يدركها وما لم يتبيّنها بنفسه وليس بواسطة شخص آخر.

ـ على المرء أن يخوض التجربة بنفسه. لايمكن أن يُعتبر الشخص مضحيًا شهيدًا إن كان ذلك بموجب عمل قام به بواسطة شخص آخر.

ـ الإيمان الحقيقي هو وحده مصدر القوة في هذا العالم وهو يولد بالفطرة، والإيمان هو الذي يكوّن شخصية المرء.

ـ إن لم تكن تؤمن بالآخرين فكيف ستكون رجلًا؟ وإن لم تؤمن بأشياء أفضل وأكثر رفعة وأكثر نقاء فكيف سيكون بإمكانك أن تتقدم وأن تتقرب من الآخرين؟

ـ لو كان إيمانك في أعماق نفسك يقتصر على الأشياء الوضيعة الدنيئة فسوف تكون حياتك بكاملها كذلك، ولن تسفر أية جهود خارجية ولا أية علامات مميزة أخرى في تغيير مجرى حياتك.

ـ بإمكان المرء أن يُقيّم قدر الأشخاص في هذا العالم بالاستناد إلى قوتهم وإلى إيمانهم الراسخ، فقد تكون فقيرًا بدون أصدقاء وحيدًا منبوذًا غير معروف لكن بإمكانك التغلب على كل ذلك إن كان الإيمان يُنير قلبك بشعلة لا تخبو ولن تكون حتى لأفضل الصفات والمزايا العقلانية والجسمانية أية قيمة بدون شعلة قوة الإيمان.

ـ بإمكان الرجل الذي يتحلى بالإيمان أن يجد دوماً الوسيلة لقهر المصاعب وللتغلب على العقبات.

ـ الإيمان هو الذي يمنح المرء الثبات والقوة والعزيمة فليس هناك ما هو أكثر نبلًا من إيمان المرء بأن الله تعالى هو الذي يقودنا والذي يحقق إيماننا، ذلك لأن عين الله تعالى ترى ما في أعماق النفوس من خير ولأن يده الكريمة هي التي توجهنا إليه.

الخوف والإيمان

قد لايستند الإيمان بالنسبة للكثير من الأشخاص إلى الحِجة العقلانية وإنما من الشعور بالاستسلام. فمثل أولئك الأشخاص لديهم ما يمكن أن نُطلق عليه صفة الإيمان الذي ينقذ وهم بذلك يشعرون بأن الله تعالى هو الذي يُوجههم وهو الذي يغفر لهم ذنوبهم. ومما لا شكّ فيه أن إيمان أولئك الأشخاص إيمان صادق وكامل، إيمان ينتزع من قلوبهم الخوف فبالنسبة إليهم يتجلى الإيمان بكل ما هو رحمة الله تعالى. أليس الله تعالى من خلق هذا الكون الجميل لكي ننعم بما يسّره لنا فيه ولكي نكون سعداء؟ أليس الله تعالى من خلق الجنان؟ أليس الله تعالى يزرع في نفوس البشر بذور الفضيلة والطيبة؟ فكل مما يمكن أن تصل إليها معرفة البشر في هذا الكون هو من صنع الله الكريم.

لكن الإيمان الذي ينطلق من الخوف فقط يُبعد الإنسان عن الله تعالى العزيز القدير، بيننا يعزّز الإيمان حب المرء لله تعالى لما أنعم به علينا.

ـ الخوف يجعل المرء ينظر إلى الجحيم فقط بينما يجعله الحب يجد في الإيمان الأمان والسلام والأمل بحياة أفضل وبانتصار الحق على الباطل.

ـ الحب الحقيقي لله تعالى يجعل المرء يشعر بالسعادة.

ـ حب الله يهدئ الآلام ويهذب الطباع. فليس بإمكان المرء أن يواجه المستقبل ما لم يكن مُتحلّيًا بقوة الإيمان الذي هو الشيء الوحيد الذي يمنحه العزيمة في نظرته إلى المستقبل وفي السعي الحثيث دون كلل لتحقيق ما عليه القيام به.

كان الإيمان في جميع العصور هو القوة وهو الأمر الذي يُقيّم الماضي والذي يُحدد المستقبل، فليس بإمكان المرء أن يُحقق الانجازات العظيمة بدون قوة الإيمان الذي يمنحه الأمل والثقة والصبر والطمأنينة.

أليس إيمان الأم بولدها ما يجعلها تتقبل المعاناة؟ ألبس الإيمان ما يبقيها حليمة؟ أليس الإيمان ما يجعل الأب قادرًا على الكفاح مهما كانت متاعب الحياة.

ـ الإيمان يجعل العالم أكثر غنى ورِفعة والمرء المؤمن يشعر بأن هناك دومًا هدف ما وبأن هناك دومًا رؤية خلف كل عمل سامٍ يقوم به.

ـ لا أهمية لما نقوم به من عمل وإنما الأمر الأهم هو الروح التي نُنجز بها هذا العمل، وهذا هو الأمر الذي يجعل لما نقوم به الكثير أو القليل من الأهمية، والإيمان هو الذي يُحفز تلك الروح فينا وهو الذي يجعلنا نحب ما نقوم به.

ـ الإيمان هو الذي يرسم المصادر غير المنظورة للقوة وللتجديد، والإيمان هو الذي يوجد التواصل مع الغير منظور، فكم قد تكون الحياة فارغة إن لم تكن فيها سوى الأمور المادية؟ وكم قد يشعر المرء بالضياع إن كان ما يغذيه هو الوقائع المادية الجامدة فقط.

ـ الإيمان ليس التواكل والثقة العمياء بأن الله تعالى سوف يؤمن لنا قوتنا اليومي وإنما على المرء أن يستمد من إيمانه القدرة على السعي الحثيث للحصول عليه.

الصداقة

للكاتب ارثر بينسون

Arthur C. Benson

يقول مثل فرنسي بأن أفضل طريقة لجعل المرء محبوبًا هي بأن يكون مفيدًا للآخرين، وهو قوال مأثور قد يستخف به الشبان ويعتبرونه تافهًا، وقد يستمع إليه من هم في متوسط العمر بشيء من الاستغراب ويتساءلون عن أهميته، لكن كبار السن يكتشفون مع مرور الأيام بأنه حقيقة ويأسفون على الفرص التي أضاعوها وعن السنوات التي كرّسوها إلى أمور أخرى غير مفيدة.

الحقيقة أن غالبية البشر ممن ليست لديهم أية طموحات على الإطلاق لا يبدؤون حياتهم بالتطلّع إلى أن يكونوا ذوي فائدة للآخرين، وإنما هم يحلمون كالأطفال بأن يكون القمر والشمس وحزمة من النجموم تحت تصرفهم، فنحن نرغب بأن نكون أثرياء ولدينا تأثيرنا على الآخرين لكي نُثير بذلك إعجاب من حولنا، لكن كل تلك الرؤى تزول بالتدريج مع مرور الزمن ويصبح علينا أن نكتفي بركن هادىء وبشيء من الاهتمام يمنحنا بعض التميّز. أما بالنسبة لحزمة النجوم فسوف ننسى وجودها، فنحن عندما نتعقد بأن لنا تأثيرنا الكبير على الآخرين بما نمتلكه من ثروة ومن جمال لن نكون سوى مدّعيين، لأن الثروة ليست سوى تعويذة ضد الفقر كما أنها قد تتسبب لنا بمعاناة، كما لابدّ لنا أن نُدرك بأن الجمال سوف يذبل بالتعب وبتبلّد الإحساس وبأن تأثيرنا لن يكون إلا على بعض الأشخاص، وبأن أفضل التأثير على الآخرين قد يكون لمن لا يعرفون حتى بأنهم يمتلكونه، وبأن الإعجاب ليس سوى قشور زائفة برّاقة قد تتضمن أو قد لا تتضمن أي جوهر حقيقي.

سوف نُدرك مع الزمن بأن أفضل التيجان كانت قد وضعت على رؤوس أشخاص لم يفكروا بالحصول عليها، وبأن الأشخاص البسطاء وغير الأنانيين هم من فازوا بالجائزة التي رفضها الأشخاص اللامعين الأذكياء والطامحين، وهذا ما يمكن أن نُطلق عليه تعبير خيبة الأمل الذي هو من الأمور المحزنة بالنسبة للأشخاص الذين ينظرون إلى جهة واحدة فقط، وأن كرم الأخلاق من أجمل الأشياء وأنقاها وأن على

مرء أن يستحق إعجاب ومحبة الآخرين لا أن ينتزعها من الآخرين، وبأن على المرء أن يتميّز بالتواضع وأن يشعر بالامتنان لبعض ما لما يحصل عليه من صداقات حقيقية لا تستند إلى أمور زائفة.

ـ الصديق هو الشخص الذي يحتاجه المرء وهو بالمقابل الشخص الذي هو بحاجة إليه.

ـ الحياة تكون أجمل وأرق وأقوى وأكثر كمالًا وجمالًا بوجود الأصدقاء، سواء أكان الصديق قريبًا منا أو بعيدًا عنا، لكن أفضل حالات الصداقة بالطبع هي بأن يكون الصديق قريبًا منا لكي يفكر معنا ولكي يُشاركنا يساعدنا عند الحاجة.

لكن ربما كان علينا أن ندرك بأن من الخطأ أن نعتقد بأننا نبحث عن صداقة الشخص لما يتحلّى به أو لما لديه من صفات حميدة فقط، فقد لا ترتبط الصداقة بذلك الأمر، ونحن نسعد لو كان لدى الصديق الصفات الحميدة التي ننشده، لكننا كثيرًا ما قد نتغاضى عن ذلك لأن ما نهتم به هو الشخص وليس ما يقوله أو ما يفعله، أو ما لا يقوله وما لا يفعله.

وقد نعتقد أحيانًا بأننا قد تصادقنا مع شخص وبأننا قد أصبحنا على علاقة حميمة به، لكننا قد نكتشف بعد التعامل معه عن قرب بأننا غرباء عنه، وبأنه يختلف عنا في كثير من الأمور، ومع ذلك قد تستمر تلك الصداقة لو أننا كنا قد ارتبطنا به عاطفيًّا.

ومن المسلّم به أن الصداقات القوية تنشأ عادة بين الأشخاص الذين لديهم ذات النظرة إلى الحياة، لكنها قد تنشأ أيضًا بين أشخاص تختلف وجهات نظرهم إلى الحياة، لكن في مثل هذه الصداقات سوف تكون هناك صعوبات كبيرة لما سوف يكون على الصديق أن يبذله من جهد للإقلال من أهمية ما لدى صديقه من عيوب.

يقول مثل هندي: (عندما تضرب الصاعقة يكون أسوأ الأشخاص من الأصدقاء)، ويعني هذا أن الخطر المشترك يقرّب حتى بين الأشخاص السيئين، لكن الشيء الجوهري في الصداقة بالنسبة للكثير منا هو ذلك النوع من تبادل الثقة بين شخصين، وهو أيضًا ما يجعلنا لا نصدق بأن ذلك الشخص قد يسيء إلينا، حتى لو أساء ذلك الصديق إلينا فنحن قد نغفر له ونُقنع أنفسنا بأنه لن يفعل ذلك من جديد ونحن نستمتع بلذّة الغفران.

فمن بإمكانه أن يُفسّر المعنى الاستثنائي الغامض للغريزة التي قد تقول لنا، ربما بعد لقاء واحد فقط، بأن ذلك الشخص أو بأن تلك السيدة بالذات أكثر شخص

يصلح للصداقة؟ فقد لا تكون لدى الشخص المشار إليه أية ميزات أو مواهب خاصة سواء في أسلوب تصرفه أو في مظهره مما يجعلنا ننجذب إليه بشكل خاص لكن ذلك يكون نابعًا من أمر غريب يشدّنا إليه هو الغريزة.

ويقول أحد الشعراء اللاتين:

"هناك أمر أجهله يشدّ ويربط ويوحدّ حظنا أنت وأنا، فنحن قد نختلف أحيانًا، كما قد يتضاءل اقترابنا من بعضنا البعض لبعض الوقت، وقد نصبح شيئًا فشيئًا أكثر برودًا، لكن ذلك لا يحدث كثيرًا؛ لأن تلك الحركة الغريبة في القلب ولأن ذلك الاشتباك السري بالأيدي، يبقى مبنيًّا على أمر عميق حيوي وعلى نوع من التقارب الروحي ومن الميل الرقيق ومن المحبة.

لذا يجب أن نقرّ بأن الحياة لابدّ أن تكون فارغة وكئيبة بدون الأصدقاء.

صديق مخلص

A devoted friend

للكاتب أوسكار وايلد

كان جرذ مائي يعيش في البحيرة قد أخرج رأسه من جحره ذات صباح ونظر حوله حيث كانت فراخ البطّ الصفراء الصغيرة الشبيهة بطيور الكناري تسبح حول البحيرة، بينما كانت البطّة الأم الناصعة البياض تُحاول تدريب تلك الفراخ على الوقوف على رؤوسها في الماء وتعرض عليهم كيف يتم الوقوف في الماء على الرأس وهي تُكرّر هذا القول:

"لن يُصبح لكم أي شأن قطّ في مجتمع البطّ ما لم يكن بإمكانكم الوقوف على رؤوسكم في الماء".

لكن فراخ البطّ الصغيرة لم تكن تلتفت لما تقوله، فلم يكن بإمكانهم لصغر سنهم فهم معنى أو فائدة أن يكون لهم شأنهم في مجتمع البطّ.

صاح الجرذ المائي العجوز:

"كم هم متمردون هؤلاء الصغار! هم يستحقون بالفعل أن تتركيهم يغرقون"

لكن البطّة الأم أجابته:

"لن أفعل ذلك بالطبع، لا شيء من هذا القبيل. لا يجوز أن يفتقر الأهل إلى الحلم، كما أن هناك دومًا مرّة أولى لكل شيء"

أجابها الجرذ المائي:

"في الواقع ليست لدي أية فكرة عن مشاعر الأهل تجاه أولادهم، فأنا لست ربّ عائلة، لم أكن قد تزوجت ولست أنوي ذلك. الحب بحدّ ذاته جيّد جدًّا لكن ما هو أرفع قيمة منه هي الصداقة، ولست أرى في هذا العالم ما هو أنبل وأندر من صديق مخلص"

سأله طائر زُقاقي كان جاثمًا على شجرة صفصاف في مكان قريب من البحيرة كان قد سمع المحادثة:

"أعلمني من فضلك، ما هي فكرتك عن واجبات الصديق المخلص؟"
وقالت البطّة: "هذا تمامًا ما كنت أرغب بمعرفته أنا أيضًا"
ثم عامت في الماء وابتعدت إلى آخر البحيرة ووقفت هناك على رأسها لكي تُعطي أولادها مثلًا جيدًا عن طريقة العوم على الرأس داخل الماء.
قال الجرذ المائي:
"ما هذا السؤال الساذج؟ أتسألني عما أتوقعه من صديق مخلص؟ ما أتوقعه منه بالطبع هو أن يكون مخلصًا لي وفي كل شيء"
قال الطائر وهو يسبح فوق الرذاذ الفضي ويرفرف بجناحيه الصغيرين:
"وما الذي ستقدمه له بالمقابل"
أجاب الجرذ المائي: "لست أفهم ما تقصده. لِمَ عليّ أن أقدم له شيئًا بالمقابل ما دام صديقي"
حينئذ قال الطائر: "لذا دعني أروي لك قصّة أعرفها عن هذا الموضوع"
سأله الجرذ المائي: "أتقصد بأنها قصّة عني؟ لو كانت هذه القصّة عن فسوف أصغي إليها فأنا أحب القصص جدًّا"
وكان الطائر قد طار وحطّ في الأسفل إلى جانب الضفة وقال:
"نعم، هذه القصّة تنطبق عليك تمامًا"
ثم بدأ يروي له قصّة الصديق المخلص...
قال الطائر: "كان هناك في سالف الأزمان رجل ساذج مخلص يدعى (هانس)"
سأل الجرذ الصغير: وهل كان مُتميّزًا؟"
أجابه الطائر: لست أعتقد أنه كان مُتميّزًا على الإطلاق، ما عدا بما يتعلق بطيبة قلبه وبوجهه المستدير البشوش. كان هانس يعيش بمفرده في كوخ صغير وكان يعمل طوال اليوم في حديقته بحيث لم تكن في البلدة أية حديقة بمثل جمال حديقته.
كانت حديقته تحوي على مختلف أنواع النباتات والزهور: خيشوم، ورد دمشقي، ورود صفراء، وزنابق، وزعفران، وزهور البنفسج الذهبية والبيضاء والزرقاء والأرجوانية، وكذلك النرجس الأصفر، والقرنفل، والمسك، ونبات العَترة، وكانت جميعها تُزهر بالترتيب وتتفتح مع مرور الأشهر بحسب الفصول. كانت كل زهرة منها تُزهر في وقتها الواحدة تلو الأخرى، وبذلك كانت حديقته تحتوي دومًا على الأشياء الجميلة التي تُمتع النظر وعلى روائح ذكيّة يشمّها المارّون.

كان لهانس العديد من الأصدقاء لكن أكثرهم إخلاصًا -وهذا برأيه- كان الطحّان ميلر. كان ذلك الطحان الثري مخلصًا بالفعل لهانس -أسلوب تهكّمي- بحيث لم يكن يمرّ بجانب حديقته دون أن ينحني فوق الجدار لكي يقطف باقة كبيرة من الزهور أو حفنة من الأعشاب، أو أن يملأ جيبه بالكرز والبرقوق لو كان مروره قد صادف في موسم نمو الفاكهة.

كان الطحان ميلر يقول دومًا: "على الأصدقاء الحقيقيين أن يتشاركوا في كل شيء" وكان هانس يهزّ رأسه ويبتسم وهو يشعر بالكثير من الفخر بأن يكون لديه صديق بمثل تلك الأفكار النبيلة، لكن القاطنين في الجوار كانوا يرون بأن من المستغرب بالفعل ألا يقوم ذلك الطحان الثري بإعطاء هانس أي شيء بالمقابل على الرغم من أن لديه في طاحونته المئات من أكياس الطحين المُخزنة بالإضافة إلى ستّ بقرات تدرّ الحليب وقطيع كبير من الخراف.

لكن هانس لم يكن يُجهد ذهنه بمثل تلك الأمور، ولم يكن هناك ما قد يجعله يشعر بالبهجة أكثر من سماعه تلك الأشياء الرائعة التي كان الطحان يقولها عن عدم أنانية الصديق الحقيقي.

كان هانس في ذلك العام قد عمل في حديقته طوال فصول الربيع والصيف والخريف بكل جدّ ومثابرة وكان سعيدًا جدًّا بذلك. لكن عندما حلّ الشتاء، لم تعد لديه في حديقته أية فاكهة أو زهور لكي يبيعها في السوق، وكان بذلك قد بدأ يُعاني كثيراً من البرد والجوع، وحتى أن كان عليه في كثير من الأحيان أن يأوي إلى فراشه دون عشاء ما عدا ما لديه من بعض الكمّثرى الجافة ومن البندق القاسي.

لكن ذلك الصديق الطحّان لم يعد يمرّ به أويزوره ولم يعرض عليه المساعدة على الرغم من أنه كان قد أصبح وحيدًا وبائسًا للغاية، وإنما كان قد اعتاد أن يقول لزوجته:

"لا فائدة من ذهابي لزيارة هانس مع استمرار سقوط الثلوج. لأن الناس يُفضّلون عادة البقاء بمفردهم عندما تواجههم المشكلات ولا تكون لديهم أية رغبة بأن يزعجهم الغرباء!

هذه هي فكرتي عن الصداقة وأنا متأكد من أنني على صواب! لذا سوف أنتظر قدوم الربيع لكي أزور هانس، وسوف يكون بإمكانه حينذاك أن يعطيني سلّة كبيرة من زهور الربيع التي سوف تجعلني أشعر بالسعادة"

وكانت زوجته التي كانت جالسة في مقعد مريح بجانب النيران الدافئة قد أجابته:

"لا شكّ في ذلك. أنت بالفعل تحرص كثيرًا على مشاعر الآخرين. نعم، أنت بالفعل كذلك، ومن الممتع أن يسمعك المرء تتحدث عن الصداقة. أنا متأكدة بأنه ليس بإمكان الكاهن ذاته أن يتحدث بمثل هذه العبارات الجميلة كما تفعل أنت، على الرغم من أنه يعيش في بيت من ثلاث طوابق ومن أن لديه خاتمًا ذهبيًّا في إصبعه الصغيرة.

لكن أصغر أبناء الطحّان سنًّا كان قد قال:

"لكن أليس بإمكاننا أن ندعو هانس للقدوم إلى هنا؟ ولو كان يعاني من المشاكل فسوف أعطيه نصف حصتي من الثريد وسوف أريه ما لدي من أرانب بيض"

لكن الطحّان كان قد صاح به:

"كم أنت غبي أيها الفتى! لست أرى ما الفائدة من إرسالك إلى المدرسة، يبدو أنك لم تتعلم شيئًا. أتدري لماذا؟ فلو جاء هانس إلى هنا وشاهد ما لدينا: نار دافئة وعشاء جيد وكعكة حلوى كبيرة، قد يجعله ذلك يشعر بالغيرة وبالحسد مما لدينا. الحسد من الأمور الرهيبة التي تُفسد نفس المرء وأنا لن أسمح بالطبع بأن يحدث مثل ذلك لهانس فأنا أفضل من لديه من الأصدقاء. سوف أرعاه على الدوام وسوف أحرص على ألا يتعرّض لأية إغراءات، وعدا عن ذلك فلو جاء هانس إلى هنا قد يطلب مني أن أقرضه بعض الطحين وهذا ما ليس بإمكاني أن أفعله. الطحين شيء والصداقة شيء آخر ولا مجال للخلط بينهما.

كان بإمكان أي شخص أن يُدرك بأن ميلر الطحان لم يكن قد تلفّظ بتلك العبارات عن غير قصد أو بأسلوب يختلف عما كان يقصده بالفعل من ذلك.

وكات زوجته قد قالت وهي تسكب لنفسها كأسا كبيرة من الشاي الدافئ:

"كم تتحدث بحكمة! أكاد أشعر بالدوار لأن ما تقوله يبدو كما لو أنه يُقال في موعظة كنيسة"

وكان الطحّان بقد أجاب تفاخر:

"قد يتصرف الكثيرون بشكل جيّد لكن هناك القليل ممن يتحدثون بأسلوب جيّد وهذا ما يُثبت أن التحدّث هو الأكثر صعوبة بين الأمرين كما أنه الشيء الأفضل بينهما".

ثم نظر بتجهّم إلى ابنه الصغير الذي كان قد شعر بالكثير من الخجل مما أبداه والده من ملاحظة حول هانس والذي كان قد أحنى رأسه للأسفل وقد اصطبغ وجهه بحمرة قانية ثم بدأ يبكي قال الطحان:

"لا زال الفتى صغير السن جدًّا لذا يجب أن نصفح عنه"
وكان الجرذ المائي قد سأل:
"أهذه هي نهاية القصّة؟"
أجاب الطائر: "لا، بل هذه بدايتها التأكيد بدايتها"
قال الجرذ المائي: "لا بد أنك لست من هذا العصر ففي هذه الأيام على كل من يروي قصّة أن يبدأها من نهايتها ثم ينتقل إلى بدايتها لكي يُنهيها بعد ذلك في منتصفها. هذه هو المنهج الجديد. كنت سمعت ذلك أمس من أحد النقّاد بينما كان يتجوّل حول البحيرة مع أحد الشبان. كان قد تحدث عن الموضوع مطوّلًا، وأنا على يقين بأنه على حقّ، لأنه كان يرتدي نظارة زرقاء اللون، كما أنه أصلع الرأس وكان يجيب بتهكّم على كل ملاحظة كان قد أبداها الشاب الذي يرافقه. ما أرجوه الآن هو أن تستمر في سرد قصتك لأنني أحببت ذلك الطحان كثيرًا لأن لديّ أيضًا مثل تلك المشاعر الجميلة، ما يُشير إلى هناك الكثير من التعاطف بيننا".
قال الطائر وهو يقفز بقدم وأخرى: "حسنًا"...
وكان الطحان، فور انتهاء فصل الشتاء عندما بدأت زهور الربيع تتفتح من جديد أشبه بنجوم ذهبية اللون، قد أعلم زوجته بأنه سوف يذهب لرؤية هانس.
وكانت زوجته قد هتفت: "كم أنت طيب القلب؟ أنت تفكر دومًا بمشاعر الآخرين، لكن أرجو لا تنسى أن تأخذ معك سلّة كبيرة لكي تجلب الزهور"
وكان الطحّان قد أوقف العمل في طاحونته وتوجّه نحو التلّ وهو يحمل تحت ذراعه سلّة كبيرة.
قال الطحّان: "عِمت صباحًا هانس"
ابتسم هانس ابتسامة لطيفة وأجاب: "عِمت صباحًا"
ثم قال الطحّان: "كيف كان وضعك أثناء فصل الشتاء"
قال هانس: "في الحقيقة من اللطف أنت تسألني عن ذلك، هذا لطف كبير منك بالفعل. أخشى أن أقول بأنني كنت بالأحرى قد عانيت كثيرًا، لكن الربيع قد حلّ الآن وأنا سعيد جدًّا فها قد بدأت جميع الزهور تنمو من جديد وبشكل جيّد"
قال الطحّان: "كنا أنا وزوجتي نذكرك دومًا أثناء فصل الشتاء ونتساءل كيف تسير الأمور معك؟"
قال هانس: "هذا لطف منكم، اعتقدت بأنكم نسيتموني"

قال الطحّان: "ما هذا هانس؟ أنا أعجب من موقفك هذا، الصداقة لا يمكن أن تُنسى. وهذا هو الشيء الرائع فيها. أخشى ألا تكون قد فهمت السرّ الشاعري للحياة. وبالمناسبة، كم تبدو زهورك جميلة!"

قال هانس: "هي هكذا بالتأكيد. من حسن حظي أنه قد أصبح لديّ الكثير منها الآن، سوف أحملها اليوم إلى السوق لكي أبيعها إلى ابنة العمدة، وبذلك سيكون بإمكاني أن أستعيد بقيمتها العَجلة التي كنت رهنتها"

قال الطحّان: "أتريد أن تستعيد عجلتك؟ لا أظنك تعني بأنك بعتها؟ كم كان ذلك من الخبل؟"

قال هانس: "حسنًا، في الواقع كنت مُجبرًا على ذلك. أترى، كان فصل الشتاء قاسيًا جدًّا بالنسبة إليّ، ولم يكن لديّ ما يكفي من مال حتى لشراء قوتي اليومي. كنت قد بعت في البداية أزرار معطفي المصنوعة من الفضة، ثم بعت سلسلتي الفضية، ثم بعت غليوني الكبير إلى أن اضطررت في النهاية إلى بيع عجلتي، لكنني سأسترد من جديد كل ما كنت بعته سابقًا".

قال الطحّان: "سوف أعطيك عجلتي. هي في الواقع ليست بالتعويض الجيّد جدًّا لأن أحد جانبيها مكسورًا كما أنها قد تحتاج إلى إصلاح إحدى العجلات، لكنني مع ذلك سوف أعطيها لك. أعلم بأن هذا كرم كبير مني، وقد يعتبر الكثيرون أن تنازلي عنها من الخبل، لكنني لست مثل غيري من الأشخاص في هذا العالم، فأنا أؤمن بأن الكرم هو أساس الصداقة، وبالإضافة إلى ذلك لديّ بالإضافة إلى ذلك عربة نقل جديدة .نعم، بإمكانك الآن أن تُريح ذهنك فسوف أعطيك عربتي"

قال هانس وقد أشرق وجهه المستدير بالسرور: "هذا بالفعل كرم منك، بإمكاني إصلاحها بكل سهولة فلديّ بعض الألواح الخشبية لأن عليّ أن أضع لوحًا من الخشب على سطح المنزل"

قال الطحّان: "أهذا صحيح؟ فهذا ما أحتاجه أيضًا لسقف الإسطبل، هناك ثقب كبير فيه، وإن لم أقم بإصلاح السقف على الفور فسوف تُصيب الرطوبة الذرة. من حسن الحظ أنك أشرت إلى ذلك! من الرائع أن المرء عندما يقوم بعمل صالح فلابد أن يُثمر ذلك بشكل أو بآخر. كنت قد أعلمتك بأنك سوف أعطيك عربتي وسوف تعطيني الآن لوح الخشب الذي لديك. من المؤكد أن العربة تساوي أكثر من لوح الخشب، لكن الحقيقة أن الأصدقاء لا يلتفتون فيما بينهم لمثل هذه الأمور. رجاء،

اذهب على الفور واجلب لي لوح الخشب لأن عليّ أن أبدأ على الفور بإصلاح سقف الإسطبل".

وكان هانس الطيّب قد هتف: "سوف أفعل ذلك بالتأكيد. سوف أجلب لك لوح الخشب على الفور"

ثم ركض وسحب لوح الخشب من العليّة وأحضره إليه.

نظر الطحّان إليه وقال: "هذا اللوح الخشبي ليس كبيرًا، سوف أصلح بواسطته سقف الإسطبل لدي، لكنني أخشى ألا يتبقى لك منه ما قد يكفي لإصلاح عربتك، لكن ليست هذه غلطتي بالطبع. والآن، وأنا متأكد الآن، بما أنني سوف أعطيك عربتي، بأنك سوف تعطني بعض زهورك. ها هي السلّة ولتتأكد من ملأها تمامًا بالزهور"

قال هانس وكان ذلك بالأحرى بحزن لأن السلّة كانت كبيرة جدًّا ما يعني بأنه لو ملأها بالزهور فلن يتبقى لديه ما يبيعه، وكان يرغب كثيرًا باستعادة أزراره الفضية:

- أتريدني أن أملأها تمامًا؟

أجاب الطحّان: حسنًا، ما دمت سأعطيك عربتي فهل من الكثير أن أطلب منك بعض الزهور. قد أكون مخطئًا لكنني اعتقدت بأنه ليس هناك أية أنانية في صداقة حقيقية من هذا النوع.

وكان هانس الطيّب قد صاح:

"يا صديقي، يا أفضل أصدقائي، بإمكانك أن تأخذ كل ما لدي في الحديقة من زهور، فمن الأفضل لي أن أحظى بتقديرك من أن أستعيد أزراري الفضية"

ثم ركض واقتطف أجمل ما لديه من زهور الربيع وملأ بها سلّة الطحان.

قال الطحّان: "إلى اللقاء الآن"

ثم انطلق وعلى ظهره لوح الخشب ومعه سلّة مليئة بالزهور اليانعة.

وكان هانس قد عاد إلى فلاحة الأرض بكل سرور لأنه سوف يحصل على العربة.

في اليوم التالي، بينما كان هانس وهو يثبّت شجرة مليئة بالرحيق على طرف الشرفة كان قد سمع صوتًا يناديه من الطريق. وبذلك قفز إلى الأسفل وركض إلى الحديقة ونظر من خلف الجدار، كان ذلك ميلر الطحّان وعلى ظهره كيس كبير من الطحين.

قال ميلر: عزيزي هانس، هل تمانع في حمل هذا الكيس عني إلى السوق؟

قال هانس: آسف جدًّا فأنا في غاية الانشغال اليوم، عليّ أن أقوم بتثبيت جميع العرائش، وعليّ أيضًا سقاية جميع النباتات وتشذيب العشب.
قال الطحّان ميلر: "أعتقد بأنه ليس من المناسب أن ترفض ذلك ما دمت سأعطيك عربتي"
وكان هانس قدصاح حينئذ بأسف: "لا يا صديقي لا تقل هذا، فلن أتصرف تجاهك بأسلوب غير ودّي لأي سبب في العالم"
ثم ركض وكان بعد أن ارتدى معطفه قد حمل ذلك الكيس الكبير على كتفيه وهو يتعثر.
كان ذلك اليوم من الأيام الحارة جدًّا، وكانت الطريق مُغبرة جدًّا، وكان هانس قبل أن يصل إلى الميل السادس قد تعب للغاية وكان بذلك قد جلس لبعض الوقت لكي يستريح، لكنه تابع سيره بعد ذلك بكل بسالة إلى أن وصل أخيرًا إلى السوق. كان بعد أن انتظر لبعض الوقت قد تمكن من بيع الطحين بسعر جيد جدًّا ثم عاد على الفور إلى المنزل لأنه كان يخشى أن يتعرض للسرقة لو تأخر في العودة.
حدّث هانس نفسه وهو يأوي إلى فراشه: "كان هذا اليوم مُتعبًا للغاية، لكنني سعيد لأنني لم أكن قد رفضت طلب الطحّان ميلر فهو أفضل أصدقائي كما أنه سوف يعطيني عربته".
في صباح اليوم التالي وبينما كان هانس لا يزال في فراشه كان الطحّان قد جاء إليه في وقت مبكر لكي يأخذ المال وكيس الطحين الفارغ.
قال الطحّان: "أنت في الحقيقة كسول جدًّا... عليك أن تعمل بجد أكثر بما أنني سأعطيك عربتي. البطالة من أسوأ الخطايا وأنا بالتأكيد لا أحب أن يكون أحد أصدقائي كسولًا أو بليدًا... يجب ألا تتضايق من تحدثي إليك بهذا الأسلوب. لم أكن سأفعل ذلك بالطبع لو لم تكن صديقي، فما فائدة الصداقة إن لم يكن بإمكان المرء أن يقول ما يعنيه تمامًا؟ بإمكان أي شخص أن يقول لك ما قد يسرّك من كلام مُنمّق، وأن يمتدحك لكي يحصل على رضاك، لكن الصديق الحقيقي يقول دوماً الأشياء التي قد تزعج دون أن يهتم فيما إذا كان ذلك سيتسبب لصديقه بالألم لأنه يعلم بأنه يكون بذلك قد قدّم خدمة لصديقه"
قال هانس الطيّب وهو يفرك عينيه وينهض من فراشه:

أنا آسف جدًّا، لكنني كنت متعبًا للغاية لذا رأيت أن أستلقي في فراشي لبعض الوقت لكي أستمع إلى تغريد الطيور. هل تعلم بأنني أعمل دومًا بشكل أفضل عندما أستمع إلى تغريد الطيور؟

قال الطحّان وهو يضرب هانس على ظهره: حسنًا، أنا مسرور بذلك، لكنني أريدك أن ترتدي ملابسك على الفور وأن تأتي معي لكي تصلح لي سقف الإصطبل.

كان هانس المسكين متلهفًا جدًّا للذهاب إلى حديقته فلم يكن قد وجد الوقت لرّي نباتاته منذ يومين، لكنه لم يكن قد رغب برفض طلب ميلر الطحّان وهو من خيرة أصدقائه. لذا سأله بخجل وبصوت خافت: "أتعتقد بأنه من غير الملائم أن أقول لك بأنني مُنشغل؟"

أجابه ميلر: "في الواقع، أعتقد بأنني لست أطلب منك الكثير إن كنت طلبت منك أن تُصلح لي سقف الإصطبل، خاصة وأنني سوف أعطيك عربتي. سوف أقوم بإصلاحه بنفسي في حال رفضك القيام بذلك"

صاح هانس: "لا! لا! وبأي ثمن؟"

وكان قد قفز من فراشه وارتدى ملابسه وتوجّه على الفور إلى الإسطبل.

وكان هانس قد عمل هناك طوال اليوم وإلى وقت الغروب. وكان ميلر عندما حلّ الغروب قد جاء إليه لكي يشاهد كيف تجري الأمور. كان عندما شاهد السقف قد قال بسرور:

"هانس، هل أصلحت السقف بشكل جيد جدًّا؟"

قال هانس وهو ينزل من السلم: "ها قد تم إصلاحه تمامًا"

أجابه ميلر: "ليس هناك ما هو أفضل من العمل الذي يقوم به المرء لأجل الآخرين"

أجاب هانس وهو يجلس ويُجفف جبينه المُتعّرق: "ما أسمعك تقوله الآن يعتبر تقريظًا رفيعًا لي بالفعل. نعم هو كذلك بالتأكيد، لكنني أخشى ألا تكون لدي مثل هذه الأفكار الرفيعة التي لديك"

قال ميلر: "أووه. لا بأس، لا بأس، سوف تأتي إليك مع الوقت، لكن عليك أن تبذل المزيد من الجهد. كل ما عليك الآن أن تُثبت بتصرفك إخلاصك كصديق، وسوف ترى كيف ستصبح لديك مثل هذه المبادئ ذات يوم"

وسأله هانس بسذاجة: "هل تعتقد فعلًا بأنني سوف أفعل ذلك؟"

وأجاب ميلر: "ليس لدي أي شك في ذلك. والآن بما أنك قد أنهيت إصلاح السقف، فمن الأفضل أن تذهب إلى منزلك لأنني أريدك أن تقود غدًا قطيع الأغنام إلى الهضبة بدلًا عني"

وكان هانس البائس قد خشيَ الردّ على ما طلبه الطحّان بأي شيء وغادر.

وبذلك كان الطحان في صباح اليوم التالي، قد جلب القطيع إلى منزل هانس.

كان هانس قد قاد القطيع إلى الهضبة، وكان ذهابه إلى الهضبة وعودته منها قد استغرق منه طوال اليوم.

كان هانس بعد عودته قد شعر بتعب شديد، وبذلك كان قد استغرق في النوم على كرسيه وليس في سريره ولم يكن قد استيقظ إلى أن انتصف النهار.

ذهب على الفور إلى حديقته وهو يحدّث نفسه: سوف أمضي الآن وقتًا ممتعًا مع زهوري.

لكن لم يكن بإمكانه أن يتفرغ للعناية بزهوره لأن صديقه الطحّان ميلر كان يأتي إليه كل فترة لكي يطلب منه تأدية بعض المهام التي كانت تأخذ منه وقتًا طويلًا، أو لكي يطلب مساعدته في أعمال طاحونته.

كان هانس قد أصبح في غاية الاكتئاب لأنه بدأ يخشى أن تعتقد أزهاره بأنه نسيَها، لكنه كان يُعزّي نفسه بما كان يردّده له ميلر -أعز صديق لديه- ويقول:

"كما أنه سوف يمنحني عربته، وهذا الأمر بالذات يعتبر بمثابة الإحسان إليّ"

وهكذا، كان هانس البائس يعمل طوال الوقت لصالح ميلر بينما كان الأخير يُردّد له دومًا الكثير من الأشياء الجميلة حول الصداقة كان هانس يُدونها في كتيب صغير لكي يقرأها ليلًا. ذلك لأنه كان تلميذًا مُجدًّا!

وذات ليلة، بينما كان هانس جالسًا بجانب المدفأة كانت وصلت إلى مسامعه طرقة قوية على الباب. كانت تلك الليلة ليلة عاصفة، وكانت الرياح تعصف وتدوّي بشكل مخيف حول المنزل، لذا اعتقد هانس في البداية بأن ذلك الصوت قد نجم عن العاصفة. لكن تلك الضربة القوية كانت قد تكررت ثانية ثم تلتها ضربة ثالثة أقوى من أي من الضربات الأخرى.

لذا حدّث نفسه:

"لا بد أنه أحد المسافرين البؤساء"

وأسرع نحو الباب لكنه عندما فتح الباب وجد الطحّان ميلر واقفًا هناك ممسكًا بإحدى يديه مصباحًا وباليد الأخرى عصًا.

قال ميلر: "عزيزي هانس، لدي مشكلة كبيرة. سقط ابني الصغير من أعلى السلالم وجُرح، وعليّ الذهاب لإحضار الطبيب على الفور لكنه يُقيم في مكان بعيد جدًّا، لذا خطر ببالي بأنه ربما كان من الأفضل أن تذهب أنت بدلًا عني. أنت تعلم بأنني سوف أعطيك عربتي لذا فمن العدل أن تؤدي لي هذه الخدمة بالمُقابل".

هتف هانس: "نعم بالتأكيد، هذا بالتأكيد، فأنا أعتبر مجرد قدومك إلي لطلب المساعدة بمثابة التقدير لي، سوف أنطلق على الفور، لكن عليك أن ترشدني بمصباحك لأن الليلة مظلمة وأخشى أن أسقط في القناة"

لكن ميلر أجابه: "آسف جدًّا، فهذا هو مصباحي الجديد ولو كُسر فسوف تكون تلك خسارة كبيرة لي"

قال هانس: لا بأس، لا بأس، لا تقلق سوف أتدبر الأمر بدون المصباح". ثم وضع قبعة على رأسه ووضع لفاعًا حول عنقه وانطلق.

كانت العاصفة عاتية في تلك الليلة وكان الظلام دامسًا، ولم يكن بإمكان هانس حتى أن يرى ما أمامه، وكانت الرياح تعصف بشدة بحيث كان من العسير عليه أن يظل واقفًا، لكنه كان مع ذلك شجاعًا جدًّا، وبذلك استطاع أن يصل إلى بيت الطبيب بعد مسيرة دامت ثلاث ساعات. طرق الباب وكان الطبيب قد أخرج رأسه من تحت الملاءات وصاح: "من بالباب؟"

"أنا هانس أيها الطبيب"

"ما الذي تريده هانس؟"

سقط ابن الطحان ميلر من أعلى السلالم وجُرح ويطلب منك ميلر القدوم إليه في الحال.

قال الطبيب: "حسنًا"... ثم طلب من الخادم أن يُهيئ له حصانًا ومصباحًا وانطلق باتجاه منزل ميلر يتبعه هانس.

لكن العاصفة كانت قد أصبحت أسوأ فأسوأ، وكان المطر قد بدأ ينهمر بشدّة، وبذلك لم يعد بإمكان هانس أن يكبح حصانه وأن يرى إلى أين عليه أن يتجه ما جعله يضّل طريقه ويتخبط في المستنقع الذي هو مكان خطر جدًّا تنتشر فيه حفر عميقة، وبذلك كان ذلك البائس آخر الأمر قد غرق هناك.

كان بعض الرجال قد عثروا في اليوم التالي على جثته التي كانت طافية في بركة كبيرة من المياه وحملوه إلى كوخه.

كان الجميع قد شاركوا في تشييع هانس نظرًا لأنه كان من الأشخاص المحبوبين وكان الطحان المشيع الرئيسي بينهم قد قال:

"بما أنني كنت أفضل صديق له فمن العدل أن أتخذ المكان الأفضل في تشييعه"، وكان بذلك قد مشى على رأس الموكب بردائه الأسود الطويل، كما كان من حين لآخر يُجفف عينيه بمنديل كبير.

وعندما جلس الجميع بعد التشييع في النزل قال الحداد:

"من المؤكد أن وفاة هانس الطيّب تُعتبر خسارة كبيرة لنا جميعًا"

وكان ميلر الطحان قد أجابه:

"كما أنها في جميع الأحوال خسارة لي بالذات، كنت سأعطيه عربتي، ولست أدري ما الذي سأفعله بها الآن فهي تُعيق تحركاتي في المنزل، كما أنها بوضع سيء جدًّا لذا لم يكن بإمكاني أن أبيعها لكي أحصل على ثمنها. سوف أحرص منذ الآن على ألا أكون بهذا الكرم أعطي أي شيء مما لديّ للآخرين"

حينئذ قال الجرذ المائي بعد فترة تردّد طويلة: "حسنًا... وماذا بعد؟"

أجابه الطائر: "حسنًا، هذه هي نهاية القصّة"

سأل الجرذ المائي: "ولكن ما الذي آل إليه الطحّان؟"

أجاب الطائر: "أووه! في الحقيقة لست أعلم ما الذي حلّ به، كما أنني بالتأكيد لست مهتمًا بذلك"

قال الجرذ المائي: "من الواضح أنك بطبيعتك لست ممن يتعاطفون مع الآخرين"

وأجابه الطائر: "أخشى ألا تكون قد فهمت المغزى الأخلاقي من هذه القصة"

صاح الجرذ المائي: "المغزى الأخلاقي؟ هل تقصد القول بأن لتلك القصة مغزاها الأخلاقي؟"

قال الطائر: "بالتأكيد..."

أجابه الجرذ المائي بحنق: "حقًّا؟ حسنًا، أعتقد بأنه كان عليك أن تُعلمني بذلك قبل أن تبدأ بسرد القصة، لو كنت فعلت ذلك لما كنت استمعت إليك، وكان عليّ أن أهزأ بها كما فعل ذلك الناقد، ومع ذلك بإمكاني أن أقول لك ذلك الآن". ثم لف ذنبه حوله وعاد إلى جحره.

سألته البطّة التي كانت قد جاءت بعد بضع دقائق:

"كيف وجدت ذلك الجرذ المائي؟ ربما كان في رأيه العديد من النقاط الجيدة، أما بالنسبة إليّ فأنا لديّ مشاعر أمومة لذا ليس بإمكاني على الإطلاق أن أنظر إلى شخص غير متزوج دون أن تملأ عينيّ الدموع"

أجابها الطائر: "أخشى أن أكون قد ضايقته بتلك الرواية، لكن الحقيقة أنني كنت قد رويتها له على سبيل تذكيره بما لها من مغزى أخلاقي"

قالت البطّة: "وهذا الأمر بالتأكيد من أخطر الأشياء التي قد يفعلها المرء"

أما تعليقي على هذه القصّة فهو ما قاله أحد الحكماء:

(الحياة أخذ وعطاء... إذا صاحبتَ فصاحب من لا ينسى معروفك)

الصديق الصغير

The little friend

للكاتب أبي فرويل براون

الفصل الأول

كان بيير الصغير يبكي وهو يسير بخطى متعثرة تحت الثلوج التي كانت تتساقط بغزارة فوق سطح الهضبة وهو يُردّد:

"أشعر بالبرد... أنا أشعر بالبرد... نُدف الثلج المتجمدة تسقط فوق وجهي وتجرحه... لم يعد بإمكاني أن أشاهد طريقي!

أين هي أضواء الميلاد! يبدو أن سكان هذه القرية قد غفلوا عن ذلك... قد يضلّ الأب نويل طريقه هذه الليلة، أما أنا فلم أكن أنسى مطلقًا إضاءة المصابيح أمام نوافذ منزلنا ليلة الميلاد فهذه الليلة هي ليلة الميلاد لكن لم يعد لديّ منزل أضيء المصابيح فيه. أشعر بالبرد! أنا أشعر بالبرد...".

وكان الطفل قد بدأ ينتحب من جديد وهو يتعثر في الثلوج التي كانت تتساقط بأكثر وأكثر من كثافة على طرف الهضبة. كانت تلك الليلة أكثر ليالي الميلاد عصفًا. كان جميع الأولاد صغار السن الذين لديهم منازل تؤويهم جالسون حول المواقد وهم يشعرون بالبهجة لأنهم في مأوى يقيهم البرد القارص، وكانت نوافذ منازلهم تومض بالأضواء بانتظار ملاك الميلاد، لكن بيير الصغير البائس كان قد ظلّ تائهًا بعيدًا عن الطريق التي بإمكانه أن يشاهد منها النجوم البعيدة في السماء.

كان بيير قد خرج في الغسق من المدرسة الخيرية للأطفال اليتامى، وهي مدرسة لا تشبه بالطبع المنازل السعيدة الحقيقية، لأن المُشرفين فيها كانوا جلفين خشني الطباع بعيدين عن طباع الأشخاص الذين يحبون الآخرين، وكان يأمل الوصول قبل الغروب إلى كنيسة القرية للحصول على المال لقاء مشاركته بالإنشاد مع الفرقة صباح عيد الميلاد، ذلك لأن بيير كان يمتلك صوتًا جميلًا.

لكن الوقت كان قد بدأ يتأخر وسوف تغلق الكنيسة وقد ينتهي النشيد قبل وصول بيير إليها فما الذي بإمكانه أن يفعله.

كان الثلج قد بدأ يتساقط بغزارة أكثر وبسرعة أكبر فأكبر، وكان بيير قد بدأ يشعر بأن قدميه لم تعودا تحملانه وبأنه قد أصبح من العسير عليه أن يستمر في السير عبر الانجرافات الثلجية الكبيرة. كان قد بدأ يشعر بالخدر في قدميه وبأنهما أصبحتا أثقل فأثقل وبأن التعب الشديد قد بدأ يشلّ حركته تمامًا. كان يتمنى أن يتمكن من النوم إلى أن يحلّ صباح يوم الميلاد، لكنه كان يعلم بأن عليه ألا يفعل ذلك لأن من يختارون هذا النوع من السرير المريح الطري لابدّ أن يتحولوا إلى أشخاص جليديين. وبذلك كان قد أحنى رأسه وحاول من جديد أن يشقّ طريقه بصعوبة من خلال الثلوج المتراكمة.

ـ"ويش! ويش..."، وكان شيء ناعم أبيض قد ضرب وجه بيير ما جعله يترنح ويكاد يفقد توازنه ويسقط على الأرض.

كان بيير في اللحظة التي تلت قد أمسك بيده بذلك الشيء الذي ضرب وجهه. أمسكه برفق بأصابعه وإذا هي يمامة صغيرة بيضاء بياض الثلج. يمامة جميلة كانت قد ظلّت تطير تحت العاصفة إلى أن فقدت قدرتها على الطيران. كانت اليمامة الصغيرة قد أغلقت عينييها واستكانت بين يدي بيير الذي طوقها برفق وأخذ يحاول إعادتها للحياة وهو يقول برقة:

"يا لليمامة البائسة! يبدو أنك يا صغيرتي قد ضللت طريقك في هذه الثلوج كما حدث معي. سوف أحاول أن أدفئك على الرغم من أنني أيضًا أشعر ببرد شديد في كامل جسدي. وكان قد وضع اليمامة تحت سترته بالقرب من قلبه ما جعل تلك اليمامة تفتح عينيها وتتحرك قليلًا وهي تطلق بضعف: " كوكو... كوكو!"

قال بيير وقد نسي ما كان يشعر به من برد وجوع:

"ما أجملك أيتها اليمامة الصغيرة! كنت أتمنى أن يكون بإمكاني أن أصطحبك إلى منزلي لكي أطعماك كما كنت أطعم الطيور في ليالي الميلاد، لكن لم يعد لديّ منزل كما لم يعد لدي بذلك وسيلة للتدفئة".

وكان بيير وهو يرتجف قد حاول من جديد التقدم في سيره، لكن العاصفة كانت قد بدأ تُصبح أكثر عنفًا، لكن الرياح كانت تهب بشدة على وجهه بحيث أصبح من العسير عليه أن يظل واقفًا على قدميه. قال:

"لم يعد بإمكاني أن أخطو خطوة واحدة".

وكان قد سقط على الأرض وبدأت الثلوج تغمره بغطاء ناصع البياض.
احتضن بيير اليمامة بشكل أكبر وهو يشعر بالخوف، فقد أدرك بأنه قد أصبح معرضًا لخطر شديد، وهمس:
"آسف أيتها اليمامة العزيزة! فلن يكون بإمكاني أن أنقذك. يبدو أننا سوف نتحول معًا إلى أشياء ثلجية، لكنني سأحاول أن أجعلك تشعرين بالدفء بقدر ما أستطيع".
ثم أغلق عينيه لأنه كان يشعر بالكثير من التعب وبالنعاس.
لكن كان هناك بعد قليل ماجعل بيير يفتح عينيه فجأة. لم يكن بإمكانه في البداية أن يرى أمامه سوى الثلوج التي كانت تعصف بشدة، لكنه كان بعد ذلك قد تمكن من فتح عينيه وبذلك شاهد شكلًا منحنيًا نحوه. كان طفلًا بسن تقارب سنه. طفل مكتنز أحمر الوجه. أجمل طفل شاهده طوال حياته.
كان وجه الطفل قريبًا من وجهه وكان ينظر إليه وهو يبتسم غير عابئ بالثلوج المتساقطة عليهما.
قال الطفل: "لديك يمامتي داخل سترتك. كنتُ قد فقدتُها في هذه العاصفة... أعدها إليّ".
أجاب بيير وهو يُطبق على اليمامة أكثر: "كانت هذه الصغيرة تشعر بالبرد وكانت ستموت تحت وطأة الثلوج وأنا أحاول أن أدفئها".
قال الطفل: "لكنها ستشعر بالدفء عندما ستكون معي على الرغم من أنه ليس لدي معطف أدثّرها به".
لم يكن ذلك الطفل بالفعل يرتدي معطفًا. كان يرتدي قميصًا أبيض اللون وكان ساقاه عاريان وكان ما أدهش بيير تلك الهالة من الضياء التي كانت تُحيط به.
مدّ الطفل الغريب يده من جديد نحو بيير وقال له: "أرجو أن تعطني يمامتي لأن عليّ أن أسرع بالذهاب إلى القرية التي تقع هناك. كانت اليمامة قد تاهت مني وضلّت طريقها لذا وجدتَها أنت هنا بعيدًا عن الطريق التي تقود إلى القرية. شكرًا لك أيها الطفل الصغير، هل أنت دومًا بهذه الطيبة تجاه الطيور التائهة؟"
قال بيير: "لِمَ لا؟ الطيور من مخلوقات الله تعالى، فكيف يمكن ألا أكون طيبًا تجاهها وألا أحبها جدًّا. خاصة في ليلة يوم الميلاد! هذا أقل ما عليَ أن أفعله لمثلها. كنت سابقًا قد أنقذت وأطعمت الكثير من الطيور في ليالي عيد الميلاد. أما الآن فأنا

أشعر بالأسف لأنه لم يعد لدي منزل. كم أتمنى أن أتمكن من العودة إلى تلك الأيام التي كان لدي فيها الكثير من الحليب والذرة والنيران الدافئة".

وكانت عينا بيير قد اغرورقتا بالدموع.

لكن بيير كان قد شاهد فجأة بأن الثلوج قد ذابت حول المكان الذي كان ذلك الطفل الغريب يقف فيه بحيث أصبحا داخل منطقة أشبه بعش أملس دافئ.

قال بيير من جديد ببساطة:

"نعم، أنا أضع دومًا حزمة من الحنطة أمام النوافذ لتلك الطيور لأنني أحب هذه المخلوقات الصغيرة التي يحبها الله تعالى فهو الذي أمرنا أن نكون معها طيبين وأنا أحاول دومًا أن أجعلها سعيدة".

كان الطفل قد اقترب من بيير أكثر وجلس إلى جانبه فوق الثلوج. كانت عيناه تشعّان بضياء أشبه بالنجوم وكان صوته أشبه بالموسيقى وقال:

"ألستَ أنت الطفل الذي يضع أمام بيت منزله قِدرًا من الحليب الذي هو جزء من وجبة العشاء الخاصة بك لكي تأكله القطط الصغيرة الجائعة؟ ألستَ الطفل الذي رمى عظمة لذلك الكلب الأعرج؟ ألستَ من وضع حزمة الذرة للطيور التي كانت تقبل يديك بامتنان. لا بدّ أنك ذلك الطفل الذي يحب مخلوقات الله، لذا لستُ أعجب من أن تكون يمامتي قد طارت لكي تلتجئ إليك من العاصفة. لابدّ أنها قد علمتْ بذلك نعم، لقد علمتْ بذلك".

وكان الطفل الغريب قد انحنى نحو بيير وقبلّه على خديه ما جعل الدم يصعد إليهما ويشعر بالدفء ينتشر في أعضائه بالكامل. جلس بيير وقال:

"نعم، أنا الفتى الذي كان في العام السابق سعيدًا جدًّا؛ لأن بإمكانه أن يفعل تلك الأشياء الجيدة. لكن كيف عرفت ذلك أيها الغريب؟ وكيف كان بإمكانك أن تطلع على كل ذلك؟"

صاح الطفل الغريب: "أووه... بإمكاني أن أعلم وأنا أرى الكثير من الأشياء. كنت قد مررت من هناك في العام السابق في ليلة عيد الميلاد وشاهدت كل ما فعلته. لكن أعلمني الآن كيف وصلت إلى هنا أيها الطفل العزيز؟ لِمَ لست في منزلك في مثل هذه الليلة العاصفة لكي تجلب السعادة لتلك المخلوقات؟"

وكان بيير قد روى له كيف كان والده ووالدته قد توفيا وتركاه وحيدًا في العالم، وكيف كان قد تم بعد ذلك بيع منزله وبذلك تم إيداعه في المدرسة الخيرية للقرية. ثم روى له كيف تعلّم كيفية كسب بعض المال بمشاركة الفرقة بالإنشاد في ليلة

عيد الميلاد في القرية المجاورة، وكيف كان قد ضلّ طريقه في العاصفة، وكيف كان قد شعر بالبرد الشديد وسقط على الأرض لشدة التعب والبرد وقال:

"ثم كانت يمامتك قد جاءت إليَ أيها الصغير الغريب. جاءت وقد وضعتها داخل سترتي لكي تشعر بالدفء لأنه لم يعد بإمكاني أن أتابع السير. لكنني لم أعد أشعر الآن بالكثير من الجوع والبرد. اجلس بالقرب مني لكي تتقاسم معطفي وسوف نشعر نحن الثلاثة بالدفء".

كان الطفل الغريب قد ضحك ضحكة خافتة لطيفة وقال: "لستُ أشعر بالبرد وليس بإمكاني البقاء معك لأن عليَ أن أذهب بعيدًا".

وكان قد أشار إلى مكان بعيد عبر الثلوج.

صاح بيير حينئذ بحماس: "أووه... إلى هناك؟ إلى هناك؟ دعني أذهب معك فأنا قد ضللتُ الطريق لكنك كما يبدو تعرف الطريق، بإمكاننا أن نذهب معًا يدًا بيد".

لكن الطفل الغريب كان قد هزّ رأسه وقال:

"لن أسير في ذات الطريق التي ستسلكها، ولو رافقتني قد تتعثر فوق الثلوج، أما أنا فسوف أجد طريقي دون أن أتعثر. عليّ أن أذهب بمفردي لكن لديك طريق أسهل. سوف أترك يمامتي لديك وسوف تدفئك إلى أن تعثر على من يساعدك. وداعًا يا صديقي! يا صديق أصدقاء الله تعالى".

وكان قد نهض وقبّل الطفل بيير على جبينه واختفى قبل أن يكون الفتى قد شاهده ودون أن يترك أي أثر لقدميه.

كان قلب بيير قد امتلأ بالدفء كما لو أن تلك القبلة قد ملأته بالسعادة، لكنه كان قد شعر أيضاً ببعض الدوار ما جعله يُغمض عينييه ويقول من جديد: "سوف أنتظر إلى أن تصل النجدة ربما كانت هناك طريق أفضل لي".

الفصل الثاني

كان على طرف تلك الهضبة البعيدة من القرية كوخ صغير يجلس فيه رجل عجوز مع زوجته يبدو كل منهما في غاية الحزن والوحدة، فلم يكن يُسمع في منزلهما صوت ضحكة طفل أو وقع أقدام صغيرة. كان أولادهما قد غادروا القرية منذ وقت طويل منذ بلوغهم سن الرشد وبنوا لأنفسهم حياتهم الخاصة. كان جوزيف فيود وزوجته بيتين يعيشان بمفردهما ما عدا ذلك الكلب (برنس) الذي كان مُمددًا أمام باب الكوخ. كان من زمرة الكلاب العريقة الأصول وكان العجوزان يحبانه جدًّا.

جلس فيود وزوجته في تلك الليلة وهما يشعران بالوحدة والكآبة. كانا يحدقان في نيران الموقد دون أن يتبادلا حتى كلمة واحدة، وحتى أن ذلك الكلب كان يبدو وكأنه يشعر بأن هناك ما هو مفقود في ذلك المنزل المُنعزل، وكان من وقت آخر يرفع رأسه ويُطلق أنينًا خافتًا.

كان صفّ من الشموع يلتهب أمام كل من النافذتين الصغيرتين للكوخ ويرسل انعكاسًا من الظلال الغريبة على الجدران القاتمة.

قال الجدّ فيود فجأة وهو يحدّق باللهب المشتعل: "يُخيّل إليّ كأنني رأيتُ ظلًّا لشخص ينظر من خلال النافذة!" ثم أضاف: "لكن ما هذا الخبل! لابد أن ذلك نتيجة الخوف من هذه العاصفة الهوجاء. أتمنى ألا يكون هناك من ضلّ طريقه فوق الجبال في مثل هذه الليلة العاصفة".

قالت زوجته بيتين: "سوف يكون على الأب نويل أن يسلك الليلة طريقًا باردة. أنا مسرورة لأننا وضعنا الأضواء أمام النوافذ على الرغم من أننا نقطن في مكان بعيد عن القرية التي يقال بأنه سوف يمرّ بها. كم سيكون من الممتع أن يمر بنا وأن نسمع وقع قدميه الصغيرتين".

وكانت قد ذرفت الدموع وهي تتذكر وقع الأقدام الصغيرة لأحفادها وكيف كانت تملأ المكان بالبهجة قبل أن يغادره أولادها.

كان العجوز قد نظر إلى الكلب العجوز وقال:

"وأنت أيضاً تشعر بالوحدة أليس كذلك؟ أنت تنتظر عودة الأولاد لكي ينشروا البهجة في المنزل كما كانوا يفعلون في الأيام الماضية عندما كنت أنت أيضًا جروًا.

كانت تلك من أسعد الأيام لكنها لن تعود من جديد فنحن الثلاثة نتقدم معًا بالسن".

صاحت العجوز بيتين وهي تُجفف دموعها من جديد:

"كفى جوزيف كفى. يكفينا ما نحن فيه من وحدة ومن حزن. ويعلم الله بذلك دون أن نتحدث عنه. لو أراد الله تعالى لنا أن نشعر بالعزاء فسوف يُرسل إلينا من يُعزينا عن رحيل أولادنا فهو يعلم كم نتوق إلى ذلك وكم نتوسل إليه بأن نسمع في منزلنا من جديد وقع أقدام طفل صغير".

كان الكلب في تلك اللحظة قد هبّ على قوائمه وبدأ ينبح نباحًا خافتًا.

سأل الجدّ: "ما الذي تسمعه أيها الكلب العجوز؟ فليس هناك حولنا أي مخلوق في هذه الليلة العاصفة. من الأفضل أن تلتزم الهدوء".

وكانت الجدّة العجوز وقد وضعت يدها على ذراعه وقالت:

"هل نسيت أن هناك بابا نويل؟ قد يكون هو من...".

وكانت قد توقفت عن الكلام لأن الكلب العجوز كان قد ركض إلى الباب بحماس... أطلق نباحًا طويلًا وبدأ يلعق الباب. ثم سُمع من يقول من خلف الباب في تلك اللحظة:

"افتحوا الباب. افتحوا أيها الناس الطيبين".

نظر كلٌّ منهما إلى الآخر ونهضا معًا من مقعديهما، وكانت الجدّة بيتين قد وصلت إلى الباب قبل زوجها ورفعت المزلاج. كان الباب قد فُتح بعنف بفعل الرياح ثم اندفع الكلب منه بسرعة إلى الخارج.

صاح الجدّ فيود وهو ينظر إلى الخارج:

"ما الأمر؟ من هناك؟"

لكن لم يجبه أحد عدا صوت عصف الرياح وبذلك همهم الرجل العجوز:

"لا يوجد أحد أمام الباب. كان ذلك مجرد وهم. ادخلي بيتين. ادخل أيها الكلب. كان ذلك مجرد صدى عصف الرياح".

لكن الكلب لم يكن قد دخل. صاح الجد العجوز من جديد بضيق ونفاذ صبر:

"لا يوجد أحد. ربما كانت تلك روح شريرة".

ثم سمع صوت من يقول: "لا يا أبي!".

وكان الباب قد أغلق بعنف في وجه جوزيف.

لكن بيتين كانت قد أصرّت وقالت:

"أنا متأكدة من أنني سمعت صوت طفل. ربما كان ذلك الأب نويل لكن لماذا لِمَ يدخل؟ أووه... أخشى ألا نكون ممن يستحقون ذلك".

قال العجوز بضيق:

"كل ما أعرفه هو أننا ربما فقدنا الكلب العجوز في هذه العاصفة الهوجاء. لِمَ فتحتِ الباب وتركتِ له المجال للخروج".

قالت بيتين: "لن نفقد كلبنا لأنه من نوع يتحمل المشاق لذا سوف يعود ولن يضيع".

ثم خلد العجوزان للنوم وحلما بأمور غريبة، حلما بطفل مُشرق الوجه كان قد جاء ليلة الميلاد لكي ينشر البهجة في كوخهما المنعزل، إلى أن سمعا صوت خربشة على الباب وصوت نباح مرتفع كان قد أيقظهما فجأة من ذلك الحلم السعيد. قال العجوز:

"ما هذا؟ أهذا أنت أيها الكلب العجوز؟"

ثم أسرع إلى الباب وهو لا يزال يفكر بذلك الحلم.

كان الكلب عندما فتح الباب قد اندفع إلى الداخل وهو يسحب صُرّة كبيرة يبدو منها وجه صغير شاحب بشعر ذهبي ووضعها أمام قدميهما.قالت بيتين:

"يا إلهي! هذا هو الطفل الذي رأيته في الحلم".

ثم سحب الجدّ جوزيف العجوز تلك الصُرّة ووضعها أمام الموقد وقال:

"انظري بيتين! هذا ليس طفل الحلم إنه طفل آدمي مُتجمد حتى الموت. تعالي بيتين دعينا ننزع عنه هذه الملابس المُتجمدة. أحضري له شرابًا ساخنًا بينما أقوم بتدليك يديه وقدميه. من المؤكد أننا الآن لا نحلم... هذا ليس حلمًا"

ثم صاحت بيتين وهي تتناول الطير الذي كان داخل سترته المُبللة:

"انظر إلى هذه اليمامة. هذا الطفل مُقدس دون شك فهو يحمل في صدره يمامة السلام".

وبينما كانت بيتين تتكلم كانت اليمامة قد ارتعشت بين يديها وهي تطلق صوت: "كوكو... كوكو..."، ثم حلّقت حول الغرفة وخرجت من النافذة التي كان العجوزان قد نسيا إغلاقها، وكان الطفل قد فتح عينيه حينذاك وصاح:

"لقد غادرت اليمامة ومع ذلك أنا أشعر بالدفء. هل عاد ذلك الطفل الغريب من جديد؟"، ثم شاهد وجهي العجوزين ينحنيان أمامه والكلب الذي كان يلعق وجهه وتمتم:

"أشعر كأنني عدتُ إلى منزلي من جديد"
وكان قد أغفى على كتف العجوز بيتين.

الفصل الثالث

كان جميع سكان القرية عندما ذهبوا إلى الكنسية صباح اليوم التالي قد شاهدوا هناك طفلًا صغيرًا يحمل بين يديه يمامة بيضاء وعلموا بأنه جاء في تلك الليلة العاصفة. وكانوا قد شعروا بالبهجة وهم يصغون إلى إنشاده مع الفرقة. كان بيير الصغير قد أنشد مع الفرقة، كما كان يتمنى، بينما كان والداه بالتبني راكعين بسعادة يستعيدان في مخيلتهما ذلك الحلم الذي تحقق وجعلهما يحصلان على هذا الطفل الصغير لكي يؤنس وحدتهما.
لكن الكلب العجوز (برنس) كان وحده من يعلم كيف؟ وأين؟ وفي أية ظروف؟ كان قد وجد ذلك الصديق الصغير صديق مخلوقات الله الذي كان نائمًا تحت وطأة الثلوج، داخل سترته تلك اليمامة البيضاء التي حمته برياشها من التجمد.

قصّة خيالية ذات مغزى كبير

مـــــلح الحيــاة

The salt of life

للكاتب هاورد بايل

كان هناك في سالف الأزمان ملك لديه ثلاثة أولاد. كان الملك إلى أن أصبح الأمير الأصغر سنًّا شابًّا قد تقدم بالسن ما جعل أعباء إدارة المملكة تُصبح عبئًا ثقيلًا عليه، وكان بذلك قد استدعى كبير مُستشاريه وأعلمه بأنه يُفكّر بتفويض أولاده الأمراء بحكم المملكة بدلًا عنه، وبأنه سوف يعهد إلى الابن الذي يحبه أكثر من الآخرين بالجزء الأكبر من مملكته، كما أنه سوف يعهد إلى الابن الثاني بالجزء الآخر، وإلى الابن الذي يحبه أقل من الابنين الآخرين بالجزء المتبقي من المملكة.

لكن كبير مستشاريه المتقدم في السن الذي كان يتمتع بالكثير من الحكمة كان قد هزّ رأسه وقال للملك بأنه يرى أن من عدم الحكمة ما يعتزم القيام به، لكن الملك كان قد عقد العزم واتخذ قراره ولم يعد هناك مجال لإقناعه بالتراجع عن قراره.

وبذلك كان الملك قد استدعى الأمراء واحدًا تلو الآخر وسأله عن مقدار محبته له.

وكان أكبر الأمراء سنًّا قد قال على الفور:

"أنا أحبك يا والدي بقدر قيمة جبل من الذهب".

وكان الملك قد شعر بالسرور لمقدار محبة ابنه له.

أما الابن الثاني فكانت إجابته على الفور:

"أما أنا فأحبك يا والدي بقدر جبل من الفضة"

وكان الملك قد شعر أيضًا بالكثير من السرور لذلك.

أما الابن الأصغر فكان عندما سُئل عن مقدار محبته لوالده فلم يكن قد أجاب والده على الفور وإنما كان بعد أن استغرق في التفكير للحظة قد نظر إلى والده وقال:

"أنا أحبك يا والدي بقدر محبتي للملح".

عندما سمع الملك إجابة ابنه الأصغر الذي كان يُحبه أكثر من جميع أولاده شعر بغضب شديد وصاح:

"ماذا؟ ألا تحبني بأكثر من الملح؟ تلك المادة اللاذعة على التذوق بأكثر من جميع الأشياء في العالم، تلك المادة الأرخص ثمنًا والأكثر ابتذالًا من جميع الأشياء في العالم؟ اخرج من هنا ولا تدعني أرى وجهك بعد اليوم! فأنت لم تَعد ابني منذ اليوم".

كان الأمير الشاب على وشك أن يتكلم لكن الملك لم يكن قد سمح له بذلك وإنما كان قد استدعى الحراس وطلب منهم رمي الأمير خارج الغرفة.

كانت الملكة أيضًا تحب الأمير الصغير أكثر من جميع أولادها وكانت عندما علمت بأن الملك يعتزم طرد الأمير من المملكة لكي ينطلق في العالم الكبير بحثًا عن سُبل العيش، بكت وبكت وهي تقول له:

"آه... يا ولدي، ليس لدي سوى القليل مما بإمكاني أن أمنحه لك لكي أساعدك، ومع ذلك لدي هذا الخاتم الثمين خذه والبسه دومًا لأنك لن تتعرض للأذى ما دام هذا الخاتم لديك".

وهكذا كان الأمير الصغير قد انطلق في العالم الكبير دون أن يكون لديه سوى القليل من المال وذلك الخاتم في إصبعه.

وكان قد تنقّل لمدة سبعة أيام من مكان لمكان دون أن يدري أين كان وإلى أين ستقوده قدماه إلى أن وصل في النهاية إلى أسوار إحدى المدن. كان الأمير عندما دخل السور قد وجد نفسه في مدينة لم يسبق أن شاهد طوال حياته بمثل عظمتها وروعتها: قصور فخمة ومتاجر وأسواق خيرية مليئة بالبضائع الثمينة من الساتان والحرير والبضائع المصنوعة يدويًّا من الفضة والذهب، ذلك لأن الأرض التي كان قد وصل إليها كانت الأرض الأكثر ثراء في العالم.

كان الأمير الصغير قد تجوّل طوال اليوم هنا وهناك دون أن يفكّر لا بالتعب ولا بالجوع لشدة ذهوله بما شاهده. لكنه كان عندما اقترب الليل قد بدأ أخيرًا يُفكّر بنفسه وبأن عليه أن يجد مكانًا يقيم تلك الليلة.

كان في ذلك الوقت قد وصل إلى جسر. شاهد هناك رجلًا عجوزًا بلحية بيضاء ينظر من أعلاه إلى المياه. كانت ملابس ذلك الرجل تدّل على الثراء لكنها كانت بذات الوقت بسيطة.

كان الرجل العجوز من وقت لآخر يتنهد وينتحب وتسيل دموعه على خديه بغزارة. لم يكن بإمكان ذلك الأمير الطيب القلب أن يحتمل رؤية شخص يعاني وكان بذلك اقترب منه وسأله عن مشكلته.

قال الرجل العجوز: "آه... أنا؟ كان لي في الأمس ابنٌ وسيم جميل لكن الملكة كانت قد استدعته لتناول العشاء معها، وقد أصبحتُ اليوم وحيدًا في هذا العالم أشبه بشجرة سقطت جميع أوراقها وثمارها".

قال الأمير اسغراب: "لكن ليس هناك ما يُضير في تناول العشاء مع ملكة. هذا شرف يتمناه الكثير من الرجال".

قال الرجل العجوز: "يبدو أنك غريب عن هذه البلدة، وإلا لكنت علمت بأنه ليس هناك من أحدٍ تم اختياره لتناول العشاء مع الملكة ثم عاد إلى منزله من جديد".

قال الأمير: "نعم، أنا غريب عن هذه البلدة وقد وصلت إليها اليوم، وبذلك ليس بإمكاني أن أفهم مثل هذه الأمور، حتى أنني عندما وجدتك هنا كنت أنوي سؤالك عن الطريق إلى فندق مناسب يكون بإمكاني الإقامة فيه".

قال الرجل العجوز: "فإذن لترافقني إلى منزلي هذه الليلة فأنا أقيم بمفردي وسوف أعلمك عن الإشكال الذي تعاني منه هذه البلدة".

ثم أخذ بيد الأمير وقاده عبر الجسر إلى المكان الذي يُقيم فيه والذي يقع في الجهة الأخرى في البلدة. طلب من الخدم تحضير العشاء، وبعد تناولهما الطعام أخذ ذلك الرجل العجوز يُحدث الأمير بالتفصيل عن جميع الأمور التي كان قد أعلمه بها سابقًا والتي كانت كالتالي:

"عندما توفي ملك هذه البلاد ترك ثلاث بنات هنّ أجمل الأميرات في هذا العالم، لكن لم يكن أحد يجرؤ على الحديث عن أكبرهن سنًّا، لكن الهمسات كانت تقول بأنها مُشعوذة وبأنها قامت بالكثير من الأشياء الغريبة الشنيعة. أما الأميرة الثانية فهي أيضًا امرأة فاتنة الجمال لكنها أيضًا مثل شقيقتها، وأما بالنسبة إلى الأميرة الأصغر سنًّا من الفتيات فهي أشبه بإشراقة الصباح كما أنها طيبة رقيقة مثل اليمامة. كان حول عنقها عندما ولدت خيط ذهبي لذا كان قد تم التنبؤ لها بأنها سوف تكون ملكة البلاد في المستقبل.

لكن لم تكد تمرّ فترة قصيرة على وفاة الملك إلا وكانت الأميرة الصغيرة قد اختفت، لكن لم يكن بإمكان أحد أن يعلم أين كانت كما لم يكن أحد قد جرؤ حتى على الإشارة إلى ذلك.

كانت الأميرة الأكبر سنًّا قد توّجت نفسها ملكة على البلاد. وكانت الأمور قد سارت بشكل لا بأس به لبعض الوقت لكن الشؤم كان قد بدأ يحلّ على المملكة بعد فترة قصيرة. كانت تلك الملكة تطلب كل أسبوع إحضار أحد الشبان لكي يتناول العشاء بصحبتها ولم يكن أحد يعلم بعد ذلك ما الذي حلّ بذلك الشاب. كان كل منهم يختفي دون أن يجرؤ أحد على السؤال عما حلّ به...

كان أول من عانى من ذلك في البداية هم أولاد رجال الحاشية وأولاد العاملين في المملكة ثم بعد مدة قصيرة أولاد التجار ورجال الدولة".

ثم قال الرجل العجوز:

"وكان لي ثلاثة أولاد من أنبل الأولاد الذين قد يصعب على المرء أن يجد مثلهم في العالم إلى أن جاء إلي رئيس حرس شرف الملكة ذات يوم وسألني عن عدد ما لدي من أولاد. فكنت مجبرًا على إعلامه بذلك، وبعد فترة قصيرة تم استدعائهم الواحد تلو الآخر إلى قصر الملكة ولم أرهم قط بعد ذلك".

ثم قال: "لكن سوء الطالع قد يصيب الشباب كما يصيب المسنين. أعتقد أنك أيضًا تعاني من سوء الحظ؟ أعلمني بُنيّ بما يثقل على قلبك؟ فقد يُخفف ذلك من وطأة العبء عليك".

وبذلك كان الأمير قد أعلم العجوز بقصته المحزنة واستمرا في التبادل الحديث معًا طوال تلك الليلة، وكان إعجاب العجوز بالأمير الشاب قد تزايد أكثر فأكثر إلى أن طلب منه أخيرًا أن يعيش معه وأن يصبح ابنًا له بما أنه لم تعد لديه عائلة بعد أن طرده والده وكان الأمير قد وافق على ذلك بكثير من السرور.

عاش الاثنان معًا كأب وابن وبذلك بدأ العجوز يستعيد بهجته في الحياة بوجود الأمير الشاب برفقته.

لكن الباب كان قد طرق ذات يوم ولم يكن من جاء إليهما سوى رئيس حرس الملكة الذي كان عندما شاهد الأمير الشاب قد قال للعجوز:

"كيف حدث ذلك؟ ألم تُعلمني بأن لديك ثلاثة أولاد فقط فهل هذا الابن الرابع؟"

حاول العجوز إقناع رئيس الحرس بأن الشاب ليس ابنه الرابع وبأنه أمير جاء لزيارة البلاد منذ فترة قصيرة، لكن رئيس الحرس لم يُصغ إليه وإنما قام بتسجيل بعض المعلومات لديه وذهب في طريقه بعد أن ترك العجوز يتأوّه ويهمهم:

"يا إلهي ما الذي ينتظر قلبي من حزن جديد؟"

كان من المؤكد أن الملكة كانت بعد ثلاثة أيام قد أرسلت بطلب الأمير الشاب لتناول العشاء معها في تلك الليلة.

كانت عندما اقترب المساء قد أرسلت مجموعة من الفرسان ومعهم حصان أبيض يكسوه سرج ولجام بحلّة من الذهب لاصطحاب الأمير إلى قصر الملكة.

فاقتادوا الأمير إلى غرفة كانت فيها مائدة عليها ملاءة ببياض الثلج وأطباق من الذهب، وكانت الملكة بانتظاره على رأس مقدمة الطاولة وعلى وجهها خمار من الشاش الفضي. رفعت الخمار ونظرت إلى الأمير الذي كان عندما شاهد وجهها قد أصيب بالكثير من الدهشة لأنها لم تكن فقط جميلة جدًّا وإنما كانت أيضًا قد سحرته بما بدا في عينيها من شرّ. لم يكن أحد قد جلس أمام المائدة سوى الملكة والأمير، وكان مجموعة من الخدم الشبان يقومون على خدمتهم بينما كانت الموسيقى العذبة تصل إليهم من خلف ستائر البهو إلى أن انتصف الليل حيث وصل فجأة من الخارج صوت بوق ثم توقفت الموسيقى على الفور وأسرع الخدم بالخروج من الغرفة وأصبح كل ما حولهما ساكنًا هادئًا أشبه بسكون الموت.

وعندما غادر الجميع نهضت الملكة أومأت للأمير، ولم يكن أمامه سوى أن ينهض أيضاً ويتبعها إلى المكان الذي اقتادته إليه.

فقادته الملكة عبر القصر حيث كان كل شيء ساكنًا سكون القبر إلى أن وصلت إلى باب خلفي في الحديقة حيث كانت إلى جانب الباب شعلة تلتهب داخل مصباح على رفّ. تناولت الملكة المصباح ثم اقتادت الأمير عبر ممر تحت الأشجار إلى أن وصلا إلى جدار كبير من الأحجار الكبيرة. فضغطت بيدها على أحد الأحجار فانفتح في الجدار فرجة أشبه بباب بداخله سلم يؤدي إلى الأسفل.

نزلت الملكة السلالم وتبعها الأمير. كان هناك في الأسفل ممر طويل يقود إلى طريق شاهد الأمير في نهايته ما يُشبه شعاع من الضوء كما لو أن الشمس كانت تُضيء خلفه، ثم وضعت الشعلة على أحد رفوف الجدار وتوجهت إلى الجهة التي يأتي منها الضوء، وكان الضوء كلما أصبح أكثر وضوحًا كلما تقدما إلى الأمام إلى أن وصلا إلى نهاية الممر حيث وجد الأمير نفسه واقفًا تحت ضوء الشمس وفي منطقة لا تُبعد كثيرًا عن شاطئ البحر.

اقتاده المملكة نحو الشاطئ حيث كان عدد كبير من الكلاب الضارية قد ركضت متوجهة إليهما وهي تنبح وتُزبد بحيث بدت أسنانها كما لو أنها ستقطعهما إربًا. لكن الملكة كانت قد سحبت من صدرها سوطًا من الفولاذ وأخذت تضرب الكلاب

التي كانت تهاجمهما يمنة ويسرة إلى أن بدأت الدماء تسيل منها وأخذت تعدو بعيدًا وهي تعوي وتنبح.

كانت هناك على حافة الماء طاحونة حجرية كبيرة. أشارت الملكة إلى الأمير وطلبت منه أن يُديرها، واستطاع بجهد أن يديرها لأنه كان قوي البنية فبدت على سطح المياه عن بعيد بقعة صغيرة وكان الأمير كلما أدار الطاحونة كلما أصبحت تلك البقعة أوسع فأوسع، ثم تبيّن للأمير أن هناك شيء على سطح المياه كان يقترب منهما بسرعة الرياح. اقترب ذلك الشيء أكثر فأكثر إلى أن وصل إلى منطقة قريبة بحيث أصبح بإمكان الأمير أن يتبين بأنه مركب صغير من النحاس الأصفر. وقف المركب إلى جانب الشاطئ دخلت إليه الملكة وطلبت من الأمير أن يفعل ذلك.

فانطلق المركب فور صعودهما بسرعة الرياح وأخذ يطير ويطير إلى أن وصل إلى شاطئ آخر لم يسبق أن شاهد الأمير مثله.

كانت إلى جانب الشاطئ حديقة لا مثيل لها. كانت أوراق الأشجار من الفضة وكانت أزهارها من الأحجار الكريمة البيضاء والحمراء والصفراء والزرقاء والخضراء.كانت تلك الأزهار تلمع تحت ضوء الشمس، ثم شاهد الأمير خلف تلك الأشجار الفضية قصرًا كبيرًا ببياض الثلج كان يلمع بحيث على المرء أن يغلق عينيه عندما ينظر إليه.

انطلق المركب بهما إلى أن اقترب من جانب القصر وإلى أن وصلا إلى جدار من الصخور شبيه بالجدار الآخر الذي شاهده الأمير في الشاطئ الآخر. ترجلت الملكة من المركب برفقتها الأمير بينما قد عاد المركب للانطلاق على الفور بذات السرعة واختفى عن الأنظار.

حينئذ قالت الملكة:

"لقد انتهت رحلتنا هنا، أليست هذه الأرض أرضًا رائعة تستحق النظر إليها؟ انظر إلى هذه الأحجار الكريمة وإلى هذا الذهب وهذه الثمار والأزهار. بإمكانك أن تأخذ منها ما تريده، أما أنا فعليّ أن أقوم بمهمة أخرى في الوقت الذي ستجمعها فيه. انتظرني هنا وسوف أعود بعد وقت قصير".

وكانت بعد أن قالت ذلك قد توجهت نحو القصر الذي كان خلف الأشجار.

لكن الأمير كان أميرًا وليس رجلًا من عامة الشعب لذا لم يكن يهتم لا بالذهب ولا بالجواهر، وإنما ما كان يهتم به هو أن يرى إلى أين ذهبت تلك الملكة ولِم كانت قد اصطحبته إلى هذا المكان الغريب، ولذلك تبعها على الفور ليراقبها عن بعد.

وتوجّه تحت الأشجار الذهبية الفضية إلى المكان الذي توجهت إليه إلى أن وصل إلى سلم طويل يقود إلى باب ذلك القصر الأبيض. كان الباب مفتوحًا وبذلك دخل الأمير إلى القصر، لم يكن قد شاهد أحدًا لكنه سمع صوتًا يشبه صوت بكاء مرير.

تبع الأمير الجهة التي كان يأتي منه الصوت إلى أن وصل إلى غرفة كبيرة في منتصف القصر تمامًا. كانت على باب الغرفة ستارة وكان هذا ما شاهده عندما رفعها الأمير ونظر من خلالها:

كان في منتصف الغرفة حوض من المرمر مليء بماء صاف وكانت على الحوض عبارات مكتوبة بالذهب:

"سوف أجعل كل ما كان زائفاً حقيقياً".

وكان هناك إلى جانب الحوض تمثال لامرأة جميلة مصنوعًا من المرمر وكان حول عنق التمثال عقد من الذهب. كانت الملكة واقفة إلى جانب التمثال وكانت هي تضربه وتضربه بشدّة بالسوط. كان التمثال طوال الوقت ينتحب ويتأوّه أشبه بمخلوق آدمي وكانت الدموع تسيل على خديه المصنوعين من المرمر. ثم كانت الملكة تتوقف عن ضربه بالسياط لكي تقول: "ألن تمنحيني هذا العقد الذهبي؟"

وكان التمثال يقول: "لا! لا"

ويعيد تكرار تلك الكلمة كلما سقطت ضربات السوط عليه.

وقف الأمير مشدوهًا وهو ينظر إلى الملكة التي كانت تُعيد السؤال الذي يجيب عليه التمثال بكلمة: "لا"، وتعود إلى ضربه بالسياط، إلى تعبت وأعادت السوط إلى صدرها، وكان الأمير بذلك قد أسرع بالعودة إلى الحديقة التي تركته فيها وأخذ يتظاهر بأنه يجمع الثمار الذهبية والجواهر.

لم تقل له الملكة شيئًا ماعدا أن أمرته أن يستمر بالطحن في تلك الطاحونة الحجرية الكبيرة كما كان يفعل في الطرف الآخر من المياه. امتثل الأمير لأمرها ثم جاء المركب بسرعة أكثر من سرعة الرياح وصعدت إليه الملكة والأمير من جديد وحملهما المركب من جديد إلى الجهة التي قدما منها.

وفور نزولها إلى الشاطئ تناولت الملكة حفنة من الرمال ثم التفتت بسرعة البرق ورمتها على وجه الأمير وصاحت بصوت مرتفع: "لتكن كلبًا أسود... وتلحق برفاقك!"

لكن الخاتم الذي كانت والدة الأمير قد منحته له قبل سفره كان قد أوقف ذلك السحر. كانت الملكة قد توقعت أن يحدث للأمير ما حدث قبل ذلك لجميع الشبان

الآخرين وبأن يتحول إلى كلب أسود ويفر من أمامها عبر النهر، لكن الأمير ظلّ أمامها كما هو ووقف يُحدّق في وجهها.
وكانت وجه الملكة قد شحب عندما شاهدت بأن سحرها لم يُفلح وكانت قد بدأت ترتجف من رأسها إلى قدميها. استدارت وأسرعت بالهرب وتبعها الأمير وهو في غاية العجب من تصرفها لأنه لم يكن قد أدرك ما كانت تنوي الإلحاق به من شرور ولم يكن قد أدرك أيضًا بأن الخاتم كان قد أنقذه من المصير الذي لقيه الآخرون.
عادا إلى حديقة القصر وكانت الملكة قد ضغطت على الصخرة وفتح الباب وبذلك دخلا من جديد إلى القصر.
كان الفجر قد اقترب من الشروق وكانت الديوك تصيح على أسطح المنازل.
وكانت الملكة قد تمالكت نفسها من جديد وطلبت من الأمير أن ينتظرها لحظة ثم أسرعت إلى غرفتها وفتحت هناك كتاب السحر وعلمت بسرعة من كان ذلك الأمير وكيف كان الخاتم هو من أنقذه. عندما علمت الملكة بذلك كان كل ما فعلته أنها رسمت على وجهها ابتسامة وعادت إلى الأمير ثم قالت:
"أيها الأمير أنا أعلم جيدًا من تكون لأن مجيئك إلى مملكتي ليس سرًّا. كنت قد عرضت عليك هذه الليلة بعض الأمور الغريبة وسوف أكشف لك لاحقًا عن أسرار كل منها الواحدة تلو الأخرى، ألن ترافقني لتناول العشاء معي من جديد؟"
أجاب الأمير: "نعم، سوف أفعل ما طلبته مني". ذلك لأنه كان يرغب بمعرفة سرّ ذلك التمثال وسرّ كل ما تصرفات تلك الملكة.
قالت الملكة وهي لا تزال تبتسم: "سوف تمنحني رهنًا يضمن مجيئك".
قال الأمير: "وما هو الشيء الذي عليَ أن أرهنه لديك".
قالت الملكة وهي تبتسم ابتسامة لطيفة: "عليك أن تعطيني الخاتم الذي في إصبعك".
لم يتمكن الأمير مع الأسف من رفض طلبها فلم تكن قد خطرت بباله أية أفكار سيئة وبذلك سلّمها الخاتم دون أن يتفوّه بكلمة واحدة، فوضعت الخاتم في إصبعها وصاحت وهي تضحك ضحكة شريرة: "أنت أيها المخبول! لقد أعطيتني الآن كل ما كان يحميك من سحري".
ثم كانت وهي تتحدث قد غمست أصابعها في حوض الماء الذي كان بجانبها ورمت القطرات في وجه الأمير وقالت: "لتكن غرابًا أسود اللون ولتبقى كذلك طوال حياتك".

وكان الأمير خلال دقائق قد تحوّل إلى غراب أسود ثم تناولت الملكة سيفًا كان إلى جانبها وضربته به لكي تقتله لكن الغراب تمكن من تجنب الضربة، ومن حسن الحظ أن كانت هناك نافذة مفتوحة وبذلك تمكن الأمير الغراب من الهرب، وقبل أن تتمكن الملكة من توجيه ضربة أخرى إليه نشر جناحيه وطار فوق أسطح المباني واختفى.

أخذ يطير ويطير إلى أن وصل إلى منزل ذلك الرجل العجوز ودخل إلى الغرفة التي كان والده الذي تبناه جالسًا فيها. حطّ إلى جانب قدمي العجوز وحاول أن يُعلمه بما تعرض إليه لكن كل ما كان يتفوّه به هو: "كاك... كاك!"

تساءل العجوز: "ما الذي جلب هذا الطائر السيئ الطالع إليّ؟"

ثم سحب سيفه وشرع في القضاء عليه، لكن الغراب لم يتحرك من مكانه كما توقع العجوز، وإنما أحنى رقبته ووقف أمام العجوز، ثم شاهد العجوز الدموع تسيل من عيني الغراب وبذلك توقف وتساءل:

"ما هذا الأمر الغريب من المؤكد أن البشر هم وحدهم من يبكون فكيف يمكن لهذا الغراب أن يبكي؟"، وأخذ الغراب بين يديه ونظر في عينيه فعرف بأنه الأمير وصاح:

"يا للأسف! كان قلبي يُنبئني بأن هناك شيء غريب قد حدث للأمير، هل أنت ابني المتبنى؟ هل أنت الأمير؟"

كان رد الأمير: "كاك... كاك!" فقط وكان العجوز قد أدرك كل شيء، وبدأت الدموع تسيل على خديه وعلى لحيته وقال:

"سواء أكنت غرابًا أو آدميًّا فسوف تبقى ابني"، وكان قد حمل الغراب بين ذراعيه وبدأ يُربت عليه.

ثم وضع الغراب في قفص ذهبي وكان يحمله كل صباح إلى الحديقة ويتحدث إليه كما يتحدث الأب لابن له.

وذات يوم بينما كانا يتجولان معًا في الحديقة تقدمت منهما سيدة غريبة المظهر تُخفي وجهها بوشاح أسود بحيث لم يكن بإمكانهما أن يتعرفا عليها، لكنها عندما اقتربت ورفعت عن وجهها الحجاب، عندها شاهد الأمير الغراب وجهها الذي يشبه وجه الملكة تمامًا مع بعض الاختلاف فتأكد بأنها الأخت الثانية للملكة كما كان العجوز أيضًا قد عرفها وانحنى لها بالتحية.

قالت السيدة الغريبة للعجوز:

"اسمع، أنا أعلم من هو هذا الغراب وأعلم بأنه الأمير الذي حولته الملكة بسحرها إلى غراب. أنا لدي من إمكانية التخلص من السحر بقدر ما تعرفه الملكة وهذا هو الشيء الوحيد الذي أنقذني طوال حياتي من سحرها ومن شرورها، لكنني لا أزال مُحاطة دومًا بالخطر لأنها أقوى مني... بإمكاني بمساعدة هذا الأمير بشرط واحد هو أن أتخلص من سيطرتها عليّ إلى الأبد. لدي من إمكانية السحر ما يجعلني أتمكن من إعادة الأمير إلى شكله السابق وسوف أفعل ذلك لأنه سوف يساعدني في المستقبل. والآن هذا ما سوف أفعله:

سوف أحولّ الملكة إلى نسر كبير وسوف أتحول أنا أيضاً إلى نسر وسوف نتشاجر في السماء، وسوف نسقط معاً على الأرض وعليك حينئذ أيها الأمير أن تقطع رأسها، فهل ستفعل ذلك لو أعدتك إلى صورتك الأصلية؟"

أحنى الغراب رأسه وبذلك علمت شقيقة الملكة بأنه كان قد وافق على ما طلبته منه.

وكانت قد جمعت حفنة من الرمل ورمتها في وجهه وقالت: "لتعد إلى شكلك السابق"، وبذلك عاد الأمير إلى ما كان عليه. فقالت شقيقة الملكة بعد ذلك: "تذكر ما وعدتني به".

وكانت بعد ذلك قد حولت نفسها إلى نسر ثم سمع صوت هدير وأظلمت السماء وساد فيها سكون الموت وتحولت الأميرة إلى نسر ثم طارت في السماء التي ظهر فيها فجأة نسر كبير أسود اللون.

تقاتل النسران للحظة ثم سقطا على الأرض. وكان الأمير قد تناول السيف وركض إلى المكان الذي سقطا فيه وسأل العجوز: "من الذي عليَ أن أقتله منهما؟"

قال الأب المتبني: "أليسا من الطيور اقتل الاثنين وبهذا سوف تنجو".

وكان الأمير خلال لحظة قد قتل النسرين ثم واراهما التراب في الحديقة. كان العجوز قد طلب من الأمير بعد ذلك أن يتبعه وقال له:

"لقد أدركت الآن كل شيء فتلك الكلاب السوداء هي الأشخاص الذين اختفوا سابقًا أما التمثال فهي الأميرة الطيبة. أما الحوض فهو حوض ماء الحياة الذي له القدرة على إزالة السحر لذا دعنا نسرع لإنقاذهم".

سارع الأمير بالقيام بذلك وعندما وصلا إلى القصر ووجدا الصخرة التي كانت الملكة تضغط عليها لفتح الباب ضغط عليها الأمير وفتح الباب. نزلا السلالم إلى أن وصلا

إلى شاطئ النهر وكانت الكلاب قد أسرعت إليهم لكن ليس لكي تهاجمهم وإنما لكي تلعق أيديهم ووجوههم.

ثم قام الأمير بتدوير حجر الطاحونة إلى أن جاء المركب إلى الشاطئ. دخلا إليه واجتازا النهر إلى أن وصلا إلى الجهة المقابلة.

لم يمكثا لمدة طويلة في الحديقة وإنما توجها على الفور إلى المكان الذي كان فيه التمثال. قال الأمير: "نعم لابد أنها الأميرة الصغيرة هذا من المؤكد".

لم يقل الأمير الشاب شيئًا وإنما كان قد غمس راحة يده في الماء وأخذ يرش وجه التمثال بالماء وهو يقول: "إن كنت الأميرة فلتعودي إلى شكلك الآدمي السابق". فعاد التمثال إلى شكله الإنساني ووقفت الأميرة أمامه فشاهد الأمير أمامه أجمل امرأة وقعت عينه عليها طوال حياته.

قالت الأميرة: "لقد أعدتني إلى الحياة وبذلك أصبح كل ما يخصني يخصك أنت أيضًا".

ثم عاد الجميع معًا، وحمل الأمير معه كأسًا من ماء الحياة، وعندما وصلا إلى الشاطئ الأبعد ركضت الكلاب لاستقبالهم فرشّ الأمير عليهم ماء الحياة الذي كان يحمله فعادوا على الفور إلى شكلهم الإنساني. وبذلك وجد العجوز أمامه أولاده الثلاث الذين كان قد فقدهم وأسرع لعناقهم والدموع تسيل على خديه.

وعندما علم سكان البلدة بوفاة الأميرتين الشريرتين وبعودة أميرتهم الأصغر سنًّا وهي الأميرة الطيبة التي يحبونها، أقاموا الاحتفالات في كل المملكة وتوّجوها ملكة عليهم.

وفي غمرة تلك الاحتفالات تزوج الأمير أيضًا الأميرة وأصبح ملكًا للبلاد.

ولنعد إلى بداية القصة عندما كان الأمير قد غادر مملكة والده. فقد كان الملك قد قسّم المملكة بين ولديه بالتساوي. وكانت الأمور قد سارت على ما يرام لفترة من الزمن. لكن أولاد الملك بعد ذلك استبعدوا والدهم شيئًا فشيئًا عن الحكم بحيث لم يعد له أي وجود في مملكته. إلى أن تشاجر الملك مع ولديه آخر الأمر، فكانت النتيجة أن قام ولداه بنفيه من المملكة.

لكن الأمير الأصغر سنًّا بعد أن أصبح ملكًا لتلك المملكة الأخرى فكر بوالده الملك وبوالدته وأخذ يشعر بالحنين لرؤيتهما من جديد. فقرر السفر إليهما والعودة إلى مكان مولده. وفي طريق عودته شاهد منزلًا منعزلًا على طرف غابة كبيرة. وكان

الليل قد حلّ عندما وصل إلى تلك الغابة لذا قام بإرسال بعض مرافقيه لسؤال القاطنين في ذلك المنزل عن إمكانية تأمين الإقامة لهم في منزلهم لتلك الليلة.
لكن احزروا من الذي لبى طلبهم؟ لقد كان الملك والده! كان الملك المخلوع يرتدي ملابس رثة ويبدو على ملامحه تعبير الأسى. لم يكن الملك قد تعرّف على ابنه الملك الذي كان يمتطي جواداً أبيض اللون، وإنما طلب من الزائر الدخول وانحنى أمامه.
وفي صباح اليوم التالي امتطى الأمير جواده وعاد إلى مملكته الأصلية ثم أرسل معاونيه وطلب منهم اصطحاب والده ووالدته إلى قصره. وأقام لهما مأدبة تحتوي على جميع أنواع المأكولات لكنه أمر الطهاة بعدم وضع أية ذرة من الملح عليها.
كان الوالد والوالدة قد جلسا أمام المائدة مع ابنهما الملك وزوجته الملكة دون أن يتعرّفا عليه. لم يكن الملك الوالد عندما تذوق الطعام قد تمكن من يأكل شيئًا.
حينئذ سأله ابنه الملك الشاب: "ألا تشعر بالرغبة بالطعام؟"
وأجاب الملك الوالد: "آسف سيدي! لكنني أود أن أعلم سيادتكم بأن الطعام يفتقر إلى الملح".
قال الملك الشاب: "وهكذا هي الحياة فهي تفتقر إلى المعنى إن افتقرت إلى ملح المحبة. وكنت أنت مع ذلك عندما قلت لك بأنني أحبك بقدر محبتي للملح قد طردتني وأبعدتني عن مملكتك وعن حياتك".
ولم يعد بإمكان الملك الشاب أن يتمالك نفسه أكثر من ذلك فأسرع إلى عناق والده ووالدته والدموع تسير على خديه.
ثم كان الملك الشاب قد ذهب بعد ذلك على رأس العديد من الجنود إلى مملكة والده التي استولى عليه أشقاؤه وأعاد والده إلى العرش من جديد وقال له:
"لو أراد الاثنان العودة فعليهما أن يكونا أكثر تواضعًا وأن يُدركا أن المحبة هي ملح الحياة".

قصّة خيالية من وحي التعلّق بين الأشقاء

حلم الطفل بالنجمة

A child's dream of a star

للكاتب تشارلز ديكنز

في سالف الأزمان كان هناك طفل يحب التجوال كثيرًا، وكان ذلك الطفل يمعن التفكير دومًا في كثير من الأمور التي تتجاوز ذهن تفكير من هم في سنه، وكان لذلك الطفل شقيقةٌ أصغر منه سنًّا كانت ترافقه على الدوام. كان الاثنان يحبان التجوال طوال اليوم وكانا يتأملان بما حولهما ويُعجبان دوماً بجمال الزهور والنباتات وبارتفاع السماء ذات القبّة الزرقاء وبعمق المياه الصافية في الأنهار والجداول والتي تشير جميعها إلى قدرة ورحمة الله تعالى الذي خلق هذا العالم الجميل.

كان كل منهما يقول للآخر أحيانًا: "لو كان جميع الأطفال في العالم سيموتون تُرى هل سيشعر كل ما في العالم من زهور ومن جبال ومن بحار وهل ستشعر السماء بالأسف؟"...

كانا يعتقدان بأن كل ما في الطبيعة سوف يحزن لو مات أطفال العالم، لأن الأطفال هم براعم الزهور، وكانا يعتقدان بأن تلك الجداول الصغيرة التي تنبع والتي تسيل من قِمم الهضاب هي أولاد المياه، وبأن تلك النقاط البراقة الصغيرة التي تلعب لعبة الاختباء والظهور (الغميضة) في السماء طوال الليل هي بالتأكيد أولاد النجوم وبأن كل أولئك سوف يشعرون بالأسى إن لم يكن بإمكانهم الاجتماع من جديد برفاقهم في اللعب.

كانت هناك نجمة براقة صافية الضياء تظهر كل ليلة قبل موعد نوم الطفلين. كانت تلك النجمة أكبر حجمًا وأكثر جمالًا من جميع النجوم الأخرى، لذا كان الطفلان يبحثان عنها كل ليلة ويرقبانها وهما واقفان يدًا بيد أمام النافذة، وكان

من يراها قبل الآخر يصيح: "رأيت النجم! رأيت النجمة!"... وكانا في كثير من الأحيان يصيحان معًا لأنهما أصبحا يعرفان تمامًا الوقت الذي ستظهر فيه تلك النجمة في السماء. وبذلك كانا الطفلان قد أصبحا مع الوقت من الأصدقاء المُقربين لتلك النجمة. كانا قبل أن يخلدا إلى النوم كل ليلة ينظران إليها مرة أخرى وأخيرة لكي يتمنيا لها ليلة سعيدة ولكي يقولا: "ليباركك الله أيتها النجمة!"

لكن شقيقة ذلك الطفل - وهي لا تزال صغيرة السن جدًّا - سقطت وأصيبت بكسور وبذلك لم يعد بإمكانها أن تقف أمام النافذة ليلًا ما جعلها تشعر بالكثير من الحزن.

لذا كان الطفل يرقب بمفرده ظهور النجمة من النافذة وكان عندما يشاهد النجمة ينظر إليها ويلتفت إلى شقيقته المريضة الشاحبة المُدة على السرير ويقول: "رأيت النجمة! رأيت النجمة!"...

كانت الابتسامة حينئذ تضيء وجه الطفلة المريضة وكانت تقول بصوت خافت ضعيف: "ليبارك الله يا شقيقي! وليبارك الله هذه النجمة!"

ثم جاء الوقت الذي أصبح فيه الطفل ينظر إلى النجمة بمفرده فقد توفيت شقيقته. كان الطفل ينظر إلى النجمة بين دموعه وهي ترسل بصيص نورها نحو الأرض. كان ذلك البصيص براقًا جدًّا وكان يبدو كأنه يرسم دربًا من السماء إلى الأرض.

وعندما ذهب الطفل إلى فراشه قد حلم بالنجمة، وحلم بأنه شاهد موكبًا من الناس يُحملون من قبل الملائكة إلى السماء على ذلك الدرب المضيء، وبأن النجمة كانت تظهر لهم وتُريهم عالمًا من الضياء تنتظرهم فيه العديد من الملائكة، وبأن أولئك الملائكة كانوا ينظرون بأعينهم بابتهاج إلى أولئك الأشخاص الذين يحملون إلى تلك النجمة، وبأن هناك صفوفًا طويلة من الأشخاص كانوا بانتظارهم، وبأنهم كانوا يعانقونهم ويقبلونهم بحنان ويرافقونهم إلى دروب الضياء، وبأنهم في غاية السعادة برفقتهم ما جعله وهو مستلقيًا في فراشه يبكي يسرور.

كان قد عثر بين أولئك الملائكة على شقيقته بين الجميع. كان ملاك شقيقته قد تباطأ قرب مدخل النجمة وقال للملاك الذي كان يرافق أولئك الأشخاص:

"هل جاء شقيقي؟"

قال الملاك: "لا..."

كانت قد استدارت لكي تُغادر وكان الطفل قد مدّ يديه وصاح:

"آه يا شقيقتي! أنا هنا خذيني معك"... وكانت قد نظرت إليه بعينيها الوديعتين دون أن تتكلم. كان الليل مظلمًا لكن النجمة كانت تشعّ في الغرفة بدروب من الضياء كان قد شاهدها من خلال دموعه!

كان الطفل منذ ذلك اليوم ينظر إلى النجمة وكأنها المنزل الذي سيذهب إليه عندما ستحلّ ساعته، وكان يفكر بأنه لا ينتمي فقط إلى العالم الدينوي وإنما إلى تلك النجمة أيضًا لأن شقيقته الملاك قد سبقته إليها.

كان والداه قد رزقا بعد فترة بطفل شقيق له... الطفل صغير جدًّا بحيث لم يكن بإمكانه أن يتكلم كلمة واحدة كما أنه توفي أيضًا بعد وقت قصير.

كان الطفل قد حلم من جديد بتلك النجمة وبالملائكة التي كانت بانتظار شقيقه والتي رافقته إليها وبأن شقيقته الملاك كانت تقول من جديد: "هل جاء شقيقي؟"

وبأن الملاك قال لها: "ليس ذلك الشقيق وإنما هو شقيقك الآخر"

وكان الطفل قد صاح: "أنا هنا شقيقتي! خذيني معك..."

وبأنها ابتسمت وذهبت.

ثم أصبح ذلك الطفل شابًّا، كان مُنشغلًا دومًا بدراسته وبأبحاثه إلى أن جاءت إليه الخادمة المسنة ذات يوم وقالت له: "لم تعد والدتك هنا وأنا أبلّغ مباركتها لابنها الغالي"

وكان الشاب قد حلم من جديد بتلك النجمة وبملاك شقيقته التي سألت: "هل كان من جاء شقيقي؟"، وبأن الملاك أجابها: "ليس شقيقك، وإنما هي والدتك"

وبأن شقيقته الملاك كانت قد أطلقت صيحة بهجة لأن الأم والابنة اجتمعتا من جديد معًا ولأن الأم اجتمعت بطفليها. فمد ذراعيه وصاح: "أووه... أمي! شقيقتي! شقيقي! أنا هنا... خذوني إليكم"

وبأنهم أجابوا: "ليس بعد"... وبأن النجمة كانت لا تزال تلمع في السماء.

ثم أصبح ذلك الشاب أكبر سنًّا وبدأ الشيب يخطّ شعر رأسه وبينما كان جالسًا ذات اليوم أمام الموقد بقلب مُثقل بالحزن وبوجه تسيل عليه الدموع كانت تلك النجمة قد ظهرت من جديد

وقالت شقيقته الملاك: "هل جاء شقيقي؟"

وبأن الإجابة كانت: "لا ليس هو وإنما هي ابنته الشابة"

كان الرجل الذي كان طفلًا قد فقد أيضًا ابنته الشابة التي أصبحت مخلوقة بين المخلوقات السماوية في السماء برفقة الثلاثة الذين كان قد فقدهم وكان قد قال:

"ها هو رأس ابنتي على حِجر شقيقتي، وها هي ذراعها تُحيط بعنق والدتي، وأمام قدميها شقيقي الطفل الرضيع فكيف بإمكاني أن أحتمل الفراق. أرجو من الله الرحمة..."

وكانت النجمة لا تزال تلمع في السماء.

ثم أصبح الرجل عجوزًا... كانت التجاعيد قد خطّت وجهه بخطوط عميقة... بدأت خطواته تتثاقل وانحنى ظهره... كان مستلقيًا في فراشه ذات ليلة يُحيط به أولاده وإذا به يصيح كما كان يفعل دومًا: "رأيت النجمة! رأيت النجمة!"

وكان كل منهم قد همس للآخر: "يبدو أن والدنا يفارق الحياة"

ثم قال: "ها هو عمري ينتهي وأنا الآن أتوجه نحو النجمة أشبه بطفل صغير. أووه... أشكرك يا إلهي بأن يكون بإمكاني أن أجتمع الآن بالثلاثة الأحباء الذين ينتظرونني".

وظلّت النجمة تضيء فوق مثواه الأخير.

ما الذي فعلته طيور السنونو

What the swallows did

للكاتبة إليزا ماي ألكوت

وضع الرجل العجوز كومة القش في الحظيرة الكبيرة وأخذ يرقب طيور السنونو التي كانت تتدافع وتغرد فوق رأسه. فشعر بالحسد لتلك المخلوقات الصغيرة التي كانت تبدو سعيدة، ذلك أنه لم يكن من الأشخاص السعداء، فلم تكن لديه زوجة أو أطفال، ولم يكن لديه أي أصدقاء ولم يكن يمتلك الكثير من المال، كما لم تكن لديه موهبة إنشاد الأناشيد الجميلة التي يُحب الجميع سماعها.

كان قد فقد مؤخرًا زوجته وطفله الصغير وبذلك لم يعد هناك في العالم ما يمكن أن يجلب له العزاء. كان يعيش وحيدًا يهيم في الطرقات بوجهه المُتجهم الكئيب بحيث لم يعد هناك من يرغب بالتحدث إليه لأنه لم يكن يأبه لا بالجوار ولا بالأصدقاء، حتى أنه لم يكن ينفق ما لديه من مال لكي يتمتع نفسه به ولا لكي يُمتع به الآخرين.

لم يعد يشعر بالسعادة في أي مكان ولم يكن يجد أي شيء جميل في العالم. كان ينشد الأغاني الحزينة ما يجعل قلوب من حوله تتألم وتكتئب لدى سماعها.

كان ذلك العجوز ذات يوم قد استلقى كعادته وحيدًا على تلك الكومة من القش ذات الرائحة اللطيفة التي كانت شمس بعد الظهيرة تغمرها بينما كانت الطيور تزقزق وترفرف فوق رأسه وبدأ يُحدّث نفسه بالقول:

"كم أنت سعيدة يا طيور السنونو! أتمنى لو كنت طائرًا مثلك كيلا تكون لدي أية أحزان أو آلام! ليست لديك أية هموم أو أحزان، فأنت تعيشين طوال فصل الصيف ببهجة وبإمكانك عندما يحلّ فصل الشتاء الطيران والرحيل إلى الجنوب الجميل المُشمس دون أن يكون عليك أن تتفرقي عن بعضك البعض وعمَن تُحبينهم"...

وكانت سنونوة قد أطلّت من عشها على مجموعة من طيور السنونو كانت جاثمة على عارضة خشبية وصاحت:

"هل سمعتم يا رفاقي ما قاله هذا المخلوق الأبله؟"

أجابها أحد طيور السنونو بزقزقة أشبه بضحكة ازدراء:

"نعم... سيدة سكيم! سمعنا ما قاله، ونحن نتفق معك بالرأي بأن هذا الرجل لا يعرف الكثير عن حياتنا، فنحن نعمل طوال اليوم ونبذل من الجهد أكثر مما يبذله. بودي أن أعلم هل هو من يقوم ببناء البيت الخاص به؟ وهل عليه أن يسعى يوميًّا لتأمين قوته اليومي من الخبز؟ كم هو عدد من يقدم إليهم العون من الجوار وما الذي يعرفه عن هذا العالم؟ ومن هو الأكثر سعادة لأنه على قيد الحياة؟"

ثم صاح طائر سنونو آخر:

"أتمنى لو كان عليه أن يُعيل صغاري ويعلّمهم كيفية الطيران... يبدو أنه لا يعرف الكثير عن قلق الأهل على أولادهم"

وكانت تلك السنونوة الأم قد طارت بسرعة لكي تؤمن عشاء صغارها.

قالت سنونوة رابعة برقة:

"نحن أيضًا لدينا أحزاننا. لا أعتقد بأنه كان سيحسدني لو علم بأن عشّي الجديد كان قد سقط وبأن جميع أطفالي قتلوا. وهو لا يعلم بأن زوجي العزيز كان قد أصيب بطلق ناري تسبب بقتله. ولا كيف تُوفيت والدتي لشدّة الإرهاق أثناء رحلتنا الربيعية إلى جهة الجنوب"...

ثم قال طائر سنونو آخر:

"آه! ياجارتي العزيزة، لم يكن سيحسدك لو علم كم تحتملين بصبر كل تلك المعاناة، ولا مقدار ما تُقدمينه من مساعدة لأصدقائك، ولا كم كنت مخلصة لزوجك المتوفى ولايعلم بأن كل ما تتطلعين إليه الآن إلى الاجتماع به من جديد وفي مكان أفضل من الجنوب"

وكانت السيدة سكيم وهي تتحدث قد انحنت من عشّها لكي تقبّل جارتها السنونوة دارت تلك، بينما كان باقي طيور السنونو تغرد بغبطة ذلك لأن الجميع يحبون السنونوة دارت.

ثم قالت سنونوة أخرى كانت قد وجدت بأن عليها أن تعبّر عما يجول في ذهنها:

"بالنسبة إليَ أنا لا أشعر على الإطلاق بالحسد نحو مثل هذا الرجل... يعتقد بنو البشر، رجال ونساء على السواء، بأنهم كائنات مُتفوقة علينا، لكن ثِقوا برأيي فانا

أرى بأنهم أقل مكانة منّا وبأنهم أيضًا أدنى مرتبة منّا بكثير. انظروا إلى هذا الرجل العجوز وسوف يتبيّن لكم كيف يُضيع أيام حياته. لم يسبق أن حصل أي رجل آخر على ما كانت لديه من فرص لفعل الخير لكي يحصل على السعادة لكنه مع ذلك يكتئب ويتوانى ويُبدد وقته بشكل مخجل"

قالت سنونوة أخرى:

"لكنني أرى بأنه قد يكون على حقّ لأنه كان قد تعرّض للكثير من الأحزان ومن الصعب أن يكون المرء مُبتهجًا وهو بمثل هذا القلب الحزين. كان قد فقد عائلته وهو الآن يعيش في منزل فارغ لذا ليس عليك أن تكوني قاسية في حكمك عليه"

وكانت السيدة دارت قد نظرت إلى المكان الذي كان فيه عشها الذي سقط. وقالت:

"لا يا عزيزتي لن أكون قاسية في حكمي عليه لكنني أحيان" أفقد صبري عندما أشاهد ما هو فيه هذا الرجل من يأس. لو كان بإمكانه فقط أن ينسى بعض الشيء فسوف يكون برأيي أكثر سعادة، لكن كل ما يفعله الآن هو أن يتجوّل بمثل هذا الوجه الكئيب وبهذا المزاج السيئ"

قالت السيدة سكيم:

أنا أؤيد رأيك تمامًا وأستطيع أن أقول بأن عليه أن يشكر أي شخص قد يُعلّمه كيف بإمكانه أن يجد العزاء. يا لهذا البائس! كان بودي لو أن بإمكانه أن يفهم ما أقوله لأنني أتعاطف معه كثيرًا وسوف يسعدني جدًّا لو كان بإمكاني أن أساعده"

وكانت الأرملة السيدة دارت الطيبة القلب وهي تتحدث قد انزلقت بخفّة إلى جانبه وأخذت تغرد برّقة ما جعله يشعر بالعزاء ذلك لأن ذلك الرجل كان شاعرًا وكان بإمكانه أن يفهم لغة الطيور.

ظلّ الرجل مستلقيًا يُصغي بسرور إلى ذلك التغريد بينما استمرت طيور السنونو بثرثرتها معًا.

ثم قالت السيدة سكيم وهي جالسة فوق بيوضها:

"أنا حاليًّا مرتبطة جدًّا بعشّي لأن علي أن أحتضن البيض وأن أنتظر تفقيس فراخي، لذا ليس بإمكاني أن أطّلع عما يجري ما عدا القليل من الأنباء الذي يُعلمني بها زوجي سكيم، لذا فانا الآن أستمتع الآن كثيرًا بهذه الثرثرة وبهذا الحديث، كما أنني أهتم بوجهة نظركم عن هذا الموضوع لذا رجاء إعلامي ما الذي تقترحونه حول الطريقة التي على هذا الرجل أن يتبعها لكي يحسّن من وضعه؟"

أجابت السيدة وينغ بوقار ذلك لأنها كانت تُفاخر دومًا بما لديها من وجهات نظر ومن آراء وكانت تحب التحدّث عن ذلك كثيرًا:

"حسنًا سوف أعلمك كيف بإمكانه أن يفعل ذلك فأنا كما تعلمون كنت قد مررت بالكثير، وكنت قد شاهدت الكثير في هذه الحياة ولدي الكثير من التجربة في الحياة، لذا بإمكان أي شخص أن يستفيد من تجربتي ومما لدي من خبرة... كنت أثناء طيراني اليوم وأنا أبحث عن المكان الذي سأبني فيه عشي، قد شاهدت الكثير من الفقر ومن المشكلات ومن معاناة بني البشر ما جعلني أتمنى دومًا أن أستطيع مدّ يدّ المساعدة إليهم، وهذا الرجل لديه المال والكثير من أوقات الفراغ وبإمكانه بذلك أن يُساهم بأعمال الخير أكثر مما تعتقدون كل ما عليه أن يفعله هو أن يبدأ بذلك. ليس هناك في تصرفه ما أنتقده لكنه لو كان كما يقولون من الشعراء، فليس هناك ما يُبرر جلوسه طوال اليوم وهو يندب وينشد الأناشيد الحزينة كما لو أن ليس هناك أي شيء آخر بإمكانه أن يفعله... نحن أيضًا نُغرد لكننا بذات الوقت نعمل أيضاً فنحمد الله على أننا نُدرك أهمية كل من العمل والإنشاد على السواء".

وكان جميع الطيور قدصاحت بصوت واحد"

"نعم... هذا بالفعل ما نفعله جميعًا"

ثم استأنفت السيدة وينغ حديثها بحماس وقالت:

"لو كنت رجلًا لكنت سأجعل من نفسي على الفور شخصًا مفيدًا للآخرين. هناك على سبيل المثال ذلك الطفل الصغير ويل الذي يُعاني من المرض بشدّة والذي يتفاقم وضعه يومًا بعد يوم لأن والدته ليس بإمكانها اصطحابه إلى الطبيب، فلو ساهم هذا الرجل بقليل من ماله لكان بإمكان ذلك الطفل أن يشفى، كل ما عليه هو أن يمنحه بعض المال...

كما أن هناك ذلك العجوز الذي يتضور جوعًا والذي يعيش وحيدًا في ذلك الكوخ المنعزل وليس لديه من يُشعر بمعاناته، فلِمَ لا يقوم هذا الرجل الكسول باصطحابه إلى منزله والعناية به خلال ما تبقى من أيام حياته...

وهناك أيضًا السيدة نيل التي تعمل ليلًا نهارًا لمساعدة والدها. والدها الذي تمنعه كرامته من طلب المساعدة على الرغم من أنه بوضع صحّي سيء فقد بدأت صحته تتراجع كما بدأت مقدرته تتضاءل يومًا بعد يوم... بإمكان هذا الرجل أن يقدم إليها بعض العون لكي يجعل قلبها الحزين يبتهج...

كما أن هناك ذلك الشاب الذي يعيش في كوخ منعزل والذي هو بحاجة إلى بعض الكتب وإلى مدرس، ولدى هذا الرجل مكتبة تغصّ بالكتب. بإمكانه بما لديه من كتب مساعدة ذلك الشاب وسوف يكون بذلك قد انتشله من حالة اليأس التي يعيشها وتقديم العون له لو ببضع كلمات طيبة يقولها له...

وإن كان هذا الرجل يحزن ويتفجع على الطفل الذي فقده، فأنا أنصحه بأن يتبنى أحد الأطفال اليتامى ممن ليس لديهم أحد، فقد شاهدت اليوم طفلًا صغيرًا مستلقيًا على أرضية منزل مُتداع وليس لديه من يرعاه...

نعم، لو كان هذا الرجل يرغب بنسيان أحزانه والوصول إلى السكينة فكل ما عليه هو أن يملأ قلبه الفارغ ومنزله الفارغ وسوف يرى بأن الحياة لن تبدو له قاتمة بعد الآن".

قالت السيدة سكيم: "بحق الله! كم تجيدين التعبير عن نفسك سيدة وينغ؟ من الممتع بالفعل أن يُصغي المرء لما تقوله. ليت بإمكان ذلك الرجل سماع وفهم ما قلته لأن بما قلته ما سيعود عليه بالكثير من الفائدة"

وكان السيد سكيم قد أومأ أيضًا برأسه بالتأييد.

ثم قالت السيدة دارت بصوتها الرقيق:

"أنا أعلم ما قد يُعّزي هذا الرجل أكثر من أي شيء آخر، لأنني بالذات كنت قد جرّبت مثل هذا العلاج بطريقتي الخاصة وكنت قد وجدت باللجوء إليه الكثير من العزاء. أتمنى لو كان بإمكاني فقط أن أسدي لهذا الرجل نصائحي حول تجربتي في الحياة".

كان ذلك الرجل قد سمع ما قالته طيور السنونو وكان قد وفهم بالفعل كل ما دار من حديث بينها وكان بذلك قد غادر مخزن الحبوب وقد ارتسمت على شفتيه أول ابتسامة بعد أن كان الابتسام قد اختف عنها لأيام عديدة.

حدّث نفسه: "أنا بالفعل قد فهمت كل ما قلتِه سيدتي! ولن أنسى ما سمعته منك. شكرًا لكم يا صديقاتي... عمتم مساء!"

صاحت السيدة وينغ بدهشة وهي تكاد تقع من أعلى العارضة الخشبية:

"ليرحمنا الله! ليرحمنا الله! هل يُعقل أن يكون هذا الرجل قد فهم لغتنا؟"

وأجابتها السيدة سكيم ساخرة من سذاجة جارتها:

"أنا متأكدة من أنه قد سمع وفهم كل ما قلته ومن حسن الحظ أنني قد كنت حذرة في حديثي"

قالت السيد وينغ: "يا الهي ما الذي قلتُه وما الذي فعلتُه بنفسي؟"
وقالت السيدة دارت لكي تُخفف من الروع على السيدة سكيم:
"على أن أقرّ بأنك كنت قد تحدثت بأكثر ما ينبغي لك، وبأنك بذلك كنت قد تدخلت بشؤون الغير، كما أنك تفوهت أيضاً ببعض العبارات القاسية إلاّ أنني لا أتوقع أن في هذا ما قد يتسبب لك بأي ضرر فنحن أقل قدراً من أن يكون لآرائنا ما يمكن أن يزعجه"
قالت السيدة وينغ بحدّة فقد كانت قد اضطربت وتوترت جدًّا:
"لِمَ لا؟ قد يكون بإمكان القطة أن تنظر إلى الملك، وقد يكون بإمكان الطائر الصغير، لو كان أكثر حكمة، أن يُلقن الإنسان درسًا. قد يخرّب لي هذا الرجل عشي وقد يقتلني... لكنني أشعر بأنني قد أديت واجبي، ولو حدث وتسبب لي هذا الرجل بأي ضرر فسوف يكون مثال الرجل الكسول البغيض ناكر الجميل..."
لكن السيدة وينغ، على الرغم ما كانت فيه من تبجح وصرامة، كانت قد أخفضت صوتها ثم ألقت نظرة من أعلى العارضة الخشبية لكي تتأكد بأن الرجل كان قد غادر مخزن الحبوب قبل أن يسمع ما نعتته به من صفات بغيضة ثم طارت لكي تطّلع على ما سيقوم به ذلك الرجل.
وكانت السيدة وينغ قد ظلّت لعدة أيام مضطربة للغاية وكانت تتوقع أن يُهاجم عشها الصغير وأن يتم تدمير عائلتها بكاملها. بدأت صغار الطيور تُزقزق وكان أقرب الأصدقاء إليها قد شعروا أيضًا بالرعب ما جعلها تشعر بالخوف وتصبح خنوعة وتلتزم عشها ولم تعد تفتح منقارها سوى لكي تأكل.
كان تم تكليف من يحرس عشها ليلًا نهارًا للتأكد من عدم اقتراب أي خطر منها بحيث كانت مجموعة من طيور السنونو تطير حول المكان في جميع ساعات النهار والليل كما كان
عشرات من الرؤوس الصغيرة السوداء تُطلّ من أعشاشها لو حدث ودخل المخزن أي شخص. وكان جميع طيور المدينة قد اطلعوا أيضًا بعد مدة بسيطة على ما حدث مع تلك السنونوة الصغيرة.
وفي اليوم الذي تلا ذلك الحديث الذي دار بين طيور السنونو كان أحد الطيور الأخرى قد جاء لزيارة السيدة وينغ وقال لها:
"عزيزتي السيدة وينغ أنا بالفعل أشعر بكثير من القلق على وضعك لذا جئت لكي أحذرك من الخطر الذي يتهددك"

أجابت السيدة وينغ وهي تحمي صغارها تحت جناحيها المرتعشين:
"ليرحمنا الله!..."
أما السيدة سوتي التي لم تكن تحب السيدة وينغ لأنها كانت تنظر نظرة دونية إلى طيور السنونو التي تعيش في مداخن المنازل فكان ما قالته:
"اهدئي صديقتي، عليك أن تتحملي بصلابة نتائج طيشك. أنت تعلمين سيدتي بأنني أعيش في منزل كبير وأن بإمكاني أن أرى وأسمع كل ما يجري وكل ما يقال حولي، لا يوجد الآن أية نيران في الموقد لكن سيدي يجلس أمامه؛ لذا بإمكاني أن أسترق السمع وأن أصغي إلى كل كلمة يقولها. كنت ليلة الأمس بعد أن نام صغاري وبعد أن غادر زوجي قد جلست على منصب المدفأة المليء بالقطع الخشبية الكبيرة كما أفعل في كثير من الأحيان بحيث يكون بإمكاني أن أسترق النظر دون أن يراني أحد، وكان سيدي قد جلس هناك. كان يبدو أكثر هدوءًا وبهجة من المعتاد وقد سمعته يقول بلهجة تدّل على التصميم:
"سوف أقبض عليهم واحدًا واحدًا وسو أحتفظ بهم لدي هنا فهذا أفضل من تخريبي للمكان بكامله كما كنت أنوي... تلك الطيور لا تعلم ما الذي فعلته بي لكني سوف أثبت لها بأنني لن أنسى"، وكانت السيدة وينغ لدى سماعها تلك الكلمات قد فقدت وعيها بينما غادرت السيدة ستوت المكان وهي تشعر بالغبطة لما كان من وقع ما قالته عليها وهو تقول بلطف:
"آسفة لأجلك سيدة وينغ! أنا أسامحك على كلامك الفظّ حول طيور السنونو التي تعيش في المداخن، فليس بإمكان الشخص أن يتوقع حسن التصرف من الأشخاص الذين يعيشون في البيوت المغلقة بعيدًا عن المجتمع الخارجي للطيور ولو سمعت المزيد فسوف أعلمك بذلك".
وكانت السيدة وينغ البائسة قد تلقّت بذلك ضربة أخرى وشعرت كما لو أن أحدهم قد ضربها مما جعلها تفقد الوعي من جديد ثم صاحت:
"يا الهي! ما الذي علينا أن نفعله لكي ننجو؟"
قالت السيدة دارت: "لا عليك صديقتي. سوف ننتظر إلى الغد لكي نتأكد من كلام السيدة سوتي فربما كانت مخطئة. وعلى كافة الأحوال ليس بإمكاننا أن نغادر دون أن نصطحب أطفالنا وهم لا يستطيعون الطيران بعد. دعينا ننتظر لنرى ما الذي سيحدث، ولو حدث الأسوأ فنحن سنكون قد أدينا واجبنا وسوف نموت جميعًا معًا"...

وبما أنه لم يكن بإمكان أي منهم الإدلاء بأية نصيحة أفضل فقد تم العمل بنصيحة السيدة دارت وبذلك انتظر الجميع.

وبعد ظهيرة اليوم كان الدكتور بانك وهو أحد الطيور التي تعيش في قرية مجاورة قد زفّ إليهم الأنباء التالية بأن قال:

"لقد ذهب ذلك الرجل اليوم إلى ذلك المنزل الفقير واصطحب الطفل اليتيم نان. شاهدته وهو يحمله بين يديه إلى أم مرضعة ويطلب منها رعايته لبعض الوقت لقاء مبلغ جيّد من المال وكانت تلك السيدة قد بدت سعيدة لذلك لأنها بحاجة إلى المال أليس هذا تدبيرًا جيدًا للغاية؟"، ثم نظر إليها وقال:

"لكن ما الذي أصابك؟ نبضك مُتسارع وتبدين محمومة"

لا عجب من الدهشة التي شعر بها الطبيب نان لأن السيدة وينغ كانت لدى سماعها ما قاله قد بدأت على الفور تُرفرف بجناحيها ثم نظرت إلى من حولها وقالت بنبرة المنتصرة:

"والآن من الذي كان على حق؟ ومن الذي قام بعمل جليل؟ هل لديكم المزيد مما تثرثرون حوله؟ من الذي كان الشهيد؟ ومن التي تحملت جميع اللوم والظلم وقلة الاحترام؟ نعم! كان ذلك الرجل بالفعل قد وجد بأن ما قلته من الحكمة وسوف يُعرب عن امتنانه لي على ذلك، ولو تم تقديم المساعدة لعدد آخر من الأشخاص فسوف يعود الفضل في ذلك إلي وإلي فقط..."

وكانت قد توقفت عن التنفس بقوة.

نظرت كل من جاراتها إلى الأخرى بحيرة لكنهن في اليوم التالي كنّ قد تأكدن بأن السيدة وينغ كانت على حق، فلم يكن أي من طيور السنونو قد أصيب بأذى وإنما كانت السيدة وينغ قد أصبحت رئيسة مجموعة طيور السنونو وشكرها الجميع وأثنوا على ما فعلته.

كان الكثير من الأحداث الرائعة الأخرى قد تمت بعد ذلك، فلم تعد هناك في البلدة أية عائلة تعيش في عوز أو معاناة وتفتقد الرعاية. كان كل شخص قد حصل على ما يمكن أن يؤمنه له المال وبذلك ساد السلام والسعادة في تلك الأكواخ الفقيرة التي تقع إلى جانب ذلك المنزل القديم، ذلك لأن ذلك الرجل الكئيب كان قد تغير كليًّا كما أنه كان قد شعر بالسكينة وبالسعادة التي يجلبها العطاء للآخرين وكان قد عاد إلى التواصل مع الأصدقاء.

لم يكن ذلك الرجل قد نسيَ بالطبع زوجته وطفله اللذين فقدهما، لكنه لم يعد يشعر بذلك الأسى لأنه كان قد بدأ حياة جديدة يشغلها ما كان يقوم به لمساعدة من حوله من المعوزين.

أصبح كل من حوله أصدقاء له لكن من كانوا أفضل الأصدقاء بالنسبة إليه كانت طيور السنونو تلك. كان يذهب يوميًّا إلى مخزن الحبوب ويحمل إليهم الحبوب وكسرات الخبز ويجلس لكي يستمع إلى أحاديثهم ولكي يشاركهم أفراحهم وأحزانهم ولم يكن قد تخلى عن صداقتهم لأنه كان يُدين لهم بكل ما وصل إليه من راحة وسكينة ومن سلام.

كانت طيور السنونو عندما حلّ فصل الخريف وبدأت أوراق الأشجار تتساقط قد أخذت تستعد للرحيل إلى الجنوب، لكنها كانت تشعر بالأسف لابتعادها عن ذلك العجوز الصديق. كان العجوز عندما شاهد طيور السنونو تغرد وتستعد للرحيل قد بدأ يُنشد:

"أيتها السنونو الطيبة!

أيتها السنونو الصديقة التي تستعد لرحلتها الخريفية!

توقفي قليلًا أمام نافذتي لكي تُغردي برقة وتقولي: وداعًا...

لقد انقضت أيام الصيف

لكنك كنت قد قمت بما عليك من واجبات على أحسن وجه...

قمت ببناء أعشاشك الصغيرة واحدة واحدة لكي تعودي إليها مجددًّا مع قدوم الربيع...

وأنا أقول لك بكل امتنان:

وداعًا! وداعًا!

يا طيور السنونو الصديقة

وإلى اللقاء".

نصيحة طائر السنونو

The sallow advise

للكاتب ألان رامسي

كان أحدهم قد ذات يوم قد شاهد سنونو وقبض عليه واحتجزه في قفص. كان طائر السنون قد توسّل لذلك الرجل بأن يُطلق سراحه لكي يعود إلى حياة الحرية ثم قال له:

"لو أطلقت سراحي أيها الرجل الطيب فسوف تحصل على فائدة أكبر من فائدة احتجازك لي هنا في هذا القفص لأنني سأسدي لك ثلاث نصائح سوف تعود عليك بالكثير من الفائدة في المستقبل"

كان الرجل قد وافق على ذلك وأطلق سراحه. جثم الطائر على غصن شجرة قريبة وقال له:

"عليك الآن أن تُصغي جيدًا إلى هذه النصائح لأنها سوف سوف تُرشدك في تعاملك مع الآخرين... أما النصيحة الأولى فهي:

عليك ألا تصدق الأمور غير المعقولة وغير المنطقية.

وأما النصيحة الثانية فهي:

لا تُحاول أن تمدّ يدك للإمساك بشيء ليس بمتناول اليد وليس بإمكانك أن تصل إليه.

أما النصيحة الثالثة فهي:

عليك ألا تسعى لأمر كان من الماضي ولا لأمر فات أوانه وضاع.

عليك العمل بهذه النصائح الثلاث وإياك أن تنسها"

وكان الطائر قد قام بعد ذلك بمحاولة إغراء الرجل بأن قال له:

"يوجد في أحشائي جوهرة بحجم البيضة وهي جوهرة ثمينة رائعة وذات قيمة كبيرة".

كان الرجل لدى سماعه ما قال الطائر قد ندم كثيرًا لأنه أطلق سراحه ومدّ يده على الفور للإمساك به من جديد.

حينئذ قال الطائر لذلك الرجل الأبله على الفور:

"ماذا؟ ها قد نسيت النصائح التي أسديتها إليك؟ الحقيقة لم يكن بما قلته ما هو من الواقع وإنما كان ذلك عبارة عن كذبة فهل صدقتها؟

كنت قد وقعت في قبضتك لكنك لم تتمكن من احتجازي، وأنت الآن تحزن على ما مضى على الرغم من أنه لم يعد هناك فائدة من الندم".

اليتيم

The orphan

للكاتب غي دو موباسان

كانت الآنسة سورس عندما بلغت سن السادسة والثلاثين قد تبنّت طفلًا نتيجة لظروف محزنة جدًّا. كانت في طفولتها قد تعرّضت إلى حادث مؤسف بأن سقطت من حجر المربية على طرف الموقد مما أدى إلى إصابتها بحروق أدت إلى أن تشوّه وجهها بشكل يثير الاشمئزاز، مما جعلها تقرّر عدم الزواج لعدم رغبتها بأن يتزوجها أي رجل لأجل أموالها فقط.

وفي ذلك الوقت كان أحد المقيمين في الجوار قد توفي وترك أرملة على وشك الولادة دون أن يترك لها فلسًا واحدًا، وبذلك تبنّت الآنسة سورس ذلك الطفل الحديث الولادة.

جلبت له مربية خاصة، ورعته وأرسلته إلى مدرسة داخلية لتلقّي العلم إلى أن بلغ الرابعة عشر. وبذلك كانت حينئذ قد قررت أن تعيده إلى القرية لكي يعيش معها ويؤنس وحدتها. التي كانت تعيشها. فمن الذي سيرعاها ويجعل حياتها سعيدة عندما ستتقدم بالسن أكثر.

كان لديها منزلًا ريفيًّا بمساحة عشر هكتارات ودخلًا شهريًّا قدره ثلاثمائة دولار، ومدبرة منزل تتولى الأمور المنزلية، لكنها كانت عندما عاد ذلك الفتى اليتيم للعيش معها تم الاستغناء عن خادمتها بسبب تزايد الأعباء المالية ما جعل ذلك الدخل لا يكفي لثلاثة أشخاص، وكانت بذلك كان عليها أن تتولى بنفسها جميع الأعباء المنزلية من تنظيف وطهي وغيرها، بينما تولّى ذلك الفتى المتبنى العناية بالحديقة وكذلك جميع المهام الأخرى خارج المنزل. كانت لطيفًا خجولًا هادئًا وعطوفًا، وكانت الآنسة سورس تشعر بالكثير من السعادة عندما كان يقبلها دون أن يشمئز من وجهها المحترق المشوّه. كان يخاطبها بكلمة: "خالتي"، ويتعامل معها كما يتعامل مع أم له. كانا يجلسان معًا كل مساء إلى جانب الموقد، كانت سورس تُعدّ الأطعمة اللذيذة، وكثيرًا ما كانت تضعه على حجرها وتغمره بالقبلات وهي

تهمس في أذنيه بكلمات الحنان، وتُخاطبه بعبارات: "زهرتي الصغيرة، ملاكي الصغير، جوهرتي الثمينة"، وكان يدفن رأسه في صدرها بلطف وهو في غاية السرور، ذلك لأنه ظلّ صغير الحجم نحيلًا وشاحبًا على الرغم من أنه كان قد قارب سن الخامسة عشر.

كانت الآنسة سورس تصطحبه أحيانًا إلى المدينة لزيارة قريبتين لها عن بعيد تقيمان في الضواحي هما كل من تبقى لها من عائلتها في العالم.

كانت قريبتاها تشعران بأنها الآنسة سورس قد تصرفت بشكل خاطئ جداً بتبنّي ذلك الصبي الذي سوف يشاركهما في الميراث، لكنهما مع ذلك كانتا ترحبان بها كثيرًا بها على أمل الحصول على حصتهما من الميراث لو تم توزيع ما تمتلكه بالتساوي بينهم هم الثلاثة.

لكن الآنسة سورس كانت سعيدة، سعيدة جدًّا. كانت دائمة الانشغال بذلك الطفل الذي تبنته. كانت تشتري له الكثير من الكتب لكي يُوسّع معلوماته ما جعله يصبح مولعًا بالمطالعة.

وبذلك لم يعد يجلس على حجرها كما كان يفعل في السابق، وإنما كان يجلس دون حراك على كرسيه في إحدى الزوايا القريبة من الموقد ويفتح أحد الكتب لكي يقرأ على ضوء المصباح دون دون أن يرفع عينيه وهو يبدو مُستغرقًا بالقصة التي يقرأها.

بينما كانت الآنسة سورس تجلس في الجهة المقابلة تحدّق به بكل اهتمام وهي تشعر بالدهشة لمثابرته تلك ما كان يجعلها أحيانًا تكاد تذرف الدموع... كانت أحيانًا تقول له: "سوف تتعب نفسك بهذه الطريقة حبيبي!"

وهي تأمل بأن يأتي إليها لكي يُعانقها ويتحدث إليها كما كان يفعل سابقًا، لكنه لم يكن يفعل ذلك ولم يكن ينظر إليها كما لو أنه لم يكن قد سمع أو فهم ما قالته، ولم يكن يلتفت لشيء سوى لما يقرؤه في تلك الكتب.

كان خلال عامين قد قرأ بنَهم عددًا لا يُحصى من الكتب، كما كانت طباعه قد تغيّرت إلى حدّ كبير.

ثم بدأ الفتى يطلب منها المال باستمرار وكانت الآنسة سورس أن اضطرت ما يطلبه وعن طيب خاطر. لكنه كان بعد ذلك قد بدأ يطلب دومًا المزيد من المال إلى أن اضطرت إلى أن ترفض ذلك، لأنها كانت من النوع المُنظّم وكانت تعلم كيف كان عليها أن تتصرف بعقلانية عندما يستدعي الأمر.

كان الفتى قد حصل منها ذات ليلة بكثير من الإلحاح على مبلغ كبير من المال، ثم عاد وطلب منها بعد بضعة أيام إعطاءه المزيد من المال ولم تكن قد رضخت لطلبه ثم قررت ألا تمنحه المزيد من المال بعد ذلك.

كانت الآنسة سورس قد شعرت بالارتياح بذلك القرار لأنها لمست بأن كان، كان قد أصبح من جديد هادئًا لكنه كان في الفترة الأخيرة كان قد أصبح يجلس يبقى لساعات دون حراك مستغرقًا في تفكير حالم، ثم بدأ أيضًا يُخاطبها بكلمة: "سيدة سورس!"، وكان يجيب على ما تقوله بكلمات مُقتضبة وبشكل رسمي، ولم يعد يُعانقها، لكنه كان مع ذلك قد ظلّ مهذبًا لطيفًا في تصرفاته تجاهها؛ ما جعل الآنسة سورس تشعر قليلًا بالخوف من ذلك الفتى عندما كانا يجلسان وجهًا لوجه أثناء الليل في جهتين متقابلتين أمام الموقد. كانت تودّ أن تحرّك مشاعره، كانت تتمنى أن تجعله يقول شيئًا مهما كان، أن تجعله يكسر جدار الصمت الرهيب الذي أصبح يُخيم على حياتهما لكنه كان يبقى صامتًا كما لو أنه لم يسمع ما تقوله، وهذا ما كان يجعلها بعد أن تكون قد وجّهت إليه الحديث خمس أو ست مرات متتالية دون جدوى، ترتعد رعدة المرأة الضعيفة وتلتزم الصمت.

كانت تتساءل: "ما الذي دهاه؟ ما الذي يدور في ذهنه؟"

وعندما كان ذلك الصمت يستمر لمدة ساعتين أو ثلاث، كانت سوريس تشعر بأنها سوف تفقد صوابها وتتمنى لو أن بإمكانها أن تهرب إلى مكان بعيد لكي تتجنب ذلك الصمت الأبدي الذي يثقل عليهما، ولكي تتخلص مما يعتريها من شعور مُبهم بالخطر، شعور بخطر لم يكن بإمكانها أن تُحدد ماهيته رغم أنها كانت تتوقعه بنوع من الحدس الداخلي.

كانت كثيرًا ما تبكي عندما تكون بمفردها وهي تتساءل من جديد ما الذي دهاه؟ لكنه كالمدينة على الفور وبصمت ما قد يشير إلى رغبتها به وبما تريده أن يجلبه من المدينة. وبذلك لم يكن هناك ما يمكن أن تتذمر منه... نعم، لم يكن هناك بالفعل ما قد تشكو منه ومع ذلك.

بعد مرور عام آخر كانت الآنسة سورس قد بدأت تشعر بأن كثير من التغيير قد طرأ على ذهن الشاب. كانت قد لاحظت ذلك وخمّنته وأدركته. ولكن لا يهم كيف حدث ذلك! كانت متأكدة بأنها لم تخطيء في شكوكها بأن ذلك الفتى قد تغيّر بشكل كبير، على الرغم من أنه لم يكن بإمكانها أن تدرك سبب التغيير في ذهن ذلك الفتى

الغريب الأطوار وتراءى لها بأنه كان أشبه بشخص مُتردّد قد توصل فجأة إلى قرار ما.

كانت تلك الفكرة قد خطرت ببالها ذات ليلة عندما التقت نظرتها بنظرته. كانت نظرة ثابتة بطريقة لم يسبق أن شاهدتها على وجهه.

ثم بدأ الفتى يرقبها باستمرار ما جعلها تتمنى أحيانًا الهرب والاختباء من تلك النظرة الباردة التي كانت مُثبتة عليها طوال الوقت الذي يُمضيانه معًا.

ظلّ يحدق بها ليلة بعد ليلة لساعات. لم يكن يحوّل بصره عنها إلى أن قالت له ذات يوم بعد أن كان ذلك التصرف قد أثار أعصابها تمامًا.

"لا تنظر إلي بهذه الطريقة بُني!"

وكان الفتى قد أخفض حينئذ بصره، تُلاحقانها كلما كانت تدير ظهرها إليه، كانت تشعر بعينيه تُلاحقانها أينما ذهبت بتلك النظرة الثابتة... بانتظارهاأحيانًا عندما تتجول في حديقتها الصغيرة كانت تلاحظ فجأة بأنه مختبئًا وراء إحدى الأشجار الكبيرة بانتظارها. وكانت تلاحظ عندما كانت تجلس أمام باب المنزل وهي تُحيك بينما يقوم بزراعة بعض الفسائل بأن الفتى كان يرفع رأسه خلسة وينظر إليها.

كانت تسأله دون جدوى:

"ما الذي دهاك بُني؟ لقد تغيرت كثيرًا خلال السنوات الثلاث الماضية. أصبحت شخصًا مختلفًا بحيث لا أكاد أعرفك. أعلمني ما الذي يزعجك وما الذي تفكر به!"

وكان يجيبها بصوت هادئ ضَجِر: "لِمَ تقولين هذا خالتي، ليس هناك ما يزعجني!"

ثم قالت له ذات مرّة:

"بُني، عليك أن تُجيبني عندما أتحدث إليك. لو علمت كم يتسبب لي صمتك وأنت تنظر إلي بهذه الطريقة من حزن لكنت ستُعلمني بما يُضايقك. هل تعاني من مشكلة؟ أعلمني بذلك وسوف أساعدك وأريحك!"

وكان كل ما فعله هو أن تمتم بضيق وهو بغادر المكان:

"لكن ليس هناك ما يضايقني وأنا أؤكد لك ذلك"

لم يكن في ذلك الوقت قد نضج تمامًا، كانت تقاطيعه قد أصبحت تقاطيع رجل خشن لكنه كان قد احتفظ بذات الوقت بذات النظرة الطفولية، وكان قد أصبح مخلوقًا مُقلقًا منطويًا على نفسه أشبه بلغز لايمكن سبر أغوار ما بداخله، وكان في نظرته ما يوحي بأن هناك أمر خطير يدور في ذهنه.

كانت الآنسة سورس قد أدركت تمامًا كل تلك الأمور وبذلك لم يعد بإمكانها أن تنام ليلًا لكثرة معاناتها من القلق ومن المخاوف وكانت الكوابيس المرعبة قد بدأت تقضّ مضجعها، ما جعلها تحتجز نفسها في غرفتها وتقفل الباب عليها يُعذبها الخوف.

ولكن ما هو الشيء الذي كانت تخاف منه؟

لم يكن بإمكانها أن تتبيّن ذلك بالتحديد. كانت تخاف من كل شيء من الليل من الجدران من الظلال التي يعكسها ضوء القمر على الستائر البيضاء لنوافذ غرفتها، ولكنها أكثر من كل ذلك كانت تشعر بالخوف من ذلك الفتى.

لماذا؟ وما هو الأمر الذي يُهددها، لم تكن تعلم ما هو؟

لم يعد بإمكانها الاستمرار بالعيش بذلك الوضع! كانت متأكدة بأن هناك ما يُهددها، وبأن هناك أمر مخيف وشيك الوقوع.

وكانت ذات صباح قد خرجت خِفية وذهبت إلى المدينة لزيارة قريباتها، وعندما روت لهما ما يحدث وهي ترتجف وتلهث، كانت الامرأتان قد اعتقدتا بأنها فقدت عقلها وحاولتا طمأنتها لكنها قالت:

"لو أنكما شاهدتما فقط الطريقة التي ينظر بها إليّ من الصباح حتى المساء فسوف تعذراني! فهو لا يرفع بصره عني ما يجعلني أشعر أحيانًا بالرغبة في طلب النجدة وبأن أستدعي أحد الجوار، لكثرة ما أشعر به من خوف. ولكن ما الذي بإمكاني أن أقوله لهم؟ أن أقول بأنه لا يفعل شيئًا سوى النظر إليّ"

سألتها السيدتان:

"هل يعاملك بقسوة؟ هل يجيبك بطريقة وقحة؟"

وأجابت: "لا، أبدًا، كما أنه هو يُنفذ كل ما أطلبه منه ويعمل بجد وباستقامة لكنني أخاف منه إلى الدرجة التي تجعلني لا ألتفت لكل ذلك. لابد أنه يُخطط لشيء ما وأنا متأكدة من ذلك. أنا متأكدة تمامًا من ذلك. كل ما يهمني الآن ألا أبقى بمفردي معه في القرية"

وكانت قريبتاها قد استغربتا ما قالته وقالتا لها بأن الناس سوف تستغرب تصرفاتها وبأنه لن يكون هناك من سيتفهم موقفها، ثم أشارتا عليها بأن تلتزم الصمت حول مخاوفها وحول خططها المقبلة وأقنعتاها بفكرة المجيء للعيش في المدينة ووعدتاها بمساعدتها ببيع المنزل وبالعثور لها على منزل بالقرب منهما

لأنهما كانتا في الحقيقة تأملان بأن تكون تلك هي الطريقة التي سوف تحصلان بموجبها على كامل الميراث كما.
وكانت الآنسة سورس قد عادت إلى منزلها بذهن مُشوّش ما جعلها ترتجف لأقل صوت تسمعه وتضطرب لأتفه الأسباب.
وكانت بعد أن ذهبت مرتين على التوالي لاستشارة قريباتها في المدينة قد اتخذت قرارها النهائي بألا تبقى لمدة أطول بمفردها مع ذلك الفتى في ذلك البيت.
وبذلك كانت عندما عثرت أخيرًا على منزل صغير مناسب في إحدى الضواحي، قد اشترت ذلك البيت خِفية لكيلا تترك المجال لذلك الفتى لمعرفة ما تُخطط له.
كان قد تم توقيع العقد صباح الثلاثاء وكانت الآنسة سورس قد خصصّت باقي اليوم لاستكمال ما يلزم من التحضيرات لذلك التغيير في مكان إقامتها.
وكانت الآنسة سورس في الساعة الثامنة من مساء ذلك اليوم قد استقلّت العربة وطلبت من السائق أن يُقلّها إلى الفندق الذي تقيم فيه عادة، وكان السائق قد تمنى لها ليلة سعيدة وأجابته وهي تنطلق في طريقها:
"عِمت مساء سيد جوزيف!"
وفي صباح اليوم التالي كان ساعي البريد عندما بدأ جولته في الساعة السابعة قد شاهد في طريقه بقعة كبيرة من الدماء لم تكن قد جفّت بعد. حدّث نفسه:
"لابد أن أحد الثملين قد نزف من أنفه".
لكنه كان قد لمح أيضًا على بعد عدة خطوات منديلًا تنتشر عليه بقع كثيرة من الدماء. التقط المنديل. كان منديلًا ناعمًا وبذلك كان قد بدأ يشعر بالخطر، ثم توجه إلى جانب القناة وكان قد شاهد هناك شيئًا غريبًا... كانت الآنسة سورس مُمددة على العشب وقد اخترقت قلبها سكين حادة.
كان قد تم استدعاء عناصر الشرطة وبعض المسؤولين الآخرين لإجراء التحقيقات حول أسباب الوفاة، كما تم استدعاء قريبتي الآنسة سورس الإدلاء بشهادتهما.
كانت القريبتان قد أعلمتا المُحقق عن مخاوف الآنسة سورس وعما كانت قد خططته في الفترة الأخيرة، وبذلك كان قد تم توقيف الشاب اليتيم الذي كان يذرف الدموع من الصباح إلى المساء وهو في غاية الحزن.
كان الفتى قد اعترف بأنه كان قد أمضى تلك الليلة في المقهى وحتى الساعة الحادية عشر ليلًا، وكان عشرة أشخاص قد شهدوا بذلك، وبأن الفتى كان هناك إلى أن غادروا المقهى.

وبما أن سائق العربة كان قد شهد بأنه كان قد أوصل المرأة المقتولة إلى تلك الطريق بين الساعة التاسعة والعاشرة ليلًا، فكان قد تمت تبرئة المتهم وتم إخلاء سبيله على الفور.

وبما أن الوصيّة التي كانت قد أعدت منذ وقت طويل وأودعت لدى المحامي، كانت تنصّ على أن الفتى يُعتبر الوريث الشرعي الوحيد للمتوفاة، فكان من حصل على كامل الميراث هو ذلك الفتى المُتبنّى.

لكن أهل القرية ظلّوا يشكّونّ بالفتى وكان الجميع قد قاطعون الفتى لمدة طويلة، كما كانوا يتجنبون حتى المرور إلى جانب ذلك المنزل الذي كانت المرأة المتوفاة قد اعتبره منزلًا ملعونًا.

لكن الفتى كان مع ذلك يتصرف معهم بكل لطف وبكل انفتاح وحميمية ما جعلهم بالتدريج يُبعدون تلك الشكوك عن أذهانهم. كان كريمًا لطيفًا معهم وكان على استعداد للمبادرة بأية خدمة لو أنهم فقط أبدوا استعدادهم للتحدث معه.

حتى أن المحامي السيد رامو الذي كان أول من حصل على حصته من الوصية كان قد افتتن بابتسامته وكان ما قاله أثناء اجتماعه بأهل المنطقة:

"من المؤكد أن هذا الرجل بريء! فليس بإمكان رجل يتحدث بمثل هذه المِصداقية، وبمن هو على الدوام بمزاج جيّد، أن يكون قد ارتكب مثل تلك الجريمة الشنعاء دون أن يشعر بعذاب الضمير لما ارتكبه من إثم"

كان أهل المنطقة قد تأثروا برأي ذلك المحامي و كانوا قد ناقشوا الأمر مُطوّلًا فيما بينهم، وتذكروا كيف كان ذلك الرجل يستمع إلى آرائهم، وكيف كان يُصّر على زيارتهم له في منزله عندما يمرون بالقرب من حديقته، وكيف كان بإمكانه أن يحافظ على ابتسامته وعلى مزاجه الجيّد تجاههم، على الرغم مما كانوا يظهرون له من اشمئزاز وتوصّلوا إلى قناعة بأنه لابدّ أن يكون بريئًا تمامًا من التهمة التي نسبت إليه، وحتى أنه كان بعد مدة قد أصبح محافظًا لتلك المنطقة، وبذلك كانت جميع الأبواب قد فتحت أمام ذلك المُتبنى الذي خان ضميره والذي لم يكن قد قابل الإحسان بالإحسان وبذلك تنطبق عليه حكمة: (اتقّ شر من أحسنت إليه).

الابن المُتبنّى

The adopted son

للكاتب غي دو موباسان

كان الكوخان يقفان بمقابل بعضهما في أسفل هضبة تقع بالقرب من مُنتجع صغير بجانب الشاطئ. كان القرويان يعملان في الأرض القاحلة بكل جهد لتنشئة صغارهما، حيث كان لكل من العائلتين أربعة أطفال. كان الولدان الأكبر سنًّا في سن السادسة، وكان سن الطفل الأصغر سنًّا خمسة عشر شهرًا، ذلك لأن الزواج والولادة لدى العائلتين كانا قد تما في وقت واحد تقريبًا.

لم يكن بإمكان الأهل التمييز بين أولادهم سوى بصعوبة وكانوا يخلطون دومًا بينهم. كانت الأسماء الثمانية تتراقص في أذهانهم، وبذلك كان على الرجلين في كثير من الأحيان أن يهتفا بثلاثة أسماء إلى أن يجدا الاسم الصحيح لمن يرغبا مناداته من الأولاد.

كانت لدى عائلة (تيفاش) التي تشغل الكوخ الأول من بين الكوخين وهو الكوخ الذي يقع على الطريق المؤدية إلى شاطئ الاستحمام ثلاث بنات صغيرات وولد واحد.

أما البيت الثاني فكان يؤوي عائلة (فالين) التي كانت لديها ابنة واحدة وثلاثة أولاد.

كانوا جميعًا يعيشون بشكل اقتصادي على حساء البطاطا والهواء النقي، وكانت ربتا البيت تجمعان صغارهما معًا في الساعة السابعة صباحًا ثم في الساعة السادسة مساءً لإطعامهم وهذا بعد أن يكون الوالدان قد حصلا على أجورهما.

كان جلوس الأولاد يتم بحسب سنّ كل منهم أمام طاولة خشبية كانت قد صُقلت باستخدام دام لخمسين عامًا، حيث كان فم الأصغر سنًّا لا يكاد يصل إلى مستوى الطاولة. كان يوضع أمامهم وعاء مليء بالخبز المغمّس بماء البطاطا نصف المسلوقة، ونصف ملفوفة وثلاث بصلات، وكانت المجموعة بكاملها تأكل إلى أن تشبع، بينما تقوم الأم بنفسها بإطعام من هم أصغر سنًّا.

كان قِدرًا صغيرًا من اللحم المشوي يوم الأحد يُعتبر عيدًا بالنسبة للجميع، حيث كان الأب يستغرق فترة أطول في تناول وجبته في ذلك اليوم وهو يُردد:

"أتمنى لو كان بإمكاننا الحصول على هذا كل يوم!"

فقر وحاجة وحياة بسيطة.

إلى أن حدث في ظهيرة أحد أيام شهر آب/أغسطس أن توقفت مركبة فخمة فجأة أمام الكوخين وقالت امرأة شابة كانت تقود لعربة للرجل الجالس إلى جانبها:

"أووه... هنري انظر إلى هؤلاء الأولاد! ما أجملهم وهم يتشقلبون هكذا على الأتربة"

لم يكن الرجل قد أجاب لأنه كان قد اعتاد على مثل ذلك الجيشان العاطفي من الإعجاب بالأطفال وهو ما كان يُسبب له الأسى، لأنه كان تقريبًا بمثابة توجيه اللوم إليه لأنه لا يرزق بأولاد. ثم تابعت السيدة حديثها:

"أودّ أن أعانقهم! كم كان بودي أن أحصل على أحدهمّ مثل ذلك الصغير هناك... ذلك الصغير جدًّا"

وكانت تلك السيدة قد وثبت من العربة وأسرعت نحو الأولاد، حملت أحد الاثنين الأصغر سنـًّا -ابن تيفاش- بين ذراعيها وقبلته بحرارة على خديه القذرين وعلى شعره الأشعث الملوّث بالتراب، وعلى يديه الصغيرتين، اللتين كان يكافح بهما بقوّة لكي يتخلص من تلك المداعبات التي أثارت استيائه. ثم صعدت من جديد إلى العربة وقادت الحياد بعدوٍ سريع جدًّا.

لكنها كانت قد عادت في الأسبوع التالي.كانت قد جلست على الأرض وأخذت الصغير بين ذراعيها وحشت فمه بالكعك، ثم أعطت الآخرين الحلوى ولعبت مع الابنة الصغيرة بينما كان زوجها ينتظرها بحِلم في العربة.

ثم عادت مرّة أخرى وتعرّفت على الأهل وكانت بعد ذلك تظهر يوميًّا من جديد بجيوب مليئة بالمأكولات اللذيذة وبالفرنكات.

كان اسمها السيدة ديبير.

وذات صباح كان زوجها لدى قدومهما قد ترجل أيضًا معها من العربة، ودخلا معاً إلى كوخ المزارع دون أن تكون قد توقفت للتحدث مع الأطفال، الذين كانوا قد أصبحوا يعرفونها جيدًا.

كان الوالدان منشغلين بتقطيع الخشب لأجل الموقد. نظرا إليهما بدهشة وجلبا لهما الكراسي وانتظرا ما ستقوله.

كانت المرأة قد بدأت الحديث بصوت منكسر مرتجف وقالت:
"جئت إليكم إليكم لأنكم من الأشخاص الطيبين. جئت اليوم لكي أتحدث إليكم لأنني أودّ. أود أن أصطحب. ابنكم الصغير معي"
وكانت حيرة القرويان قد منعتهما من التفكير، وبذلك لم يُجيبا.
ثم استردت السيدة أنفاسها وتابعت حديثها بالقول:
"أنا وزوجي وحيدان ونرغب بالاحتفاظ بالطفل. هل توافقان على ذلك؟"
كانت المرأة القروية قد بدأت تفهم ما تعنيه تلك السيدة وبذلك سألتها:
"أتريدان أخذ شارلوت منا؟ أووه... لا.لا... بالطبع!"
وكان السيد ديبير قد تدخّل وقال:
"لم تقم زوجتي بتوضيح مقصدها تمامًا ما نقصده هو أننا نرغب بتبنّيه لكنه سيأتي لرؤيتكم. ولو ثبت لنا حسن تصرفه، حيث أن لدينا جميع الأسباب التي تجعلنا نتوقع ذلك، فسوف يكون وريثنا الشرعي الوحيد، ولو حدث ورزقنا بالصدفة بالأولاد فسوف يتقاسم التركة معهم بالتساوي، وحتى لوثبت بعد ذلك عدم استحقاقه لرعايتنا، فسوف نمنحه عندما سيبلغ السن القانونية عشرين ألف فرنك سوف نودعها على الفور باسمه لدى أحد المحامين. وبما أننا فكرّنا أيضًا بكم جميعًا، فسوف ندفع لكما طوال حياتكما وحتى وفاتكما منحة شهرية قدرها مائة فرنك. هل تفهمونني؟"
كانت المرأة قدنهضت وقالت هي في غاية الغضب:
"أتطلبون مني أن أبيعكم ابني شارلوت؟ أووه... لا... ليس هذا بالأمر الذي يمكن أن يُطلب من أم! لا! سوف يكون ذلك مُريعًا!"
ولم يكن زوجها قد تفوّه بأية كلمة لكنه كان قد وافق على ما قالته زوجته بهزّة مستمرة من رأسه.
كانت السيدة ديبير قد بدأت تبكي بحرقة ثم التفتت إلى زوجها وتمتمت بصوت تملؤه الدموع، صوت طفلة اعتادت على تلبية رغباتها:
"لن يفعلوا ذلك هنري، لن يفعلوا ذلك"
وكان زوجها قد قام حينئذ بمحاولة أخيرة وقال:
"فكّروا أيها الأصدقاء بمستقبل الطفل، فكّروا بسعادته بـــ..."
لكن المرأة القروية الساخطة كانت قد أسكتته على الفور وقالت:

"قمنا بالتفكير بكل شيء! وفهمنا كل شيء! اخرجا من هنا ولا تدعاني أراكما مرّة أخرى. مجرد فكرة رغبتكم أخذ طفل بهذا الشكل!"

كانت السيدة ديبير قد تذكرت حينئذ بأن من تشاهدهما كانا طفلان، صغيران جدًّا، وبذلك كانت قبل أن تخرج قد سألت الزوج من خلال دموعها، بتمسك المرأة العنيدة المدللة:

"لكن أليس الصغير الآخر ابنكم؟"

أجاب الأب تيفاش:

"لا، بل هو ابن جيراننا. بإمكانكما الذهاب إليهم لو رغبتم"

ثم عاد إلى منزله الذي كان يضجّ منه صوت زوجته الساخطة.

عندما دخلا إلى كوخ عائلة (الفالين) كان أفراد العائلة أمام المائدة... كانوا يأكلون كِسرات من الخبز ينشرون عليها بشحٍّ بعض الزبدة الفاسدة. كان السيد ديبير قد بدأ يتحدث من جديد عن الأمر ولكن بأكثر من التملّق وباحتياطات كلامية أكثر، وبأكثر من دهاء.

كان الوالدان القرويان في البداية قد هزّا رأسيهما بالرفض، لكنهما كانا عندما علما بأنهما سوف يحصلان على مائة فرنك شهريًّا، قد فكرا بالأمر مُجددًا...

استشار كل منهما الآخر بنظرات قلقة جدًّا وبعد أن ظلا على صمتهما لفترة طويلة، مُعذبين مُترددين كانت المرأة قد سألت زوجها أخيرًا:

"ما الذي تقوله في هذا العرض؟"

قال الرجل بأسلوب جدّي:

"أنا أرى بأن هذا الأمر ليس مما قد يستخف به المرء"

ثم تحدثت السيدة ديبير إليهم، وهي ترتجف من الغمّ، عن مستقبل طفلهم، وعن سعادته وعما سيكون بإمكانه أن يمنحهم من مال في المستقبل.

حينئذ سألها القروي:

"هل سيتم التعهّد بذلك بالراتب الشهري الذي قدره عشرة آلاف فرنك لدى محامي؟"

قال السيد ديبير: "بالطبع... بالتأكيد... واعتبارًا من الغد"

ثم تابعت المرأة التي كانت لا تزال تفكر بالأمر الحديث وقالت:

"لكن مبلغ مائة فرنك شهريًّا غير كافٍ للتعويض عن الحرمان من الطفل، فهذا الطفل سوف يبدأ العمل بعد بضع سنوات، لذا يجب أن نحصل على مائة وعشرين فرنك"

وكانت السيدة ديبير قد وافقت على الفور لأنها كانت ترغب بحمل الطفل معها كما لو أنها قد حصلت على ألعوبة، وكانت قد منحتها مائة فرنك إضافية كهدية بينما سحب الزوج قطعة من الورق وناولها لوالد الطفل. وبذلك كانت المرأة الشابة قد حملت الطفل الذي كان يصرخ وهي مُشرقة من السعادة أشبه بمن يحصل على ألعوبة من مخزن.

كان أفراد عائلة تيفاش قد رقبوا من باب منزلهم بصمت وجدّية خروج السيدة بالطفل بصمت وجديّة، وربما كان ذلك لأنهما أسفا لرفضهما لذلك العرض.

لم يكن أحد قد سمع أي شيء أكثر من ذلك عن الصغير (فيلين)، كان الوالدان يذهبا كل شهر لتحصيل المائة والعشرين فرنكًا، لكنهما كانا قد تشاجرا مع جيرانهما لأن الأم (تيفاش) كانت تُهينهما بفظاظة وتردّد باستمرار من باب لباب بأن على المرء أن يكون غير طبيعي بأن يبيع ابنه، وبأن ما فعلاه كان رهيبًا، مثيرًا للاشمئزاز، وبأنه من الرشوة. كما كانت أحيانًا تأخذ شارلوت بين ذراعيها بتفاخر وهي تقول كما لو أنه يفهم ما تقوله:

"أترى حبيبي! أنا لم أقم ببيعك، لم أفعل ذلك. لم أقم ببيعك يا صغيري! أنا لست ثرية لكنني لا أبيع أولادي!"

وكانت عائلة (الفيلين) قدعاشت برخاء بفضل ذلك الراتب الشهري، وكان ذلك سببًا لغضب غير قابل للتهدئة لدى عائلة (التيفاش) الذين ظلّوا على فقرهم وعلى تعاستهم.

كان الولد الأكبر قد التحق بالخدمة في الجيش، بينما بقي شارلوت لكي يعمل مع والده ويساعده في إعالة الأم والشقيقتين الصغيرتين.

كان شارلوت قد بلغ سن الحادية والعشرين عندما شاهد ذات صباح عربة فخمة تتوقف أمام الكوخين. ترجّل من العربة شاب محترم بيده ساعة ذات سلسلة ذهبية وكان يُمسك بيد سيدة مُسنة ذات شعر أبيض.كانت السيدة المُسنة قد قالت له:

"هنا بُني في البيت الثاني"

كان بذلك الشاب قد دخل منزل (الفيلين) كما لو أنه كان منزله.

كانت الأم التي أصبحت مُسنة تغسل مئزرها، وكان الأب العاجز نائمًا إلى جانب زاوية الموقد. رفع الاثنان رأسيهما ونظرا إليه. قال الشاب:

"عِمت صباحًا أبي، عِمت صباحًا أمي!"

نهض الاثنان برعدة، تركت المرأة القروية قطعة الصابون تسقط من يديها في الماء وتمتمت:

"أهذا أنت طفلي؟ أهذا أنت طفلي؟"

وكان الشاب قد أخذها بين يديه بتلك وعانقها وهو يردّد:

"عمت صباحًا أمي"

أما الرجل العجوز فقال وهو يرتجف بكل جسمه وبتلك اللهجة الهادئة التي لم يكن قد فقدها يومًا كما لو أنه كان قد شاهده منذ شهر واحد فقط:

"أهذا أنت من جديد جين؟"

وكان الأهل قد رغبوا باصطحاب الفتى بعد ذلك لكي يشاهده جميع من هم في الجوار. اصطحباه إلى رئيس البلدية، وإلى النائب، إلى راعي الأبرشية وإلى مدير المدرسة.

كان شارلوت الذي كان واقفًا أمام باب كوخه قد شاهده وهو يمرّ أما الكوخ قد قال ذلك المساء للشخصين المُسنين أثناء تناولهم العشاء:

"كنتما مغفلين بأن تَدعا من تأخذه تلك العائلة هو ابن عائلة (الفيلين)"

وأجابته المرأة: "لم أكن لأبيع طفلي"

ظلّ الأب صامتًا وتابع الابن حديثه:

"من المؤسف أن تكونوا قد ضحيتم بي بهذه الطريقة"

حينئذ قال الأب تيفاش بنبرة غضب:

"هل تلومنا لأننا استبقيناك؟"

لكن الشاب قال بقسوة:

"نعم! أنا ألومكما لأنكما كنتما بمثل هذه الحماقة. من مثلكما من الأهل يتسببون بتعاسة أولادهم. أنتما تستحقان أن أترككما"

كانت السيدة المسنة قد بدأت تبكي فوق طبقها. انتحبت وقالت وهي تبتلع ملعقة مليئة من الحساء كان نصفها قد سُفح.

"قد يقتل المرء نفسه لكي يربي الأولاد!"

لكن الابن أجابها بخشونة:

"كان من الأفضل لي ألا أولد من أن أكون بهذا الوضع. كاد قلبي يتوقف عندما شاهدت جين وقلت لنفسي:
انظر كيف كنت ستكون الآن"
ثم نهض وقال:
"انظروا إلي... أنا أشعر بأنني... لا أريد أن أقول المزيد. من الأفضل لي ألا أبقى هنا لأنني سأرميكما بهذا الكلام القاسي من الصباح إلى المساء، وسوف أجعل حياتكما تعيسة، لن أسامحكما أبدًا على ذلك التصرف"
ظلّ العجوزان صامتان مُحبطان باكيان وتابع الفتى حديثه بالقول:
"لا. لا... هذا فوق طاقة احتمالي، مجرد التفكير بذلك سوف يكون فوق طاقة احتمالي، لذا من الأفضل بالنسبة إلي أن أعيش في مكان آخر"
ثم فتح الباب وخرج بينما كانت تصل إلى مسامعهم من خلف الباب أصوات عائلة (الفيلين) التي كانت تحتفل ببهجة بعودة ابنها.

نعم الحياة الخمس

The five boons of life

للكاتب مارك توين

كانت إحدى الجنيّات الطيبات صبيحة أحد أيام هذه الفانية قد أتت إلى شاب يافع وهي تحمل بيدها سلّة وقالت له:

"لدي في هذه السلّة بعض العطايا، فلتأخذ إحداها وتترك الأخريات. لكن عليك أن تكون على حذر، وأن تختار بحكمة. نعم عليك بالفعل أن تختار بحكمة؛ لأن واحدة منها فقط ذات قيمة حقيقية"...

كانت العطايا الخمس كالتالي: الشهرة، الحب، الثروة، المتعة، والموت.

قال الشاب بحماس:

"لا حاجة للتفكير مليّاً..."، واختار المتعة.

وانطلق ذلك الشاب في هذا العالم الكبير. غرق في جميع الملذات التي يمكن أن يستمتع بها من هم في سن الشباب، إلا أن جميع تلك الملذات كانت قصيرة الأجل، مُخيّبة للآمال، تافهة وغير مُجدِية، وكانت كل منها تتركه وهي تسخر منه. إلى أن قال في النهاية:

"لقد أضعت كل تلك السنوات من حياتي دون جدوى، لو كان بإمكاني فقط أن أختار من جديد، فسوف أختار بحكمة".

وكانت الجنيّة قد ظهرت من جديد وقالت له:

"لا تزال لديّ أربع من العطايا. بإمكانك أن تختار مرّة أخرى، ولكن تذكّر بأن الوقت يمرّ بسرعة، وبأن واحدة منها فقط ذات قيمة حقيقية"

فكّر الرجل مليًّا، واختار الحب، دون أن يكون قد التفت إلى الدموع التي كانت قد اغرورقت بها عينا تلك الجنيّة.

بعد مرور سنوات. سنوات عديدة. كان ذلك الرجل جالسًا في منزل فارغ أمامه نعش... كان يُطارح أفكاره ويُحدّث نفسه ويقول:

"ها قد رحلوا جميعًا، الواحد تلو الآخر وتركوني وحيدًا. وهاهي آخرهم ومن كانت أغلاهم لدي مُسجاة أمامي الآن. لقد حلّت بي النوائب الواحدة تلو الأخرى وقد دفعت ثمن كل ساعة من تلك السعادة التي باعها لي ذلك التاجر الغادر الحب، بآلاف ساعات الأحزان، وأنا الآن ألعنه من أعماق قلبي"

"بإمكانك الاختيار مرّة أخرى...!"، كان ذلك صوت الجنيّة.

"لابد أن السنوات قد علّمتك الحكمة... من المؤكد أن الأمر كذلك. بقيت لديّ هنا ثلاث من العطايا، وواحدة منها فقط ذات قيمة حقيقية، تذكّر ذلك عليك الآن أن تختار بحرص"

فكّر الرجل مليّاً ثم اختار الشهرة، وكانت الجنيّة قد ذهبت في طريقها وهي تتنهد.

مرّت السنوات، وعادت الجنيّة من جديد. وقفت خلف ذلك الرجل الذي جلس وحيدًا في زوال النهار يندب ويُفكّر. كانت الجنيّة على علم بما يدور في ذهنه. كان يُطارح أفكاره ويقول:

"كانت شهرتي قد ملأت العالم. كان الجميع يُشيدون بي وكان مديحي يدور على كل لسان. كان ذلك مُحببًا إليّ بالطبع إلا أنه لم يَدم سوى لفترة قصيرة. فترة قصيرة جدًّا... آه! كم كانت تلك الفترة قصيرة! فقد تلا ذلك الغيرة، ثم الكراهية، ثم الافتراء، ثم الازدراء، ثم الاضطهاد الذي كان بداية النهاية إلى أن جاءت أخيرًا تلك الشفقة التي كانت التشييع الأخير لما كنت فيه من شهرة. آه...! يا لمرارة ويا لبؤس الشهرة! لعن الله الكَدر حين صفوتها، والازدراء والشفقة حين زوالها".

سمع الرجل حينئذ صوت الجنيّة تقول:

"فلتختر مرّة أخرى، فلا تزال لديّ اثنتان من العطايا لا تيأس. كانت إحداها فقط منذ البداية ذات قيمة ثمينة وهي لا تزال موجودة"

قال الرجل:

"الثروة! نعم... الثروة هي القوّة! كم كنت أعمى البصيرة! سوف تستحق الحياة أخيرًا أن أعيشها... سوف أنفق، سوف أبدّد المال، سوف أبهر العيون. سوف أجعل أولئك الذين سخروا مني يزحفون أمامي في الوحل، وسوف أُشبع قلبي المُتعطش برؤيتهم ينظرون إلي بغيرة وحسد. سوف أحصل على جميع وسائل الترف، على جميع المباهج، على كل ما يفتن النفس، وعلى جميع الملذات الجسدية التي يهفو إليها قلب المرء. سوف أشتري، وأشتري، وأشتري كل شيء: التقدير، الاحترام، الإجلال، والتبجيل... سوف أحصل على كل ما تُتيحه لي سوق الحياة، وعلى كل ما

يُزين هذا العالم من أشياء ثمينة. كنت قد أضعت الكثير من الوقت لأنني اخترت الشيء الخطأ، لكن لندع ذلك جانبًا، كنت حينذاك جاهلًا، لذا كنت قد اخترت ما كان يبدو لي بأنه الاختيار الأفضل"...

ثم مرّت سنوات ثلاث أخرى بسرعة البرق. وجاء اليوم الذي جلس فيه ذلك الرجل العجوز في حجرة حقيرة على السطح وهو يرتجف. كان شاحب الوجه، تُحيط بعينيه الهالات، يرتدي الملابس الرثّة، وكان يُتمتم وهو يقضم كِسرة يابسة من الخبز:

"لعن الله جميع النعم الدنيوية، فهي ليست سوى أكاذيب، أكاذيب ذات مظهر خادع. ليست سوى أشياء زائفة يُخدع بها البشر. هذه ليست بالنعم وإنما هي أشياء فانية. ليست المتعة، والحب، والشهرة، والثروة سوى أسماء وهمية للحقائق الأبدية التي هي: الألم، الحزن، العار، والفقر... كانت تلك الجنيّة على حقّ، لم يكن لديها سوى شيء واحد له قيمة حقيقية. شيء واحد لا يُقدّر بثمن. كم أجد الآن جميع الأمور الأخرى رخيصة وحقيرة بالمقارنة مع تلك الحقيقة الوحيدة الجديرة بالإكبار، تلك النعمة الثمينة، الجميلة، الطيّبة التي تجعل كل ما يُعانيه المرء من الآلام التي تنهك الجسم، ومن الخزي والحزن اللذين يأكلان الذهن والقلب، تنغمس جميعها في نوم هادئ دون أحلام ودون معاناة. امنحيه لي فقد تعبت، وبذلك سوف أستريح"،

عادت الجنيّة مرّة أخرى، لكنها لم تكن تحمل معها سوى أربع من تلك العطايا. لكن ما يريده كان الموت. قالت الجنيّة:

"لقد منحته لطفل صغير... كان ذلك الطفل جاهلًا إلا أنه وثق بي، وطلب مني أن أختار له، لكنك لم تطلب مني أن اختار لك"..

حينئذ قال الرجل العجوز:

"آه... يا لتعاستي فما الذي تبقى لي هنا؟"

أجابت الجنيّة:

"ما تبقى لك هو الشيء الوحيد الذي حتى أنك لا تستحقه: (إنه الازدراء الذي لا يرحم سن الشيخوخة)".

على بعد ستة أقدام من الريف

Six feet of the country

للكاتبة نادين غورديمر

في الواقع لست أنا ولا حتى زوجتي ليريس من المزارعين، ولم نكن قد اشترينا منزلنا الذي يقع على بعد عشرة أميال من أحد الطرق الرئيسية خارج مدينة جوهانسبورغ بهدف إدخال بعض التغيير في حياتنا.

ففي زواج مثل زواجنا عندما يحاول المرء أن يُرسّخ زواجه، يتوق إلى عدم سماع شيء سوى الصمت العميق المريح.

الحقيقة أن تلك المزرعة لم يكن لها بالطبع أثرها في تحقيق هذا الغرض، لكن عدّة أمور أخرى كانت قد نتجت عن ذلك، أمور غير مُتوقعة وغير منطقية.

كانت ليريس، التي اعتقدت بأنها سوف تنعزل هناك لفترة شهر أو شهرين بحزن تشيكوفيان، وبأنها بعد ذلك سوف تترك المكان للخدم لكي تحاول من جديد الحصول على الدور المسرحي الذي رغبت به بأن تصبح الممثلة التي تريد أن تكونها، كانت ليريس بالذات قد انهمكت في إدارة المزرعة بذات المثابرة والجديّة التي كانت قد تشرّبت بهما ذات مرّة بخيال الكاتب المسرحي.

أما بالنسبة إليّ فكنت سأتخلى عن كل ذلك من زمن طويل لو لم يكن ذلك لأجلها.

أصبحت يدا ليريس الصغيرتان الناعمتان اللتان كانت تعتني بهما ذات مظهر خشن أشبه بقوائم الكلاب.

كنت بالطبع أتواجد هناك كل مساء وخلال عطل نهاية الأسبوع فقط، فأنا شريك في وكالة سفريات مُترَفة، يجب أن تكون أعمالها مُزدهرة، فهذا ما كنت أقوله لليريس لكي تتولى أمور المزرعة.

على الرغم من أنني كنت أعلم بأنه لن يكون بإمكاننا أن نحتمل ذلك.

لكن على الرغم من أن الرائحة الكريهة جدًّا للطيور التي كانت تُربّيها ليريس كانت تُشعرني بالغثيان، ما كان يجعلني أتفادى المرور بجانبها، فقد كانت تلك المزرعة جميلة.

كنت قد استيقظت صباح الأحد وذهبت إلى الحقل الصغير لكن ليس لكي أشاهد أشجار النخيل وحوض الأسماك وحوض استحمام الطيور المصنوع من الحصى، وإنما لكي أشاهد البطّ الأبيض على السدّ، وحقل الفِصّة الرائع الشبيه بالعشب الذي يتم تزيين النوافذ به، ولكي أشاهد الثور الصغير المُمتلئ ذا العينين الصغيرتين، الضَّجِر الذي تلعق إحدى زوجاته وجهه برفق. كانت ليريس تأتي إلى هناك حتى بدون أن تكون قد مشطت شعرها، بيدها عصا وتقف حالمةً للحظة بذات الطريقة التي كانت تظهر بها أحيانًا في مسرحياتها.

كما كنت عندما نستقبل بعض الزوار بعد ظهر الأحد أكاد أجد نفسي أقول وأنا أقدّم إليهم المشروبات:

"عندما أعود يوميًّا من المدينة إلى هذا المنزل وأمرّ بصفوف منازل الضواحي، أتساءل كيف كان بإمكاننا أن نحتملها"

ثم أسألهم: "هل تودون التجوّل حول المكان؟"

كنت أصطحب إحدى الفتيات الجميلات وزوجها الشاب إلى ضفة النهر ونحن نتعثّر، وكانت الفتاة وهي تطأ بقدميها أوساخ البقر التي تطير فوقها الذبابات الخضراء تقول:

"ما أسوأ ضغوطات المدينة اللعينة! كما أنكم هنا أيضًا على مسافة قريبة من المدينة، بحيث بإمكانكم الذهاب إليها حتى لمشاهدة إحدى المسرحيات والعودة بذات اليوم!... هذا رائع بالفعل! لأنكم حصلتم بذلك على الاتجاهين في أسلوب العيش!"

وكنت للحظة أتقبّل ذلك الانتصار، كما لو أنني كنت قد تدبّرت ذلك، وكما لو أنه الشيء المستحيل الذي كنت بالفعل قد سعيت لتحقيقه طوال حياتي، وكما لو أن الحقيقة هي أن يكون بإمكانك الحصول على (اتجاهين) في العيش، بدلًا من أن تجد نفسك حتى بدون أي اتجاه أو باتجاه آخر، ولكن في اتجاه ثالث لم تكن قد هيأت نفسك له على الإطلاق.

ولكن، حتى في أوقاتنا الجنونية، عندما كنت أجد في حماس ليريس للزراعة ما يدعو للتوتر، كما كنت قد وجدت ذلك سابقًا في اهتماماتها التاريخية. وحتى عندما كانت تجد أن ذلك بسبب (غيرتي) من قدرتها على الشعور بالحماس لهذا العمل، وبأن ذلك بمثابة الإثبات القوي، وأكثر من أي وقت مضى، على عدم توافقي معها كزوج، إلا أننا كنا مع ذلك نؤمن بصدق بأننا قد تخلّصنا من ضغوطات المدينة التي كان

يتحدث عنها ضيوفنا. فعندما يتحدث الناس في جوهانسبورغ عن (الضغوطات)، فهم لا يقصدون بذلك التحدث فقط عن تدافع الناس في الطرقات المزدحمة، ولا عن كفاحهم في سبيل الحصول على المال، ولا عن الشكل التنافسيّ العام لحياة المدينة، وإنما هم يقصدون بذلك البنادق المَخفية تحت وسائد الرجال البيض، وقضبان الحماية من اللصوص على نوافذ الرجال البيض، ويقصدون الإشارة إلى تلك الأوقات الغربية التي لم يعد فيها الرجل الأسود يقف جانبًا على أرصفة الأزقّة لكي يتيح المجال لمرور الرجل الأبيض.

الحياة خارج المدينة، حتّى لو كان ذلك على بُعد عشرةِ أميالٍ، أفضل من الحياة في المدينة. فلا تزال هناك في الريف بقيّةٌ مما سبق تلك المرحلة الانتقالية التي كانت فيها علاقتنا بالسّود شبه إقطاعية. وهو كما أعتقد أسلوبٌ خاطئ، ومُبتذل، على الرغم من أنه كان أسلوب التعامل المريح بالنسبة لكل من حولنا.

لم تكن لدينا أية حواجز تمنع السرقات ولا أية بنادق. كان خدم ليريس يعيشون هم وزوجاتهم وأولادهم على تلك الأرض، كانوا يُخمرون البيرة الحامضة الخاصة بهم دون خوفٍ من غارات الشرطة، وكنّا في الواقع نفخر دومًا بعدم وجود ما قد يخشاه هؤلاء الخدم ماداموا معنا، حتى أن ليريس كانت ترعى أطفالهم بكفاءة المرأة التي لم ترزق أبدًا بطفل لها، وكانت بالتأكيد تقدم إليهم جميعاً الرعاية الطبيّة، سواء أكانوا من الأطفال أو من الراشدين، كما لو كانوا صغار السن.

لهذا السبب لم نكن قد أصبنا بالفزع بشكل عندما جاء إلينا الخادم ألبير ذات ليلة في الشتاء الماضي بعد ذهابنا إلى فراشنا بوقت طويل وقرع على نافذتنا. لم أكن في سريرنا وإنما في غرفة الغسيل المجاورة لغرفة الجلوس، ذلك لأن ليريس كانت قد ضايقتني.

كانت ليريس قد أيقظتني. وقالت:

"يقول ألبير، بأن أحد الخدم مريض جدًّا... أعتقد بأن عليك أن تأتي معي إلى الأسفل لكي ترى ما الأمر. لم يكن سيوقظنا في هذه الساعة دون سبب"

وكنت قد سألتها: "ما هي الساعة الآن؟"

وأجابت ليريس، فهي منطقية بشكل يُثير الجنون:

"وما أهمية ذلك؟"

كنت قد نهضت بضيق وخرجت وأنا بثياب النوم.

سألت ألبير وأنا أتبعه على ضوء المصباح:

"من المريض من الخدم؟"
وأجاب: "سيدي، إنه مريض جدًّا، مريض للغاية"
سألته من جديد: "ولكن من؟ هل هو فرانز؟"
كنت قد تذكرت بأن فرانز كان مصابًا بسعال شديد خلال الأسبوع الماضي.
لم يكن قد أجابني وكان يقودني إلى الطريق وهو يمشي بجانبي على العشب الطويل الذابل. كنت عندما لمحت وجهه في ضوء المصباح قد أدركت بأنه كان يشعر بالحرج، وسألته:
"ما الأمر؟"
طأطأ رأسه تحت وميض الضوء وقال:
"لست أنا سيدي. لست أدري... بتروس هو الذي أرسلني إليك"
كنت قد أسرعت معه إلى الكوخ وأنا في غاية التوتر حيث رأيت هناك على هيكل سرير بتروس الحديدي المُستند على ركائز من القرميد، شاهدت شابًّا ميتًا مُمدّدًا على السرير بدون حيلة لا تزال على جبينه قطرات من العرق البارد، كان جسده لا يزال دافئًا وقد التف الرجال حوله، أسوة بما كانوا يفعلونه في المطبخ عندما يُكتشف أن هناك من كسر أحد الأطباق. كانوا يبدون بدون حيلة، يسودهم الصمت، وكانت زوجة أحدهم واقفة في الظلُ وهي تعتصر يديها تحت مئزرها.
لم أكن قد رأيت رجلًا ميتًا منذ الحرب لكن ذلك كان مختلفًا، كنت قد شعرت مثل الآخرين، بأنني عديم النفع وبأنني كنت دخيلًا عليهم، سألت: "ما الأمر؟"
كانت المرأة قد ضربت على صدرها وهزّت رأسها للتعبير عن استحالة التنفس.
كان على ما يبدو قد توفي بسبب التهاب في الرئة.
وكنت قد استدرت إلى بتروس وسألته: "من كان هذا الفتى؟ وما الذي كان يفعله هنا؟"
وكان بإمكاني أن أرى على ضوء المصباح الذي كان على الأرض بأن بتروس كان يبكي. خرجت من الباب وكان قد تبعني.
كنت عندما أصبحنا في الخارج وفي الظلام قد انتظرت أن يتكلم لكنه لم يكن قد فعل ذلك. قلت له:
"والآن بتروس، هيا، يجب أن تُعلمني من كان هذا الفتى، هل كان من أصدقائك؟"
أجاب: "هو شقيقي، سيدي، جاء من روديسيا للبحث عن عمل"
كانت قصة قدومه قد روعتني قليلًا وكذلك الأمر بالنسبة إلى ليريس.

كان الفتى قد مشى من روديسيا للبحث عن عمل في جوهانسبورغ، وقد أصيب بنزلة برد بسبب نومه في الخارج طوال الطريق، وبذلك كان بعد وصوله بثلاثة أيام قد استلقى مريضًا في كوخ شقيقه بتروس. كان خدمنا قد خافوا لذلك لم يكونوا قد يطلبوا منا مساعدته، لأنه لم يكن في نيتهم أن يعلمونا بوجوده على الإطلاق، ذلك لأن هناك حظر على دخول المواطنين الرودسيين إلى دول الاتحاد الأمريكي ما لم يكن لديهم إذن دخول وكان ذلك الشاب من المهاجرين غير الشرعيين.

يبدو أنه لا مجال للشكّ أن خدمنا كانوا قد نجحوا عدة مرات سابقاً في تدبّر مثل هذا الأمر، ولابد أن عددًا آخر من الأقرباء كانوا قد اجتازوا السبعمائة أو الثمانمائة ميل مشيًا على الأقدام، هربًا من الفقر الذي يعيشون فيه إلى هذه الجنة من البِذل الرجالية، ومن غارات الشرطة، إلى مناطق الأحياء الفقيرة التي كانت بالنسبة إليهم مدينة الذهب -وهو الاسم الذي يُطلقه سكان البانتوي على جوهانسبورغ-.

كل ما في الأمر أنه كان على الرجل أن يظلّ مختبئًا في مزرعتنا إلى أن يعثر على عمل لدى شخص قد يسرّه الاستفادة من خدمات مهاجر غير شرعي لم تفسده المدينة بعد، رغم مجازفته بالتعرّض إلى الملاحقة القضائية، لاستخدامه شخصًا لم تلوّثه المدينة بعد.

"حسنًا! كان الفتى الذي لن ينهض من فراشه ثانية، هو أحد هؤلاء".

كانت ليريس قد قالت لي صباح اليوم التالي:

"سوف تعتقد بأنهم شعروا بأنه كان بإمكانهم أن يعلمونا عندما كان الرجل مريضًا. سوف تعتقد على الأقل".

كانت ليريس، عندما تتوتر من أمر ما، تقف في منتصف الغرفة كما يفعل الأشخاص الذين هم على وشك السفر، وهي تُلقي نظرة ثاقبة على الأشياء الأكثر ألفة بالنسبة إليها، كما لو أنها لم تكن قد رأتها من قبل. كما كنت قد لاحظت سابقًا، بأنها عندما شاهدت بتروس في المطبخ، كانت تبدو تقريبًا كأنها مستاءة منه، وحتى أنها كانت تبدو كأنها مجروحة الشعور. على كافة الأحوال، لم يكن لدي في الحقيقة لا الوقت ولا الميل لبحث تلك الأمور العائلية التي كانت ليريس تحاول الخَوض فيها، وإن كنت قد فهمت رغبتها في ذلك من نظرة عينيها المُلحة التي تنذر بالخطر فهي امرأة لا تأبه إطلاقًا إن كانت ستبدو قبيحة أو غريبة الأطوار، وأعتقد بأنها لم تكن حتى لتهتم إن علمت كم كانت تبدو غريبة عندما يتغيّر شكل وجهها بأكمله، بسبب تلك النظرة التي تُعبّر عن الشك المُلحّ.

كنت قد قلت: "وأنا الآن كما أعتقد الشخص الذي يتوجب عليه القيام بكل هذا العمل القذر".
كانت لا تزال تُحدّق بي وهي تحاول استثارتي بتلك العينين... آه! لو كانت تعلم بأنها كانت تُضيع وقتها. كنت قد قلت بهدوء:
"علي أن أُعلم السلطات الصحيّة المختصة بذلك فليس بإمكانهم أن يقوموا بنقله في عربة وبدفنه فقط، كما أننا لا نعلم في الحقيقة ما هو سبب موته"
كانت ليريس ببساطة تقف هناك كما لو أنها تخلّت عن الأمر، وكأنها لم تعد تراني على الإطلاق.
لست أدري متى كنت بمثل ذلك القدر من التوتر.
قلت: "يعلم الله، ربما كان مرضه من الأمراض المُعدية"
لكن لم تكن هناك أية إجابة.
وبما أنني لست من النوع المُغرم بالتحدث مع نفسه، فقد خرجت لكي أنادي أحد الخدم وأطلب منه أن يفتح المرآب ويُخرج السيارة ويُجهّزها لذهابي إلى المدينة في صباح اليوم التالي.
كان الأمر قد تحولّ ذلك الأمر إلى قضية كما كنت قد توقعت. كان علي أن أعلم الشرطة والسلطات الطبية بذلك، وأن أجيب على العديد من الأسئلة المُضجرة:
كيف حدث أن لم أكن على عِلم بوجود الفتى.
لو كنت لا أشرف على من يعملون ويقيمون حولي، فكيف سيكون بإمكاني أن أعلم فيما إذا لم يكن الأمر يحدث طوال الوقت؟ إلخ. إلخ.
وكنت عندما ثار غضبي قد قلت لهم بأنه مادام هؤلاء المواطنون يؤدون العمل الموكل إليهم، فلست أعتقد بأن من حقي أو حتى أن من المفترض أن يكون من ضمن اهتماماتي أن احشر أنفي في حياتهم الخاصة، وكنت قد تلقيت من ذلك الشرطي الرقيب الجلف الغبي إحدى تلك النظرات التي لا تنمّ عن محاكمة عقلانية كانت تجري في ذهنه، وإنما تنم عن تلك الصفة المشتركة بين جميع من تُسيطر عليهم نظرية السيادة العرقية. تلك النظرة الجنونية الفارغة التي لا توحي بالثقة بما أقوله، وكان قد ابتسم ابتسامة عريضة ممزوجة بالاحتقار وبالسرور لما أبدو فيه من بلاهة.
كان علي بعد ذلك أن أشرح لبيتروس لِمَ سيكون على السلطات الطبية أن تنقل الجثة لكي تقوم بالإجراءات اللازمة لتشريحها، وماهو في الواقع تشريح الجثة.

وكنت عندما اتصلت بمديرية الصحة بعد بضعة أيام لمعرفة النتيجة، تم إعلامي بأن سبب الوفاة كان، كما توقعنا، الالتهاب الرئوي وبأنه قد تم دفن الفتى بالشكل المناسب.

كنت لدى عودتي إلى المنزل قد ذهبت إلى المكان الذي كان يمزج فيه بيتروس جريش الطيور، وأعلمته بأن الأمور قد تمت كما ينبغي، وبأنه لن يتعرض لأي إشكال، وبأن شقيقه قد توفي بسبب ذلك الألم في صدره. كان بيتروس قد وضع جانبًا علبة البارافين وسألني:

"سيدي، متى سوف يكون بإمكاننا الذهاب لإحضاره؟"

قلت باستغراب: "لإحضاره؟"

وكان قد عاود السؤال:

"سيدي، أرجو أن تسألهم متى يجب أن نذهب إليهم؟"

كنت قد عدت إلى الداخل وبدأت أنادي ليريس وأبحث عنها في كل أنحاء المنزل. وكنت عندما نزلت من غرفة النوم الإضافية في الأعلى قد قلت لها:

"ما الذي عليّ أن أفعله الآن؟ عندما أعلمت بيتروس بما تم، سألني فقط وبكل هدوء متى سيكون بإمكانهم الذهاب لإحضار الجثة، هم يعتقدون على ما يبدو بأنهم سوف يقومون بدفنه بأنفسهم؟"

قالت ليريس: "حسنًا، عليك إعلامه بذلك مرة أخرى، يجب أن تعلمه بذلك، لِمَ لمْ تُعلمه بذلك حينه؟"

وكنت عندما عثرت على بيتروس من جديد قد قلت له:

"بيتروس، ليس بإمكانك أن تذهب لإحضار جثة شقيقك، لأنهم قاموا بما يلزم، وقد واروه التراب، أتفهم؟"

وكان قد سألني بهدوء وفتور كما لو أنه كان يعتقد بأنه قد فهم خطأً ما قلته:

"أين؟"

أجبت: "كان غريبًا كما ترى، وقد علموا بأنه ليس من هذه المنطقة، لم يكونوا على علم بأن لديه بعض الأشخاص هنا، لذا فقد اعتقدوا بأن عليهم أن يدفنوه"...

كان بالطبع من العسير أن أجعل تأمين المدفن لشخص فقير مجهول يعتبر بمثابة منحه امتيازًا

قال بيتروس من جديد:

"أرجوك سيدي، يجب أن يسألهم السيد عن ذلك"

لكنه لم يكن يقصد معرفة المكان الذي تم الدفن فيه، وإنما كان قد تجاهل جميع لك التدابير غير المفهومة التي سبق وأعلمته بأنها قد تمت بالنسبة لشقيقه، وإنما كان ببساطة يريد استعادة شقيقه.

كنت قد قلت له: "لكن كيف سيكون بإمكاني ذلك؟ لقد تم دفن شقيقك وليس بإمكاني أن أطلب منهم ذلك الآن"

كان قد وقف وقد أسدل يديه المُلوثتين على جانبيه، قال وإحدى زوايا فمه ترتعش: "أووه... سيدي!"

قلت له مجددًا:

"يا الهي، بيتروس، لن يُصغوا إلي! ليس بإمكانهم القيام بذلك على كافة الأحوال... أنا آسف! ولكن ليس بإمكاني القيام بذلك، أتفهم؟"

استمر بيتروس بالنظر إلي. فلم يكن يعلم بأن لدى الرجال البيض كل شيء، وأن بإمكانهم أن يفعلوا كل شيء، وبأنهم إن لم يفعلوا الشيء، يكون ذلك لأنهم لن يفعلوه.

وكانت ليريس بعد ذلك بادرتني بالقول ونحن نتناول العشاء: "كان بإمكانك على الأقل أن تتصل بهم هاتفيًّا"

أجبتها: "بحق الله، ماذا تعتقدين؟ هل علي أن أعيد الميت إلى الحياة؟"

وإن لم يكن بإمكاني مع ذلك أن أبالغ في أسلوبي في التخلص من تلك المسؤولية التافهة التي أُقحمت بها. وكانت ليريس قد قالت من جديد:

"اتصل بهم هاتفيًّا، وبذلك سوف يكون بإمكانك أن تقول له بأنك كنت قد فعلت ذلك، وبأنهم أفهموك بأنه مستحيل"

ثم اختفت ليريس بعد تناولنا القهوة في مكان ما في المطبخ وعادت بعد قليل لكي تقول لي:

"سوف يأتي الوالد العجوز من روديسيا لكي يشارك في الجنازة، لقد حصل على الموافقة وهو حاليًّا في طريقه إلى هنا"...

مع الأسف، كان من المستحيل أن نستعيد الجثة فقد أعلمتنا السلطات المُختصة بأن الأمر مخالف للقوانين. لكنهم وافقوا على نبش التربة مادامت كافة الإجراءات الصحية قد تمت. ثم تبيّن لنا بعد ذلك، بأن تكاليف نبش الجثة، بالإضافة إلى أتعاب الحانوتي، سوف تصل إلى العشرين جنيهًا. كنت قد اعتقدت بأن الموضوع سوف يُسوى هكذا، وبأنه لن يكون بإمكان بيتروس أن يطلب ذلك، مادام ما يحصل عليه

من أجر لا يتجاوز الخمسة جنيهات شهريًّا، ووجدت بأن هذا من الأفضل لأنه لن يفيد الميت بأي شيء. كما أنني بالتأكيد لن أعرض على بيتروس دفع العشرين جنيهًا أو غير ذلك فهذا ما أعتبره منافيًا للعقل. كنت على استعداد لإنفاق مثل ذلك المبلغ برحابة صدر، لو كان ذلك لأجل الأطباء أو على الأدوية التي ربما كانت ستفيد الفتى عندما كان على قيد الحياة، ولكن بما أن الفتى قد توفي الآن فلم يكن في نيتي تشجيع بيتروس على المبادرة برمي مثل هذا المبلغ الذي يفوق ما قد ينفقه على كساء العائلة بكاملها ولمدة عام كامل.

وعندما أعلمته بذلك في تلك الليلة ونحن في المطبخ قال باستغراب: "عشرون جنيهًا؟"

أجبت: "نعم، هذا صحيح، عشرون جنيهًا".

وكنت قد شعرت للحظة من النظرة التي ارتسمت على وجهه بأنه كان يقوم بحساب المبلغ، وعندما تكلم من جديد اعتقدت بأنني كنت فقط أتخيّل ما كان يقوله لي.

كان قد قال لي بذلك الصوت الحالم البعيد التي يتحدث به الشخص عن أمر بعيد المنال، لكنه أيضًا وبذات الوقت من الأمور غير القابلة لإمعان التفكير بها:

"يجب أن ندفع العشرين جنيهًا"

قلت: "لا بأس بيتروس"، وعدت إلى غرفة الجلوس.

وكان بيتروس في اليوم التالي قد طلب مقابلتي قبل ذهابي إلى المدينة وقال وهو يناولني بارتباك رزمة من الأوراق المالية:

"تفضل سيدي، أرجوك".

نادرًا ما كان أولئك الخدم البؤساء الطرف الذي يُعطي المال بدلًا من أن يكونوا الطرف الذي يأخذ المال، حتى أنهم لا يعرفون كيف يناولون الرجل الأبيض النقود. كان ذلك هو المبلغ المطلوب، وكان يتألف من قطع صغيرة من فئة الجنيه الواحد ومن النصف جنيه. كان بعض تلك الأوراق قد طويَ وتغضّن إلى أن أصبح أملس أشبه بالبُسْط الرثّة، وكان البعض الآخر من القطع المَلسة والجديدة تمامًا كانت تلك النقود كما أعتقد نقود فرانز وألبير والطاهية دورا والحدائقي يعقوب، ويعلم الله نقود من أيضًا ممن يعملون في جميع المزارع والأراضي المُستأجرة الصغيرة التي كانت حولنا. كنت قد أخذتها منه وأنا أشعر بالغضب أكثر مما أصابني من دهشة. كنت قد شعرت بالفعل بالتوتر لهذا التبديد في المال، ولعدم جدوى تلك التضحية، وفكّرت

بأنهم، أسوةً بالفقراء في كل مكان، على استعداد لأن يحرموا أنفسهم من مُستلزمات الحياة الكريمة لكي يصونوا حرمة الموت. وهو ما كان من الصعب علينا أنا وليريس أن نتفهمه، ذلك لأننا كنا ننظر إلى الحياة على أنها الشيء الوحيد الذي يجب أن يتم الإنفاق عليه بتبذير، ولو صادف أن فكرنا بالموت، فكنا نعتبره الإفلاس الأخير.

على كافة الأحوال، لم يكن الخدم يعملون بعد ظهر يوم السبت، وبذلك كان ذلك هو اليوم المناسب لتشييع الجنازة. كان بيتروس ووالده قد استعارا منا عربة يجرّها حمار لكي يتم بواسطتها نقل التابوت من المدينة، وكان بيتروس قد أعلم ليريس بعد عودتهم بأن كل شيء على ما يرام. كان التابوت بانتظارهم هناك وقد تم ختمه بالشمع لكي يتم تجنيبهم ما قد يكون عليه المنظر البغيض للجثة التي مضى على دفنها مدة أسبوعين (فقد استغرق اتخاذ الإجراءات النهائية لنقل الجثمان كل ذلك الوقت، من السلطات المختصة والحانوتي.) ظلّ التابوت مّمددًا طوال الصباح في كوخ بيتروس، بانتظار الرحلة إلى المقبرة الصغيرة القديمة التي تقع تمامًا خارج المنطقة الشرقية لحدود مزرعتنا. كانت تلك المقبرة من الآثار المقدسة للأيام التي كانت فيها تلك المنطقة منطقة زراعية حقيقية، وليست قرية ريفية حديثة. كنت بمحض الصدفة بجانب السياج عندما مرّ الموكب، لأن ليريس كانت قد نسيت مرّة أخرى وعودها لي، وجعلت المنزل غير صالح للسكن بعد ظهيرة يوم السبت. كنت عندما عدت إلى المنزل قد شعرت بالكثير من الغيظ بأن أراها بشعر أشعث منذ الليلة الماضية، ترتدي ذلك البنطال الواسع القديم. كانت قد قامت بتلميع الأرضية الكاملة لغرفة الجلوس، لذا كنت قد تناولت مضرب الغولف وخرجت لكي أتدّرب على الجولة المقبلة. وكنت لشدة ضيقي قد نسيت تمامًا موضوع التشييع وكنت قد تذكرت ذلك فقط عندما شاهدت الموكب قادمًا نحوي من جانب السياج. حيث بإمكان المرء، من المكان الذي كنت أقف فيه، أن يشاهد القبور بوضوح، وكانت الشمس تسطع في ذلك اليوم على قطع الفخار المُحطمة وعلى صليب مائل من صنع محلّي، وعلى بعض الأواني المُحطّمة التي تحتوي على مياه الأمطار والزهور الذابلة.

كنت قد شعرت ببعض الارتباك، ولم أكن أعلم فيما إذا كان عليّ أن استمر في ضرب كرة الغولف أو أن أتوقف على الأقلّ إلى أن يمرّ ذلك الحشد من المُشيعين بشكل لائق. كانت عجلات العربة أثناء تقدمها في السير تُصدر صريرًا وقرقعة، وكانت تتقدم ببطء، ثم تتوقف بطريقة تتناسب نوعًا ما مع حركة الحمارين اللذين يسحبانها وقد أخفضا رأسيهما إلى عريش العربة، واتجهت آذانهما إلى الخلف باكتئاب وخنوع

مما يتلاءم تمامًا مع حشد الرجال والنساء الذين كانوا يسيرون ببطء وراء ذلك النعش.

كنت وأنا أرقبهم أفكّر بذلك الحمار الصبور فبإمكانك أن تفهم الآن السبب الذي جعل من ذلك المخلوق رمزًا مقدسًا. ثم اقترب الموكب مني وتوقف، وبذلك كان عليّ أن أضع جانبًا مضرب الكرة. تم إنزال التابوت من العربة ثم حمل كل من بيتروس وفرانز وألبير والأب العجوز القادم من روديسيا النعش على أكتافهم وتابعوا سيرهم على الأقدام. كانت تلك اللحظة مربكة بالفعل بالنسبة إلي، لذا وقفت بكل سكون بجانب السياج وأنا أبدو بالأحرى كالأبله. كانوا قد مروا إلى جانبي ببطء دون أن يرفعوا رؤوسهم، ثم انحنى الرجال الأربعة وكذلك حشد المشيعين، نحو الصندوق الخشبي. كان الجميع هنا خدمنا وخدم القاطنين في الجوار ممن كنت قد رأيتهم بشكل عرضي عندما كانوا يمرون دون استعجال بجانب أرضنا أو مطبخنا. ثم سمعت الرجل العجوز يلهث فجأة. كنت قد انحنيت للتو لكي ألتقط ثانية كرة المضرب، عندما صدر عن الحشد، من خلال ذلك الوقار المُتدفق لجو الموكب، صوت يشبه الارتجاج. كنت قد أحسست للتو كأن لفحة من الحرارة قد سَرت في الجو، كانت أشبه بتيار بارد يصيب المرء في جدول هادئ. كان الرجل العجوز قد همس بشيء جعل الجميع يتوقفون وقد أصابتهم الحيرة، ثم بدأ كل منهم يصطدم بالآخر، كان البعض يُطالب بالاستمرار في السير، بينما كان البعض الآخر يحضّ الآخرين على الهدوء. كان بإمكاني أن أرى بوضوح بأنهم كانوا في حالة من الارتباك الشديد، فلم يكن بإمكانهم تجاهل صوت العجوز، فقد كان صوته شبيهًا تمامًا بتمتمة أحد الرُسل، وعلى الرغم من أن ما يقوله لم يكن واضحًا في البداية، إلا أن من شأنه أن يشلّ الذهن. كان التابوت قد بدأ يتقلقل في الزاوية التي كان يحملها الرجل العجوز الذي كان يبدو وكأنه يحاول الخروج من تحت الثقل. ثم بدأ بيتروس يُعنّفه.

وكان ترك الولد الصغير الذي كان هناك للإمساك بالحمير، اللجام وركض لكي يشاهد ما يحدث، ولست أدري لماذا -ما لم يكن ذلك لذات السبب الذي يتجمهر بسببه الناس حول شخص يُغمى عليه في دار عرض سينمائية - لكنني كنت مع ذلك فتحت باب السياج وخرجت إلى الطريق خلف الفتى. كان الرجل العجوز الذي قدِم من روديسيا قد ترك التابوت يفلت تمامًا من يده، ولم يعد بإمكان الثلاثة الآخرين أن يحملوا ذلك الثقل، لذا وضعوا التابوت على أرض الطريق. لم أكن قد

فهمت ما كان يقوله ذلك الرجل العجوز وكنت قد ترددت بأن أدخل بالأمر، إلا أن جميع من كانوا في ذلك الحشد الهائج كانوا قد لاذوا بالصمت.

ثم جاء الرجل العجوز بنفسه إليّ بيدين مفتوحتين مرتجفتين وبدأ يتحدث إليّ مباشرة بشيء فهمته من لهجة صوته، على الرغم من عدم فهمي للكلمات، كان يقول بأن ما يحدث شيء رهيب وغير مألوف.

وكنت قد احتكمت إلى بيتروس وسألته: "ما الأمر؟ ما هو الخطأ؟"

وكان بيتروس قد رفع يديه إلى الأعلى وبدأ يهزّ رأسه بشكل متتالٍ بطريقة هستيرية، ثم توجّه إلي وقال فجأة: "إنه يقول لم يكن ابني ثقيل الوزن هكذا"

ساد صمتٌ مُطبق وكان بإمكاني أن أسمع أنفاس الرجل العجوز، الذي ظلّ فاغر الفم، كما يفعل الأشخاص المتقدمون في السن.

وكان قد قال أخيرًا بالإنكليزية:

"كان ابني شابًّا نحيلًا"

ساد الصمتٌ من جديد. ثم انفجر العجوز بالهذيان، وبدأ يتوعد الجميع، وكان يُحيط كل ما كان يتفوّه به من كلام بإطار خاص من الشرعية أو ربما لأنه كان على الأصحّ رمزًا للحكمة التقليدية للسن، وهي فكرة ترسّخت بشكل مُفزع ولا تزال تحمل شيئًا رهيبًا يفوق الإدراك.

أصابت الجميع الصدمة، واعتقدوا بأنه فقد عقله، لكن كان عليهم أن يُصغوا إليه.

ثم بدأ بنفسه ينزع بيديه الغطاء عن التابوت، وتقدم ثلاثة من الرجال لمساعدته.

ثم جلس على الأرض، عجوز للغاية، ضعيف للغاية، غير قادر على الكلام، قام فقط برفع يدٍ مرتجفة أشار بها نحو ما كان بداخل التابوت. ثم تخلى عن الأمر وسلمه إليهم، فلم تعد هناك فائدة منه.

التف الجميع حوله للنظر -وفعلت أنا أيضًا ذلك-، وكانوا قد نسوا في تلك اللحظة طبيعة المفاجأة ومناسبة الحزن الشديد التي ترتبط بها، فقد سيطرت عليهم لبضع دقائق دهشة المفاجأة ذاتها. بدأ الجميع يلهثون واتسع صوت الضجيج لشدة الهياج.

كان في ذلك التابوت أحد الأشخاص الذي لم يسبق لأحد أن رآه.

شخص كان على الأغلب قوي البنية، له تلك البشرة الفاتحة للمواطنين الأصليين، وكانت على جبينه ندبة تدل على خياطة جرح، ربما كان أو أنه على الأرجح كان قد أصيب به نتيجة شجار مع أحد الأشخاص، وكان ذلك ما تسبب في وفاته.

ثم قمت بعد ذلك، ولمدة أسبوع، بمراجعة السلطات المختصة للتحقّق من الجثة. كنت قد أحست بأنهم صُدموا من خطئهم، ولكن قليلًا، إلا أنهم لم يتمكنوا من تفسير الأمر بسبب الالتباس الذي حدث بالنسبة لذلك المتوفى غير المعروف.

كانوا قد قالوا لي: "نحن نحاول معرفة الحقيقة". و"نحن لا نزال نُجري التحقيقات". وكانوا يقولون ذلك كما لو أنهم سوف يرافقونني في أية لحظة إلى المشرحة لكي يقولوا لي: "ها هو المكان! ارفع الملاءات وابحث عن شقيق خادم الطيور الداجنة لديك، فهناك الكثير جدًّا من ذوي البشرة الداكنة، من المؤكد أن هذا سوف يفيدك؟"

وكنت في كل مساء عندما أعود إلى المنزل، أجد بيتروس بانتظاري في المطبخ، وأقول له: "حسنًا، هم يحاولون، لا زالوا يبحثون، السيد ينظر في الأمر لأجلك"

وكنت ذات ليلة قد قلت أضفت لزوجتي ليريس على انفراد:

"بحق الله، أنا أمضي نصف الوقت الذي علي أن أمضيه في المكتب، في ملاحقة هذا الأمر في المدينة!"

ظلّ كل من ليريس وبيتروس يحدّقان بي بعينيهما وأنا أتحدث، ومن المستغرب، أنهما في تلك اللحظات كانا يُشبهان بعضيهما، على الرغم من أن ذلك من المستحيل: زوجتي بجبينها العالي المُشرق وبالجسم النحيل لسيدة إنكليزية، وخادم الطيور بقدميه الحافيتين تحت بنطاله الكاكي المَطوي حتى الركبة بواسطة الخيوط، والذي تفوح من جلده رائحة التعرّق النتنة.

ثم قالت ليريس فجأة: "ما الذي يجعلك ساخطًا ومُتأكدًا إلى هذاالحدّ؟"

وكنت قد حدقت بها وقلت:

"إنها مسألة مبدأ. لِمَ سيكون عليهم أن يُفلتوا بتلك الخدعة دون عقاب؟ حان الوقت لأن يتلقى هؤلاء الموظفون صدمة من شخص يهتم بتجشم هذا العناء"

وكانت ليريس قد اكتفت بالصمت، بينما فتح بيتروس بهدوء باب المطبخ لكي يغادر، وهو يشعر بأن الحديث يفوق ما بإمكانه احتماله، كما كانت ليريس قد فعلت بعدذلك أيضًا.

وكنت قد استمريت في إعطاء العهود لبيتروس كل مساء، على الرغم من أنني كنت أردّد يوميًّا ما أقوله، وعلى الرغم من أن اللهجة التي كنت أتحدث بها كانت تبدو كل مساء أضعف وأضعف. إلى أن أصبح أخيرًا من الواضح أننا لن نتمكن من استعادة شقيق بيتروس، فلم يكن أحد يعلم أين كان. أهو في مكان ما في مقبرة رسمية؟ أم

في منطقة سكانية؟ أم أنه في مكان ما تحت رقم لا يعود إليه؟ أم في مشرحة كلية الطب؟ أو ربما كان قد تم تحويله إلى شرائح من العضلات وإلى خيوط من الأعصاب؟ الله وحده يعلم الحقيقة، فعلى كافة الأحوال لم تكن لديه هويّة في هذا العالم، وكان بيتروس في ذلك الوقت فقط قد طلب مني بصوت خجول أن أستردّ المبلغ المدفوع...

وكنت قد قلت لليريس لاحقًا:

"قد يعتقد المرء بهذه الطريقة التي طلب بها ذلك، بأنه يسرق شقيقه الميت"

لكن ليريس كانت قد توترت مما قلته إلى الحدّ الذي جعلها لا تتمكن حتى من أن تبتسم بسخرية.

كنت قد حاولت استعادة النقود، كما حاولت ليريس ذلك. قام كل منا بالاتصال هاتفيًّا، وبالكتابة إلى السلطات، وبجدالهم، لكن دون جدوى. كان يبدو بأن النفقة الأساسية كانت لأجل المحاولة وبأن الحانوتي كان قد قام بما عليه. وبذلك كان الموضوع بكامله عبارة عن تبديد كامل للمال، كما كان ذلك كما اعتقدت أكثر من تبديد للمال بالنسبة إلى أولئك الخدم البؤساء.

وبما أن الرجل العجوز الذي قَدم من روديسيا كان بذات حجم والد ليريس، فقد أعطته ليريس إحدى بذلات والدها القديمة، وبذلك كان قد عاد إلى موطنه أكثر استعدادًا للشتاء المقبل مما كان عليه عندما جاء إلينا.

عاهات الجسد وجمال الروح

Body deformity and beauty of soul

للكاتب تيموثي.ش. آرثر

من منا لم يلحظ وهو يمرّ بين حشود المارة في شوارع المدن، ذلك العدد الكبير من الأشخاص الذين لديهم عاهات أو تشوّهات جسدية؟

كم أشعر بألم يكاد ينفطر له قلبي وأنا أنظر إلى أولئك البؤساء المساكين الذين حُرموا من حقهم المشروع بالاستمتاع بما أنعم به الله تعالى عليّ بسخاء.

ها هو أحدهم، وقد يبدو الأكثر سوءًا وإيلامًا من الجميع وهو يَتلمّس طريقه في الظلام مُمسكًا بيد طفلته الصغيرة. وها هو رجل آخر كان قد فَقِد أحد ذراعيه، يحاول أن يشقّ طريقه بكل صعوبة. وهناك إلى أبعد من ذلك في مكان منعزل شخص مُشوّه إلى حدّ كبير جعله إحساسه بالعجز يبتعد عن الظهور في الشوارع المزدحمة، وهناك أيضًا ذلك الشخص المشلول العديم الحيلة تمامًا الذي يجلس في عربة صغيرة يجرّها طفل.

ربما كان كل ما قد تُثيره مثل هذه المظاهر المختلفة من العاهات والتشوّهات في قلوب البعض، مجرد شعور بالرهبة أو بالشفقة، أو أنها قد تُثير أحيانًا، لدى البعض، الاشمئزاز وتجعلهم يُعرضون عن النظر إليها.

أما بالنسبة إليّ فهي تجعلني أشعر في كثير من الأحيان، بأنه لو كان بإمكان كل منا أن ينظر إلى ما في نفوس أولئك الأشخاص، لكانت فكرتنا عنهم مختلفة تمامًا.

ربما كان لذلك الأعمى البائس، الذي فقد بصره وأغلقت عيناه منذ فترة طويلة عن كل ما حوله في الكون من جمال وبهاء، بصيرة تجعل نور الله تعالى الطاهر يُنير روحه ويُشرق في أعماق نفسه.

وربما كان ذلك الرجل الذي يعرج الآن ببطء وبأسى على عكازيه اللذين يلامس بهما الطريق الضيقة بحذر، سوف يمشي عندما ستنتهي رحلة حياته في سهل ظليل أخضر دون أن يخشى أية شرور، وسوف يقول للأشخاص الذين كانوا يأسفون

لوضعه في رحلة الحياة، بأن الشخص الذي حرمته عاهته من السير في الطريق العام قد أصبح يمشي الآن بين الملائكة وهو بكامل صحته.

وقد تصبح لذلك لشخص العديم الحيلة الذي تطعمه والدته الآن بيدها، المقدرة على أن يُحركّ بيده العالم ذلك لأن الله تعالى لا يتخلى عن العباد، ولأن الحقيقة المقدسة الأبدية هي أن الله تعالى لا يحكم على البشر، كما نفعل نحن، بالاستناد إلى مظهرهم الخارجي، ولكن إلى ما في داخلهم من خير والى طبيعة أرواحهم.

لذا لا أهمية لأن يكون المرء مشوّهًا، أو أن تكون له عاهة أو أن يكون فاقد النظر أو أن يكون فاقد النطق، إن كان يمتلك قلبًا طاهرًا نقيًّا. لأن كل كلمة وكل فكرة وكل عمل يقوم به سوف يصبح قربانا لله تعالى!

هذه هي الأمور التي لها أهميتها بما يُقدره الله لكل من مخلوقاته. لذا عليك يا أخي المؤمن أن تهتم بها، ولتعلم بأن قلب المرء قد يكون نقياً رغم ما قد يكون في جسده من تشويه ومن عجز وبأن تلك العاهات والعجز لن تدوم في الحياة الدنوية.

نصائح الجدّ

Grandfather advises

للكاتب تيموثي.ش. آرثر

كان الشعاع الذهبي لشمس الغروب يلمع على جبين ذلك الرجل العجوز الذي سُطّر عليه سبعون شتاء. كان جالسًا في الشرفة الواسعة لمنزله القديم. كانت نظرته هادئة صافية رغم السنوات التي كانت قد أطفأت بعض الشيء ما كان في عينيه من وميض نظرة الصقر، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة لطيفة تنبعث منها موسيقى الرضى من قلب لا زال يخفق بعنفوان الشباب ومن ذهن مُتفتح على الحياة.

كان حب الله يجعله يشكر الله على كل ما منّ به عليه من نعم، كما كان حبه لإخوته في الإنسانية يغمر نفسه النقية على الرغم من تقدمه بالسن.

رفع نظره إلى السماء اللازوردية وأخذ يفكر بالمستقبل ولا زال في قلبه اتقاد من أمل، ثم عاد إلى التفكير بالماضي ما جعل تعبير البهجة على ملامحه يتحوّل بالتدريج إلى استغراق كبير. كان قد بدأ يطوف بذهنه بالسنوات التي تركها وراء ظهره.

حدّث نفسه:

"أحمد الله على أنه لم يكن قد مرّ بي ولو عام واحد، منذ بلغت سن الشباب، دون أن أكون قد عشته لتحقيق أمر أفضل... كان عليّ في كثير من الأحيان أن أضحّي بحبي لذاتي في سبيل ما كرّست له حياتي أكثر من أي شيء آخر. وكنت قد عملت دومًا على أن أظلّ طاهرًا نقيًّا... أرجوك يا إلهي! أن تُنزل الآن السكينة على قلبي!"

وكانت الدموع قد ملأت عيني ذلك العجوز وهو يتوجه بهذا الابتهال إلى الله تعالى.

لكن تلك النظرة الدمثة الوديعة كانت قد عادت إلى ملامحه، عندما كان باب السياج قد فُتح على مصراعيه ودخل منه شاب في حوالي العشرين من عمره ما قطع على العجوز ما كان فيه من استغراق في التفكير.

اقترب الشاب من العجوز وكان بعد أن صافحه بحرارة قد جلس إلى جانبه وقال وهو يبتسم بحنان بالغ وبكل احترام:

"حسنًا يا جدّي، أعتقد بأنك اليوم قد بلغت سن السبعين. أليس كذلك؟ يوم ميلاد سعيد!"...

قال العجوز: "نعم بُني، وكنت الآن أستعرض ما مررّت به خلال تلك السنوات وعلى الرغم من أنني لا أعو د عادة إلى الماضي بندم، لكنني شعرت مع ذلك بأنه كان عليّ أن أتصرف بشكل أفضل بكثير. أعتقد بأنني لم أكن دومًا قد أحسنت الاستفادة من سنوات حياتي"

كان الشاب الذي كان يُصغي بكل احترام قد سأله فجأة باهتمام:

"جدّي! أرجو أن تُعلمني هل كان في سنوات حياتك عام كامل كنت قد وجدت خلاله السعادة التامة بحيث تتمنى الآن أن تعيشه من جديد...؟"

وكانت الإجابة" "لا شكّ أنني عشت من وقت لآخر فترات قصيرة من السعادة، لكن لم يكن هناك خلال سنوات حياتي الطوال أي عام أود أن أعيشه من جديد. كنت مُحاطًا بالكثير من الأصدقاء المخلصين الذين غادروا الحياة الآن، وكنت قد أحببت وحصلت على الكثير من الحب ولا زالت ذكرى ذلك الحب حتى الآن تُنعش قلبي وتُثير مشاعري... أنا أشكر الله تعالى لأنني عشت كل تلك السنوات، وبأنني كنت قد كافحت كثيرًا لأجل الحقيقة والصدق لكن ليس هناك أية معركة أرغب الآن بأن أخوضها من جديد على الرغم من أن كل منها كان قد تلاه شعور عميق بالرضى!"

أجابه رفيقه: "يبدو لي أن حياتك كانت كئيبة بعض الشيء يا جدّي لكن ما كنت أسألك عنه هو عمّا عشته من أيام سعيدة!"

وكان الشاب بعد فترة من الصمت قد أضاف باندفاع:

"بالنسبة إلي، فأنا لا أبالي بالحياة إن لم يكن بإمكاني أن أحصل على السعادة التامة التي أحلم بها، فما هي قيمة الحياة التي يعيشها آلاف الناس؟ لا شيء! أما أنا فليس بإمكاني أن أبحر برتابة في التيار، لذا فكلما استبد بي التفكير أكثر وأكثر كلما ازداد استيائي من كل شيء حولي. لِمَ توجد في نفس المرء دومًا تلك الرغبة العارمة بالسعادة مادام من النادر جدًّا أن يتمكن من الحصول عليها؟...

كانت طفولتي بهيجة لكن كان يحجبها أيضًا في كثير من الأحيان خيبات أمل أكبر من مقدرة الأطفال على احتمالها. لم أكن قد شعرت مطلقًا بالسعادة التي كنت أرغب الحصول عليها، منذ اللحظة التي أصبحت لدي فيها المقدرة على التفكير والتأمل. كنت أشعر بأن قلبي لم يكن يومًا قد امتلأ إلى الذروة بالبهجة، وبأنه

بإمكاني دومًا أن أتطلع إلى المزيد، وبذلك كان السؤال الذي يتوارد إلى ذهني بشكل لا إرادي:
(هل أنا سعيد بالفعل؟)، وكانت الإجابة التي تقفز إلى ذهني دومًا: "لا... أنا شاب وبصحة جيدة بإمكاني أن أعرف قيمة الجمال، وأن استمتع بالشعر، وأن أكتشف بهجة الموسيقى وأن أحلم، لكنني حتى وأنا في غمرة ذلك الحلم الساحر، كنت أشعر دومًا بأن هناك الكثير مما لا أزال أتوق إلى تحقيقه... ليس بإمكاني أن أخمد هذا الشعور بعدم الارتياح الذي يضغط علي، فأنا عندما أنظر حولي إلى الوجوه الشابة المُبتسمة المُشرقة بالسعادة والبهجة، أحاول الحصول على ما يجلب البهجة إلى نفسي لكنني نادرًا ما أوفّق، ولو حدث ذلك فسوف يكون عبارة عن شعور سطحي مؤقت...
لكنني كنت مع ذلك عندما عملت ذات مرة على تخفيف وطأة الهموم التي كانت تُثقل على مخلوقة بائسة تعيسة، قد شعرت بشيء من السلام يغمر قلبي لبعض الوقت ويملؤه بالكثير من السكينة، لكن تلك السكينة كانت قد زالت بسرعة وعاد ما كنت فيه من مرارة يُسيطر عليّ...
كنت قد بحثت عن الصداقة، وكنت لفترة من الزمن قد شعرت ببعض الراحة، لكنني لم أتمكن من منع نفسي من النظر باحتقار إلى أهداف رفاقي وهذا ما جعلني أخفق لأنني كنت قد وجدت الأنانية على شكل التعلّق وكنت قد التفت فوجدت حولي قلوب مخادعة!"
كان العجوز قد قال بكآبة وبالكثير من الحزن:
"ألفرد بُني! أنت تجعلني أشعر بالحزن، فهذه هي المرة الأولى التي أعلم فيها بأن قلبك تملؤه مثل هذه المرارة"
قال الشاب: "لو كنت أعلم بأنني سوف أتسبب لك بالحزن لما كنت سأحدّثك عما يعتري نفسي، لكن ما شجعني على التعبير عن أفكاري وعما يجول في نفسي دون شعور، هو لأنني أعلم بأنك بقلبك الطيب على استعداد للإصغاء إلى الآخرين. أنت رجل مرّت به سنوات طويلة ولديك من الخبرة في الحياة أكثر بكثير ممن هم في سنك. اعذرني جدّي فلن أتسبب لك بالحزن من جديد!".
وكان ألفرد عندما التفت إلى جده من جديد قد شعر بأن نظرة التعاطف التي بدت على وجهه قد غمرت نفسه بدفء المحبة.
قال العجوز الحكيم:

"من الجيّد أن يكون تفكير المرء عميقًا، لكن على المرء أن يفكر أيضًا بطريقة صحيحة. عليك ألا تنظر إلى العالم من الجوانب السلبية والمظلمة فقط في روحك لكيلا تتحول جميع الأشياء التي يقع نظرك عيها إلى لون قاتم. تناول شعلة الحقيقة والصدق والرحمة الإلهية لكي تبعد عن نفسك الظُلمة، وسوف تجد بأن الأمور سوف تتغير كثيرًا بنظرك. سوف تبدأ بالنظر إلى رفاقك بمشاعر جديدة وبأكثر من الاهتمام والتفهّم والإنصاف، فأنت لست سوى رجل عادي وبسيط واضح وصريح... ألفرد! أنت تعلم بأن كل ما أرغبه هو صالحك، لذا أتمنى أن تحتمل ما سأدلي به الآن من تعليقات ومن ملاحظات حتى وإن كنت ستجدها غير مُستساغة بعض الشيء"

أجاب الشاب: "بالتأكد جدّي. فأنا أقدّر الصراحة أكثر من المديح"

وبذلك تابع العجوز الحكيم حديثه بالقول:

"قد تقول بأنني لم أكن قطّ قد نعمت تماماً بالسعادة، وبأن ذلك ليس من المستغرب أو من غير المألوف لأنني لم أكن قد اجتمعت سوى بالقليل من الأشخاص الذين يتمتعون بعمق التفكير ممن هم في سنك الذين بإمكانهم القول، بعد الاستغراق بالتفكير، بأن بإمكان نفوسهم ألا تتطلع إلى أكثر مما مُنحوا ومما حصلوا عليه وبأن لديهم الكثير من القناعة... عليك أن تحاول التخلي عن هذا الاستسلام، ليس هناك بالطبع على الأرض أية نِعم دائمة، لكن بإمكان المرء أن يتمتع بالبعض منها لفترة من الزمن"

وكان الشاب قد سأله بتوتر:

"لِمَ يجب أن تكون المتعة عابرة وغير دائمة إلى هذا الحدّ؟"

أجاب العجوز:

"ليس العيب في كون المتعة سريعة الزوال ولكن العيب يكمُن في نفس المرء التي قد تكون في حالة من عدم الاستقرار، لذا يجب أن تتغيّر طبيعتها لكي يصبح بإمكانها أن تحصل على البهجة. فلو نظرنا إلى الكون فهل سيكون بإمكاننا أن نرى السماء مُشرقة على الدوام؟ هناك في السماء ضوء ساطع لكن هناك أيضًا في تكوينها عناصر لتكوين العواصف، ومع ذلك فإن السماء الصافية تُحّي من ينظر إليها".

قال الشاب:

"وكيف يمكن أن يحدث ذلك جدّي؟ وما الذي بإمكاني أن أفعله؟ فأنا بالتأكيد أرغب وأشعر بالسرور بأن أرى إخوتي في البشرية سعداء حتى لو كانت نفسي

مضطربة، لكنني تعبت من رغباتهم غير المُشبعة التي لا تنتهي، فهم يبحثون باستمرار عن شيء لم يسبق أن وقعت عليه العين، وقد يكون ذلك المجهول هو مع ذلك ما تهفو إليه نفوسهم إلى حدّ كبير، شيء قد لا يتحقق مطلقًا لكي يشفي ظمأهم، ما يجعلني أشعر بألم يضغط على صدري ويصيبها بما يُشبه ببرودة الموت"

وكان جدّه قد أجابه:

"بإمكان كل من أن يعثر على ما يبحث عنه لو أنه بحث عنه بالأسلوب الصحيح، لأن مجرد التلهّف إليه فقط لا يمكن أن يمنحنا السعادة التي قد تضيع وتذبل من الينبوع الذي تنبعث منه. لكن السؤال هو هل كنا نبحث عن السعادة بالطريقة الصحيحة. ألسنا بالأحرى نطلب المستحيل عندما نطلب السعادة الدائمة قبل أن نُهيء أنفسنا لها. أنت ترغب يا بُنيّ بأن تكون حياتك سهلة إلى حدّ بعيد. لذا فلستجمع كل طاقتك ولتنظر حولك بروح الحماس والتصميم ولتبحث عن تجديد وإصلاح كل حياتك. لتجعل هذا هدفك في الحياة ولتكن رغبتك وتطلعك إلى السعادة نابعين من ذلك، وسوف ترى بأنك سوف تُمسك بالسعادة كهدية دائمة في نهاية السعي وفي نهاية ذلك السباق... ما هي أهدافك وما هي طموحاتك؟ فأنت حتى لا تعرف ذلك تمامًا، أنت في سعي وفي ملاحقة لشيء أشبه بظلّ يضيع من أمامك، وهو ما يجعلك تجد بأن نفسك الضجرة تغرق... أنت تتطلع إلى هدف كبير يجعلك تترتفع إلى الأعلى بثبات وثقة من خلال ما يمكن أن يكون في الحياة من شرور. ابتعد عن حبك لذاتك أكثر ما بإمكانك وانظر إلى العالم بعين بشرية فأنت إنسان"

وكان ألفرد قد قاطعها بالقول:

"هذا مستحيل... مستحيل! وأنا أتحدى أي شخص يُعرض عن نفسه وينظر إلى العالم باهتمام أكبر من اهتمامه بنفسه. قد يكون المرء إنسانياً في مشاعره وقد يُكرس نفسه للتخفيف عن البؤساء والمساكين، لكنني أتمسك برأيي بأن من المستحيل ألا يكون حب البشر لأنفسهم في المرتبة الأولى. قد يدفعنا فجأة حافز أقوى لأن نفعل ذلك لبعض الوقت، لكن ذلك الحافز المفاجيء سوف يزول مع الوقت، وسوف ننظر لأنفسنا من جديد. وباختصار سوف نجد بأننا بكل ما فعلناه قد أفقدنا توازننا.

"أنا أعبّر عما أعقده بكل صدق وهذا ما يؤمن به الآلاف في سنّي حتى عندما يدافعون عن وجهة نظر مُناقضة تمامًا، فليست هناك أية صراحة في هذا العالم!"

قال جدّه وهو يبتسم بلطف:

"مهلًا... مهلًا... يا صديقي، أنا أيضًا أتمسك برأيي بأن من المستحيل أن يكون بإمكان المرء أن يخسر حبه لذاته واهتمامه بنفسه، لكنني أؤمن بذات الوقت بأن بإمكاننا أن نحب الآخرين. لست أقصد بذلك الإشارة بشكل محدد إلى شخص واحد أو اثنين قد نُعجب بهم لكنني أتحدث عن إخوتنا في الإنسانية بشكل عام"

وأجاب الشاب وهو يهزّ رأسه:

"ليس بإمكاني حتى أن أتفهم مثل هذا الحب! ليس بإمكاني أن أفهم كيف بإمكاني أن أحب شخصًا لا يمتلك أية خصال حميدة، فأنا أشعر دومًا بعدم المبالاة تجاه مثل أولئك الأشخاص إن لم يكن ذلك أيضًا ببعض بالنفور... أعتقد بأن بإمكاني أن أكرّس أو أن أضحي بحياتي لأجل شخص أحبه لو حدث أن تعرّض لخطر كبير مفاجيء، ومع ذلك فأنا أعتقد بأن بإمكاني أيضاً أن أتسبب بالألم لذات الشخص لكي أرضي نفسي. على سبيل المثال: لنفترض يا جّدي بأنه قد تم اقتيادك إلى وتد لكي يتم حرقك، فهل سآخذ مكانك لكي أنقذك؟ لا... لكنني مع ذلك سوف أفعل كل ما بإمكاني لكي أجعلك سعيدًا، فأنا بذلك أشبع أيضًا ما في نفسي من عاطفة تجاهك، وعلى سبيل المثال أيضًا أنا حاليًّا أمضي ساعات الدراسة في الغابات أو إلى جانب الغدير لأنني أعلم تمامًا بأنه سوف يسرّك أن تراني أعتكف على دراسة اللغة اللاتينية أو اللغة اليونانية"

أجابه جدّه وهو يتنهد:

"هذا صحيح تمامًا... وأنت بذلك تثبت بأن حبك لذاتك هو الحب الذي يتحكم بمشاعرك"، وكان ألفرد قد رفع حاجبيه كما لو أنه قد سمع شيئًا غير مرغوب به – فنحن دومًا لسنا على استعداد للاعتراف بالأمور التي لا نحب أن تكون فينا- ثم استغرق في تفكير عميق وقال أخيرًا:

"من المُتعارف عليه في هذا العالم بأن الفضيلة مُحببة وأن من يعملون بها يبدون هادئين مُطمئنين ومُستسلمين، كما أنهم في كثير من الأحيان يبدون سعداء تمامًا، لكن لو أردنا الحقيقة، فإن مثل تلك السعادة تبدو بالأحرى سطحية وتافهة تعوزها الحرارة، وأنا أرغب بأن تكون لدي كامل الحرية كي أتمكن من الابتعاد عن النزوات التي تشدّني بإرادتي، وبأن أحب وأن أكره كما يدعوني قلبي، فأنا أنبذ كل أي نوع من أنواع الكبح والضغط"

قال جدّه: "بُني! لكن عليك أن تخضع لما عليك من التزامات حتى بدون أن تُفرض عليك"

سأله الشاب: "ما هو نوع تلك الالتزامات التي تقصدها؟"

قال جدّه: "التزامك بما يفرضه عليك المجتمع. عليك أن تنحني إلى حدّ ما للرأي العام. عليك في كثير من الأحيان أن تتجنب التصرفات التي قد تنجم عن ثورة الغضب، وأن تتجنب ردّات الفعل الغاضبة بشكل عام، وهذا ليس لأنك لا تميل إليها ولكن لأن المجتمع لن يتقبلّها. أليس هذا هو الوضع أحيانًا"...

لم يكن الفرد قد استساغ كثيرًا ما قاله جدّه، لكنه كان ساذجًا صادقًا ما جعله لا يتمكن من أن يُخفي ما في نفسه من دوافع. لذا أجاب بكلمة: (نعم)، لكنه كان قد تفوّه بها دون اقتناع شخصي بذلك.

ثم تابع الجدّ العجوز حديثه بالقول:

"هل تعتقد بأن محاولة الشخص التغلب والسيطرة على ما لديه من نزعات ومن نزوات قد يحطّ من قيمته؟"

أجاب الشاب: "ليس في هذا ما يحطّ من قيمته بالتأكيد، بل إنه أمر يستحق أعلى مستوى من التقدير، وهو أمر يتصفّ بالنبالة! وأنا أقرّ بذلك!"

قال الجدّ: "وأنت مع ذلك لاتجد الكثير من المتعة التي سوف تنجم عن هذا الترويض للذات"

قال الشاب: "أستميحك العذر جدّي. فأنا عندما تحدثت عن الفضيلة كنت أشير بذلك إلى النوع اللطيف الذي يبدو سلبيًّا أكثر من كونه إيجابيًّا، ذلك النوع من اللطف والرقّة التي تبدو كأنها تُخمد الحماس وتُغلق النفس على مجموعة من الآراء بدلًا من أن تجعلها تتسع لكل ما هو نبيل وشهم في أي مكان وجدت فيه"

قال جدّه: "فإذن، لم يكن ما أشرت إليه بالفضيلة هو الميزة الحقيقية وإنما كان بما يُشبه ذلك"

قال الشاب: "هذا لو كان ذلك يعتبر من الفضيلة، لكن لو عدنا إلى النقطة الرئيسية يا جدّي وهي كيف سوف يجد المرء السعادة لو كان عليه أن يُناضل طوال حياته وأن يُدقّق في كل نبضة طبيعية في حياته؟"

قال جدّه: "توقف هنا ألفرد! نحن نُخمد ونقمع فقط التيارات التي تمنع عنا المشاعر النبيلة والسعيدة ومصادر الخير والنقاء في نفوسنا والتي تمنعها من التفجّر دون قيود. صحيح أن علينا أن نكافح باستمرار فلم لا نقرّ بذلك؟ لكن هذا

لا يستمر إلى الأبد فلابد أن تكون هناك أوقات من البهجة تُنعش حياتنا. بهجة من نوع رفيع. بهجة بريئة براءة الطفولة. بهجة أشبه بالبهجة التي تغمر نفس المجاهد في ساعات الراحة والسكينة بحيث تجعله يرفع نظره إلى السماء والى الله تعالى ويشكره على ما أنعم به عليه".

كان ألفرد في ذلك الوقت يُمعن النظر بالطلعة النبيلة البهية للمتحدث. امتلأ قلبه بانفعال لم يعلم ما كُنهه. كانت الابتسامة الملائكية للرجل العجوز قد اخترقت أعماق قلبه. كانت الطيبة تقف أمامه بكل ما فيها من القدرة على التأثير وكان بذلك قد استسلم لتلك المشاعر بكل احترام.

كم كان قد بدا له كل ما كان يتوق إليه ويتطلع لتحقيقه تافهًا في تلك اللحظة!

أخذ يفكر مليًّا بما مرّ في حياة ذلك المخلوق الوقور. ذلك المخلوق المُستقيم الذي يتمتع بقدر كبير من العزيمة، وبما كان قد سكن قلبه النبيل ما جعل بإمكانه أن يعانق العالم بكامله، وتذكر سنوات المعاناة الشديدة التي احتملها ذلك العجوز بكل صمت وجلادة من الناحيتين النفسية والجسدية، ثم استرجع أيضًا الأوقات التي كان فيها ذلك القلب الذي أصبح الآن هرمًا أكثر صدقًا وأكثر بهجة حتى مما كان عليه قلبه الفتي.

كان الاثنان قد غرقا في أفكارهما بصمت. كان من الجليّ من حالة التأمل التي بدت على ملامح ألفرد بأن تلك المرارة التي كان فيها قد حلّ محلها الكثير من الإحساس الرقيق الصادق الذي كان يهزأ به في كثير من الأحيان والذي كان يقمعه في سره ويثور عليه. كان جده قد استطاع أن ينتصر عليه ويدفعه إلى الأمام.

وكان فد عاد يفكر ويُمعن النظر في كل نقطة كان حديثهما قد دار حولها. كان وقع ذلك وتأثيره عليه قويًّا جدًّا، لكنه ظل صامتًا تمامًا.

كان ألفرد قد انتظر إلى أن يُجرب ويختبر مقدرته قبل أن يتحدث عن قرارات أفضل ولم يكن ذلك بالقليل من الجهد. كان قد شعر بأن تغييرًا قد طرأ على نفسه بحيث تحولّت من الأنانية إلى نوع من المحبة والرفق الملائكي، وكانت محبة الكون قد بدأت تحلّ في نفسه وتنبزغ وتتفجر في روحه شيئًا فشيئًا وشعر بأنه قد بدأ الآن يتوجه نحو النور.

اتضح أمامه ما عليه من واجبات كشخص مسؤول، وكانت قد صدرت عنه تنهيدة من اللوم لنفسه عما كان منه في الماضي. كانت الرؤى الساطعة للبهجة قد كلّلت نظرته وكان قد شعر بوخز قاس من الألم. فكّر بأنه قدخسر قدرته على التحكم

بتلك الأمور التافهة التي كانت تشغل مُخيلته وبأنه كان قد أضاع ساعات وساعات بالاستماع والصخب وبالأحلام الثملة السامة التي كانت قد أغلقت أمام عينيه عالم الواجب وشعر بضعفه لكنه قرر ألا يفكر بذلك.

كانت نسمات المساء العليلة قد أنعشت تلك الأمسية بعد حرارة شمس النهار، وبذلك كان جدّه قد دخل إلى المنزل مع ألفرد الذي كان بعد فترة قصيرة قد استأذن جدّه ثم غادر.

وكان ألفرد قد توجه على الفور إلى غرفته وتناول نسخة الكتاب المقدس الذي كانت والدته قد منحنه له منذ كان طفلًا... أخذ يُقلّب الصفحات... وقعت عيناه على مئات من العبارات المقدسة، أخذ يقرأ ويقرأ تلك العبارات التي هي في غاية القدسية والروعة، تلك العبارات التي لم يسبق له أن تمعّن بها والتي لم يكن لها ذات التأثير القوي الحالي على نفسه.

بكى وبكى وبذلك كان ما في نفسه من قسوة قد تلاشى، ثم بدأ يُصلي وشعر بأن الملائكة قد رفعت من روحه. كانت تلك الرعشة من الشكر لله تعالى في غاية الرقّة ما جعله يشعر بالسكينة في نفسه.

من المعروف أن الأشخاص الذين لديهم مزاجهم الخاص والذين هم من النوع المتحمس يقعون عادة في الإفراط.

وكانت تلك هي حالة ألفرد الذي كان قد بدأ يخشى أن يعود من جديد فريسة لمشاعره السابقة، وبذلك أصبح يلتزم الحرص وكان قد أخذ يحترس أشبه بشخص ناسك.

كان ألفرد ولمدة ثلاثة أشهر قد امتنع عن الاختلاط بأحد، وحتى عن الاستمتاع بأقل مباهج الحياة. كان يمضي وقته بقراءة الكتب العلمية والدينية، وحتى أنه لم يعد يسمع أو يقرأ الشعر لكيلا يجعله ذلك ينصرف من جديد إلى أحلامه وإلى تأملاته الأنانية.

لا شك أن ذلك الانضباط كان جيدًا بالنسبة إليه في ذلك الوقت لأنه كان قد منحه المقدرة على مقاومة تصرفاته الخاطئة وعلى تقويم العيوب المخزية في شخصيته، لكن ذلك لم يكن ليدوم طويلًا دون أن تكون له أيضًا بعض الآثار السلبية الأخرى.

ربما كان ألفرد خلال تلك الفترة وفي ذلك الوقت قد شعر بأكبر قدر من السعادة وأكثر من أي وقت في حياته. كان ذهنه وتفكيره مُركزًا على هدف واحد كما كانت الكثير من الأفكار الأخرى قد بدأت تحتشد في ذهنه. كان يشعر بالبهجة وبنوع من

التفاخر لما أصبح لديه من مقدرة على ضبط نفسه، كما كان قد بدأ يشعر باللامبالاة بكل ما كان يهتم به سابقًا. كان الجمود قد حلّ على كل ما كان يسعى إليه سابقًا، لكن كآبة شديدة كانت بذات الوقت قد غمرت نفسه أيضًا، إلى أن كان ذات مساء قد ذهب إلى منزل جدّه وهو يتطلع إلى حوار مع ذلك الرجل السعيد ما سيجعله يكتسب المزيد من الصحّة النفسية.

كان جدّه لحسن حظه جالسًا بمفرده يقرأ، وبذلك كان قد استقبله بكل حبور وبابتسامة محبة وقال:

"حسنًا بُني! أنا سعيد لأنك جئت لزيارتي".

وكان قد لاحظ التغيير الكبير الذي طرأ على حفيده البائس وتبيّن له أيضًا مدى الكآبة التي كانت ترتسم على مُحياه. وبذلك كان، على أمل أن يكتشف السبب، قد أضفى المزيد من المودة على أسلوبه في التحدث إليه. كان ألفرد قد أبدى بعض الملاحظات العادية بطريقة الضجر المعتادة لديه ثم قال دون أية مقدمات:

"أنا مكتئب جدًّا يا جدّي وأكثر من أي وقت مضى وليس بإمكاني تفسير السبب في ذلك، كان لحديثك الجدّي الأخير معي تأثيره الكبير عليّ، وكنت لمدة طويلة قد شعرت على غير العادة بالكثير من البهجة ومن قوة الإرادة. كان ذلك كما لو أن شيئاً قد تسرّب إلى روحي، ما جعلني أشعر بالسرور على أمل إعادة إصلاح نفسي والانفتاح على حياة جديدة بعون الله.

"كان قد بدا لي كأن الملائكة قد أنزلت السكينة على روحي القلقة لكي أشعر بالراحة. كنت قد حاولت الاقتراب من الله تعالى لكنني كنت مع ذلك أخشى على نفسي وبذلك كنت قد ابتعدت عن أية مغريات، وابتعدت عن المجتمع الذي كان لا يتناسب مع وضعي النفسي.

كنت قد شعرت بالسعادة لمدة طويلة، لكن كم كان حزن الفتور وشعور عدم اللامبالاة قد غمرني"...

قال الجدّ: "بُنيّ! عليك أن تسعى لاحتمال هذا الوضع النفسي وسوف ينتهي ذلك بعد فترة. كما أن عليك أن تعلم بأنه ليس علينا أن نهرب دومًا من الإغراء بجميع أشكاله، وإنما علينا أن نحمي أنفسنا من هجماته وإلا فإن الفائدة التي سنجنيها سوف تكون أقل بكثير. لو كان الذين يسعون لإصلاح أنفسهم يفعلون ذلك بمجرد الابتعاد وبتجنب المجتمع، فسوف يصبحون مثالًا للأنانية أكثر من كونهم مثالًا للطيبة. نحن بحاجة إلى المجتمع كما أن المجتمع بحاجة إلينا أيضًا مهما كنا

متواضعين... نحن بحاجة للانتعاش بقوة الآخرين الطيبين منهم، لذا علينا نحن أيضاً أن نساهم بدورنا لكي يستفيد منا من يشاء الله أن نقدم إليهم العون... وبذلك سوف نقترب أكثر من خلود الحياة الأبدية وسوف نُنمّي المقدرة في قلوبنا. استمر في مسيرتك ألفرد دون أن تُلق بالًا إلى مشاعرك وتوسّل إلى الله تعالى فقط أن يجعلك مفيدًا للآخرين".

قال الشاب بحماس:

"نعم، فلابدّ أن يخترق الضياء الظلام، وأنا سعيد لأنني تحدثت إليك يا جدّي لأن كلماتك هذه قد منحتني قوة المثابرة، فلم أكن قد أدركت قطّ بأنني بهذا الضعف إلا مؤخرًا"

قال الجدّ: "هذه المعرفة ثمينة يا بُني العزيز فنحن بالفعل نصبح أكثر مقدرة عندما نكتشف أنفسنا بالتواضع"

قال ألفرد: "لابد أن الأمر كذلك، لكن لم يكن بإمكاني أن أدرك ذلك. كنت قبل اليوم أنظر إلى المستقبل وأرى أمامي آلاف المواقف التي قد تتكرر فيها أخطائي، وأجد نفسي غير قادر على الدوام على إتباع المبادىء السامية التي كنت مؤخرًا قد اخترت التمسك بها"

قال الجد: "سوف يأتي اليوم الذي تتمكن فيه من ذلك. عليك أن تكون حذرًا أمام أية عقبات، وسوف تجد بأن ما كنت تعتبره صعودًا لجبال شاهقة قد أصبح بالنسبة إليك سهولًا. لا تخش مطلقًا من المستقبل وقم بكل ما بإمكانك في الحاضر".

قال ألفرد: "ولكن من الغريب جدًّا أن ينتابني مثل هذا الشعور وأنا أبذل كل ما بإمكان أي كائن أن يبذله لتغيير وجهات نظري الخاطئة وأن أتقبل كل التدابير الإلهية بقلب مؤمن وبالرضى، وقد طردت من نفسي التفكير الأناني بالسعادة الدنيوية بقدر ما بإمكاني ذلك"

فال جدّه: "لكنك مع ذلك تشكو من الكآبة وأنت غير مسرور بما تفعله"

قال ألفرد: "ربما... لا. فأنا لا أزال أعتقد بأن بإمكاني أن أخضع بكل جلادة إلى ذلك الاختبار، لكن يبدو أن هناك سبب بسيط لشعوري بالإحباط. هل شعرت بذلك ذات يوم يا جدّي"

قال الجدّ: "نعم. وفي كثير من الأوقات. لكنني كنت دومًا أحاول أن أكرّس نفسي أكثر من أي وقت لما يزيل تلك الأفكار عن ذهني"

قال ألفرد: "سوف أفعل ذلك يا جدي"
وقال الجدّ: "أنت فتى صادق يا بني؟"
ثم غادر ألفرد منزل جده وهو يشعر بالكثير من الراحة النفسية وبالسلام والسكينة. كانت الآمال المشرقة قد بدأت تملأ نفسه من جديد، وكان قد بدأ يرى طريقه في الحياة بأكثر من الوضوح وقرّر الاستسلام للقدر بكل امتنان.
ثم مرت سنوات أربع كان ألفرد خلالها مُنشغلًا لكنه لم يكن قد ابتعد عن جدّه وإنما كان يسعى لأداء واجباته.
وكان ذات ليلة من ليالي الصيف قد ذهب إلى منزل جده تبدو عليه علامات التفكير لكن الهدوء والاستسلام كانا يملآن نفسه بذات الوقت. توجه إلى الغرفة الهادئة التي كان جده مُسجى فيها. كان هناك هدوء وصمت جليل. ركع ألفرد إلى جانب الرجل المُسجى وضمّ يديه ثم بكى بدموع العرفان بالجميل. كانت تبدو على ملامح ذلك العجوز الطيب كل مظاهر الصفاء والسكون والهدوء.
قال الجدّ وقد وضع يده على رأس حفيده المُحبب إليه:
"حانت ساعتي ألفرد. وها أنا أغدر الحياة بامتنان. أشعر بأن الملائكة تُحيط بي وبأنه ليست هناك أية غشاوة أمام عيني. كل شيء واضح أمامي. سوف يكون فراقنا قصير الأمد يا بُني"
وكان صوته قد ارتعش بينما امتلأت عيناه بالدموع.
قال ألفرد:
"جدّي العزيز! كيف سيكون بإمكاني أن أردّ إليك كل ما زودتني به من دروس نبيلة في هذه الحياة؟"
وقال الجدّ: "لقد حصلت على مكافأتي لأن ما علّمته لك من دروس في الحياة قد أتت ثمارها، وقد امتد بي العمر كي أرى ذلك لنفسي. أنا أثق بأنك سوف تكون دومًا بهذا الطهر والنقاء، وأنا أباركك وأهنئك على ذلك يا بني"
ثم كانت عينا الجد قد أغلقتا إلى الأبد.
وكان حفيده الشاب قد تابع حياته وهو يطبّق ما تعلمه من جدّه من ضبط للنفس ومن حسن سلوك أكثر مما تكون عين قد رأت أبدية.

قابل الشر بالخير

Confront bad with good

للكاتب تيموثي.ش. آرثر

كان السيد لاوسن والسيد وات جاران يعيشان على بعد مسافة ميل واحد، ولم يكن هناك من يعيش بين المسافة التي تقع بين مزرعة كلٍّ منهما. كان السيد وات المستوطن الأول للمنطقة وكان منذ أيام شبابه يحمل الكثير من الكراهية لأعضاء جمعية الكيكيرس، (وهي جمعية تدعو للسيطرة على النفس وللتعامل الحسن مع الآخرين)؛ لذا كان فعندما علم بأن السيد لاوسن، الذي هو رجل ذو مكانة وذو سيرة حسنة قد اشترى المزرعة التي تقع إلى جانب مزرعته، قد قال بأن من الأفضل له أن يغادر إلى مكان آخر.

وكان بناءً على ذلك قد بدأ يلجأ إلى ممارسة الكثير من الضغوط ومن المضايقات الحقيرة تجاه جاره. كان الوضع قد استمر بذلك الشكل لمدة تُقارب العام كان خلالها السبد لاوسن، الذي هو كما أسلفنا، رجل يتصف بالأخلاق الحميدة قد تصرّف كأنه لا يشعر بالضيق من المضايقات التي كان ذلك الجار الحاقد يتعمّد القيام بها.

لكن الأمور كانت قد تصاعدت كثيرًا ما جعل السيد وات يشعر أكثر فأكثر بالغيظ من موقف لاوسن المُسالم وبذلك كان قد أقسم بأن يقوم بما سيجعل جاره الهادئ الطباع يصبح أكثر عدوانية تجاهه.

كان الحظ قد حالفه فقد كانت لدى السيد لاوسن مُهرة ذات أصول عربية عريقة جدًا، وكان لوسون يوليها كل عناية إلى أن بلغت الأربع سنوات وكان يفخر بها كثيرًا كما كان قد رفض بيعها لقاء مبلغ كبير جدًّا من المال.

كان السيد وات ذات مساء بعد غروب الشمس بقليل وهو يمرّ إلى جانب حقل الذرة قد اكتشف بأن تلك المهرة كانت ترعى في منطقة صغيرة تفصل بين المزرعتين، وبذلك خطرت بباله خطّة شيطانية بأن يُزيل اثنين أو ثلاثة من قضبان السياج

الفاصل بين المزرعتين بحيث تدخل المهرة أثناء الليل لكي ترعى بالدخول إلى مزرعته وكان قد فعل ذلك.

ثم كان وات في وقت مُبكر من صباح اليوم التالي قد حمل بندقيته على كتفه وغادر المنزل، ولم يكن قد مرّ وقت طويل إلا وكان أحد الرجال الذين يعملون في مزرعته من مدة قريبة قد سمع صوت إطلاق نار، ثم كان السيد وات بعد يضع دقائق قد عاد إلى المنزل بسرعة وهو يبدو في غاية الاهتياج يكاد يتوقف عن النفس وكان بعد أن جلس قد قال بأنه أطلق النار على وعل كان قد هاجمه وجرحه وبأنه استطاع بصعوبة أن ينجو بحياته.

كان الجميع قد صدّقوا تلك الرواية ما عدا المستخدم الجديد الذي كان قد شعر بالنفور والازدراء تجاه سيده وات. كان قد ساوره الشكّ من أسلوب تصرفه بأن يكون هناك في الأمر خديعة ما جعله يتسلل بهدوء من المنزل وتوجه إلى المنطقة التي كان قد تم إطلاق النار فيها، وكان بذلك قد شاهد تلك المُهرة مّمدّة على الأرض وقد اخترقت رصاصة رأسها الذي كانت الدماء لا تزال الدماء تسيل منه بغزارة.

أسرع بالعودة إلى منزل السيد وات الذي كان قد قابله في الساحة وسأله بخشونة عن المكان الذي كان فيه.

وكان المستخدم قد أجابه على الفور:

"ذهبت لكي أتأكد بأن الرصاصة التي أطلقتها قد قتلت مُهرة السيد لوسن"

كان وجه وات قد شحب لكنه تمالك نفسه وصاح به بعنف شديد:

"هل تجرؤ على القول بأنني قتلت مهرة السيد لوسن ؟"

أجابه الرجل: "وكيف عرفت بأنها قُتلت؟"، تردّد وات قليلًا لكنه لم يُجب ثم عاد أدراجه إلى المنزل.

ثم مرّت عدة أيام دون أن يُكون السيد لوسن قد عثر على المهرة، إلى أن كان الرجل الذي يعمل لدى السيد وات قد قابل بعد ذلك السيد لوسن الذي كان مُمتطيًا جواده وهو في طريقه للبحث عن المهرة، وكان أن أعلمه بالأمر ببضع كلمات ما جعله يعود أدراجه إلى منزله بقلب مُنكسر لكي يُعلم أزوجته وأولاده بمصير تلك المُهرة الصغيرة.

لكن لم يكن قد صدر عنه مع ذلك ما يشير إلى اتهام جاره بقتل المُهرة، كما لم يكن قد تفوّه عنه بأية كلمات تُشير إلى التهديد بالانتقام، كما أنه لم يكن قد لجأ إلى

القانون لكي يطالب التعويض عن خسارته للمُهرة، وكان ما فعله أن انتظر بهدوء إلى أن تحين ساعة الانتقام لكي يسترد حقه.

كان السيد وات قد اشترى من أحد القرويين بقرة صغيرة لقاء مبلغ مرتفع من المال لكنه كان يتطلع إلى بيعها من جديد لتحقيق الكثير من الربح.

وذات صباح وبينما كان السيد لوسن جالسًا أمام منزله كان ولده الأكبر سنًّا قد جاء مسرعًا وأعلمه بأن بقرة السيد وات قد اخترقت السياج ودخلت إلى الحقل، وبأنها كانت قد أكلت أكثر ما فيه من نباتات الكُرنب (الملفوف) وبأنها سحقت بقوائمها أخاديد الخضار وتسببت بأضرار بالغة من المتعذر إصلاحها.

لكن لوسن كان قد سأله بهدوء: "وما الذي فعلته بها؟"

أجاب الابن: "طردتها من الحقل"

سأله والده من جديد: "هل ضربتها بالعصا؟"

أجاب الابن: "لم أقم بضربها ولا حتى ضربة واحدة"

حينئذ أجابه والده: "حسنًا... حسنًا... فعلت خيرًا اجلس الآن وتناول إفطارك وعندما سننتهي سوف أتولى معالجة أمر تلك البقرة بنفسي".

وكان بعد انتهائهما من تناول الإفطار قد امتطى جواده وبرفقته ولده وذهبا معًا إلى منزل السيد وات الذي كان جالسًا أمام منزله والذي كان عندما شاهدهما قد اعتقد بأن جاره قد جاء لكي يطالبه بالعطل والضرر وكان بذلك قد أقسم بينه وبين نفسه بأنه لن يدفع له دولارًا واحدًا وبأنه سوف يجعله يلجأ للقانون لأجل ذلك.

قال لوسن وهو يترجّل عن الجواد ويجلس إلى جانبه:

"عِمت صباحًا سيد وات كيف حال العائلة؟"

أجابه جاره: "أعتقد بأن كل شيء على ما يرام"

قال لوسن: "ربما كنت بالأحرى قد جئت إليك باكرًا لكن لدي موضوع صغير أود أن أسوّيه معك هذا الصباح"

قال وات بجفاء: "أعتقد ذلك"

قال لوسن: "كان ولدي قد شاهد بقرتك هذا الصباح ترعى في حديقتي وقد تسببت بالكثير من الأضرار في المزروعات"

قال وات وقد بدا عليه القلق: "وما الذي فعله بها؟"

سأله لوسن: "ما الذي كنت ستفعله لو أن بقرتي كانت قد دخلت إلى مزرعتك؟"

قال وات بخشونة دون تفكير: "كنت سأطلق عليها النار"، ثم قال: "أعتقد بأنك فعلتَ ذلك لقاء خسارتك مهرتك. لقد تعادلنا وأصبحنا الآن على قدم المساواة: بقرتي لقاء مهرتك"

قال لوسن: "لا يا جاري... أنت على ما يبدو لا تعرفني فأنا لن أفكر مطلقًا بإيقاع الأذى بك كما لم أقم بلمس شعرة من بقرتك، وهي لا تزال الآن في حقلي ولم أقم حتى بضربها حتى ضربة واحدة بالعصا كما ولم أطلق عليها النار كما فعلت بمهرتي، وبإمكانك استعادتها متى شئت. كنت أعلم بأنك أطلقت النار على مهرتي لكنني أعتقد بأنك فعلت ذلك لأن الشيطان كان قد أوعز لك بأن تفعل ذلك، أما أنا فلست ممن يحملون الضغائن في قلوبهم على جيرانهم، وإنما جئت لكي أعلمك فقط أين بإمكانك أن تعثر على بقرتك وسوف أغادر الآن"

كان السيد وات إثر سماعه ما قاله جاره الطيب المُتسامح قد نهض على الفور وسأله:

"كم كانت مهرتك تُساوي ؟"

أجاب لوسن: "كانت تساوي مائة دولار"

وبذلك كان السيد وات قد أسرع إلى منزله ثم عاد بسرعة وهو يحمل المبلغ وناوله إلى جاره وقال: "هذا المبلغ لقاء ثمن مهرتك! ولتكن العلاقة بيننا منذ الآن بكل وفاق وسلام"

وأجابه لوسن وهو يتناول المبلغ من يده:

"بكل رضى وسرور وليحلّ الوئام والسلام بيننا من الآن فصاعدًا"

وكان قد امتطى جواده وعاد إلى منزله بقلب مُفعم بالرضى.

أما السيد وات فكان منذ ذلك اليوم قد أصبح جارًا طيبًا وكان قد أصلح نفسه وتخلّص من ذلك الحقد.

ربما كان على كل منا أن يتبع هذا الأسلوب في التعامل بأن يقابل دومًا الشر بالخير ومن المؤكد أنه سوف يكون بذلك أكثر سعادة.

كيف يمكن تجنب الشجار

How to avoid quarrel

للكاتب تيموثي.ش. آرثر

قال إدغار هاريس لشقيقه الأصغر بأسلوب آمر:

"بيل! تعال إلى هنا. أعطني المِجرَفة فقد نسيت مِجرَفتي في المنزل"

وبذلك أجابه وليم بذات الأسلوب غير الودّي الآمر الذي كان قد تحدث به إليه شقيقه عندما طلب منه إعطائه المجرفة:

"لا... لن أفعل ذلك! اذهب واجلبها بنفسك من المنزل"

قال إدغار من جديد:

"لست أرغب بالذهاب الآن إلى المنزل... أعطني المجرفة ألم تفهم ما قلته لك. أريد استعمالها لدقيقة واحدة فقط"

أجاب ويليم: "لست أرغب بإعارة مِجرفتي أو إعطائها لأحد. اذهب بنفسك وأحضر مِجرفتك"

أجابه إدغار بغضب وهو ينهض ويتوجه نحو المنزل لكي يجلب مجرفته:

"لا يخطر ببالك أن تطلب مني بعد الآن أية خدمة وطوال حياتك، لأنني لن أؤديها لك، فأنت أسوأ شخص رأيته في حياتي".

كان ذلك الحوار غير المتناسب مع علاقة الأشقاء ببعضهم قد دار تحت النافذة بالقرب المكان الذي كان السيد هاريس والد الولدين جالسًا فيه. كان قد سمع كل ما دار بينهما ما جعله يشعر بالحزن، فمن المفترض أن يكون التعامل بين أولاده في غاية اللطف والمحبة، إلا أنه لم يكن قد علّق على الأمر ولم يجعلهما يشعران بأنه سمع تلك اللغة التي تحدث بها كل منهما مع الآخر وبأنه كان قد اطلع على ما جرى بينهما من مشادة في الكلام.

كان إدغار بعد قليل قد عاد وجلس في المكان الذي كانا جالسين فيه وقال:

"شكرًا لك على عدم إعارتي مِجرفتك القديمة احتفظ بها لنفسك، فلن أستخدمها حتى لو كنت ستعطيها لي"

وكان شقيقه ويليم قد أجابه:

"يسرني أنك أصبحت بهذه الاستقلالية وآمل أن تظلّ هكذا على الدوام"

وكان الشقيقان قد استمرا في إغاظة بعضهما لبعض الوقت.

وفي اليوم التالي كان إدغار يبني بيتًا ببعض أعواد القصب بينما كان ويليم يلعب بالطارة، لكن الطارة قد حادت عن طريقها بالصدفة وسقطت على المنزل الذي كان ادغار يبنيه وبذلك تهدّم جزء منه.

كان ويليم على وشك الاعتذار من شقيقه لما حدث دون إرادته وأن يُعرض عليه إصلاح الضرر لكن شقيقه كان قد غضب جدًّا. علت الحمرة وجهه لشدة الانفعال وصاح به:

"ألا ترى ما فعلته؟ إن لم تبتعد على الفور من هنا أنت وهذه الطارة فسوف أعلم والدي بأنك فعلت هذا عن عمد".

قال ويليم بلهجة تنم عن السخرية والتحدّي:

"فلتذهب وتستدعيه. هيا افعل ذلك على الفور"

ظلّ الشقيقان لبعض الوقت يتشاجران ويزمجران أشبه بكلبين مشاكسين، ثم بدأ إدغار بإصلاح المنزل الذي كان يبنيه من جديد، بينما استمر ويليم من جديد باللعب بتلك الطارة. كان ويليم يشعر بالكثير من الميل إلى إعادة ما حصل بالصدفة لكي ينتقم من شقيقه على ذلك الأسلوب الحاقد الذي كان قد تحدث به إليه، لكنه نظرًا لما كان يتحلّى به من طباع تميل إلى الطيبة والتسامح كان قد نسي ما شعر به من غيظ وعاد للاستمتاع باللعب بتلك الطارة.

وكان السيد هاريس قد شاهد أيضًا ما حدث بين الشقيقين.

كان إدغار بعد مرور يومين قد توجه إلى والده لكي يشكو إليه من تصرفات شقيقه ويليم وقال:

"لم أر في حياتي مثل هذا الفتى المُتهور غير المتعاون فهو ليس على استعداد لتأدية أية خدمة لي، فلو حدث وطلبت منه أن يُعيرني مجرفته أو كرته أو أي شيء آخر فكل ما يفعله هو أن يرفض ويوجه إلي الكلمات اللاذعة"

قال والده وهو يبتسم بلطف:

"ربما كنت قد طلبت منه ذلك بأسلوب غير ودّي. لا أعتقد أن يكون ويليم بطبيعته بمثل بهذا الميل إلى عدم المساعدة، أنا على يقين بأن هناك هو خطأ ما في أسلوب تصرفك تجاهه".

قال إدغار: "لكن أبي! لست أفهم كيف تعتقد بأنني قد أكون قد أخطأت تجاهه"

قال والده: "كان ويليم قد رفض إعارتك مجرفته أمس على الرغم من أنه لم يكن يستخدمها ألم يكن قد فعل ذلك؟"

"نعم سيدي"

"هل تذكر كيف كنت قد طلبت منه ذلك؟"

"لا سيدي. لست أذكر الآن كيف كنت قد فعلت ذلك بالتحديد"

قال والده: "حسنًا... حدث أنني كنت جالسًا إلى جانب النافذة وبذلك كنت قد سمعتك عندما طلبت منه ذلك. لذا بإمكاني الآن أن أعيد أمامك بالحرف الواحد ما قلته. وإن لم يكن بإمكاني أن أحاكي أيضًا نبرة صوتك حينذاك. كنت قد قلت له: (هيا! أعرني مجرفتك)"

كان أسلوب حديثك مُهينًا كما كان في نبرة صوتك ما يدعو إلى إثارة الكثير من التوتر. لست أستغرب بأن يكون ويليم قد رفض ذلك، فلو كنت قد تحدثت إليه بأسلوب ودّي لكان قد أعطاك مجرفته على الفور. عليك أن تدرك يا بُنيّ بألا أحد يتقبّل تلقي الأوامر وبمثل ذلك الأسلوب من السيطرة، حتى لو كان ذلك لأداء أي شيء. أعلم بأنك كنت قد تضايقت من ذلك لكن ويليم كان قد تضايق أيضًا من أسلوب حديثك. حاول أن تصحح خطأك يا بُنيّ وسوف ترى بأنه لن يكون لديك بعد مدة ما تشكو منه من شقيقك ويليم".

كان إدغارد قد شعر بالأسف من تعنيف والده له، لكنه كان بذات الوقت قد أدرك بأن ما قاله كان صحيحًا.

وكان والده قد تابع حديثه بالقول:

"عندما تحتاج لأية خدمة من شقيقك عليك أن تتحدث إليه بكلمات طيبة بدلًا من أن تطلب منه ذلك بأسلوب آمر جاف وقاسي وسوف ترى كيف سيكون على استعداد لتقديم أية مساعدة لك.

كنت قد راقبت تصرف كل منكما وما لاحظته هو أنك نادرًا ما تتوجه إليه بالحديث بأسلوب ودّي مناسب. لذا عليك يا بُنيّ أن تُصلح هذا العيب في شخصيتك وسوف

تكونا على أتم وئام. للكلمات الطيبة تأثيرها الأكبر وبألف مرة من الكلمات الجافة القاسية".

عندما كان إدغار في اليوم التالي بحاجة إلى رَفش من الغرفة الصيفية، كان على وشك أن يقول لشقيقه:

"اجلب لي ذلك الرَفش"

لكنه عاد وتحكم بألفاظه وطلب منه ذلك بأسلوب مختلف وبلهجة وألفاظ أكثر لطفًا:

"ويليم، هل بإمكانك أن تجلب لي من الغرفة الصيفية ذلك الرفش الصغير؟"

كان قد طلب منه ذلك بأسلوب لطيف يوحي أكثر بالرجاء وليس بلهجة آمرة ما جعل ويليم يجيبه على الفور:

"سأفعل ذلك بالتأكيد"

ويسرع إلى الغرفة الصيفية لكي يحلب له الرفش.

كما كان إدغار عندما أعطاه شقيقه الرفش قد قال له:

"شكرًا لك!"

ثم سأله ويليم: "ألست بحاجة إلى إناء السقاية؟"

قال إدغار: "أنا بحاجة إليه بالفعل هل بإمكانك أن تحلبه لي وأن تملؤه بالماء أيضًا؟"

أسرع ويليم وجلب له الإناء، لكنه كان عندما وقف إلى جانب أحد مشاتل الزهور قد نسي نفسه ووطأ على مشتل لأزهار البنفسج.

غضب إدغار وقال له:

"أترى ما فعلته؟ أبي بإمكانك أن تنتبه لخطواتك؟"

وكان وليم قد شعر بأن شقيقه قد أخطأ بحقه تجاهه وبأنه كان قد جرح كرامته بتلك الكلمات التي وجهها إليه بكل قسوة، ما جعله يكاد يدوس بقدميه المزيد من تلك الأزهار لكي يُغيظه، لكنه كان قد كبح غضبه وراجع نفسه وخرج ببطء من الحديقة.

كان إدغار بعد ذلك قد ندم كثيرًا على سوء تصرفه وعلى الكلمات القاسية التي وجهها لشقيقه وبذلك قرّر أن يحترس بما يوجهه من كلام عندما يغضب وبأن يكبح جماح غضبه. كان قد أدرك بأن أسلوبه في التحدث إليه بلطف كان له تأثيره الأفضل عليه، وبذلك بدأ منذ ذلك اليوم يرقب تصرفاته.

كان والده عندما شاهد تصرفه قد قال له:
"أترى بُنيّ أثر الكلمة الطيبة؟ عليك ألا تنسى طوال حياتك بأن الكلمة الطيبة لها فعاليتها وتأثيرها الأكبر من الكلمات القاسية"
وأنتم يا أصدقائي الأعزاء فلتحاولوا جميعًا تجربة هذه الطريقة في تعاملكم مع الآخرين وسوف ترون مدى تأثيرها ومقدار ما لها من نتائج ايجابية.

الكلمة الطيبة

Good word

للكاتب ت. شي آرثر

يتحدث المرء كثيرًا عن أهمية وعن الحكمة والصفة المميزة للتعامل الطيب وعن حسن النية في التعامل بين الأشخاص. من السهل جدًّا على الفرد أن يُبرهن عن لطف الشخصية وأن يتجنب الفظاظة، ذلك بأن هذا بأن يُبهج ويُسعد جميع من له تأثير أو عليهم، لذا فإن ما يدعو إلى الاستغراب بالفعل أن نجد أن بعض الأشخاص يسلكون الطريق المعاكس في التعامل.

كما قد يبدو من المستغرب أن يكون هناك بين صغار النفوس المئات ممن يستمتعون بالتسبب بالتعاسة للآخرين. ومن قد يُبهجهم أن يكونوا رُسل الأنباء المزعجة. فهم إما من الأشخاص الذين يشعرون بالغيرة أو بالحقد، وهم في الحالتين يبتهجون بإيقاع الأذى وبالتسبب بجرح مشاعر الآخرين.

كانت هناك دوماً لدى جميع الأمم منذ القدم وحتى يومنا هذا كراهية خاصة لمن ينعون كالغربان وبما يُطلق عليهم تعبير: (رسل الشياطين)؛ لأنهم يحملون الأنباء السيئة. وقد سجل التاريخ بأن رسول السوء الذي كان أول مع نقل نبأ هزيمة جيش الروم من قبل جيوش الفرس على ضفاف نهر دجلة، ونبأ موت الإمبراطور جوليان في آسيا الصغرى كان قد تم رميه بوابل من الحجارة من عامة الناس الساخطة، على الرغم من أن ذلك الرسول كان بريئًا وبأنه كان قد أدى تلك المهمة المؤلمة بتردّد.

إلا أن هناك في الوقت الحاضر طريقة أخرى في التفكير وهدف مختلف لمن يتطوع في مثل تلك الحالات. ممن يبتهجون بفرصة نقل الأخبار السيئة ومن يجدون إلى حدّ ما المتعة بما تتسبب به ذلك من شدة معاناة الآخرين.

أما من لديهم إحساس مرهف، وأما الطيبون، الشرفاء، الكرماء فهم يُعرضون عن القيام بمثل تلك المهام الشاقّة التي تتسبب بآلام الآخرين.

وعلينا أن نُقرّ بأن هناك في المجتمع بعض الأشخاص الذين يجدون المتعة بمساهمتهم في شقاء الآخرين. أشخاص يتلهفون ويحبون ترويج الافتراءات وتشويه السمعة، وعلى التسبب في الدمار، بإحياء الأخطاء التي طواها النسيان. أشخاص يجرحون ويتسببون بالألم والأسى للآخرين كلما كان بإمكانهم القيام بذلك.

أليس من الأفضل أن يتبع المرء سياسة اللين والكرم الشهامة! لم لا نقوم بإسعاد غيرنا من المخلوقات؟ لم لا نمتنع عن البحث عن نقاط ضعفهم لم لا نمتنع عن تهييج جروحهم التي قد تكون قدقاربت من الشفاء؟ لم لا نمتنع عن صدم مشاعرهم وعن مضاعفة شعورهم بالمرارة.

نادرًا ما يكون سحر الكلمة الطيبة وما يكون الأسلوب اللطيف في التعامل عديم الجدوى. علينا أن ندرك أن أخوتنا في الإنسانية أكثر إحساسًا مما قد يُخيّل إلينا.

عرفنا سابقًا العديد من الحالات التي ظلّت فيها ذكرى السلوك اللطيف في التعامل في الأذهان لسنوات. من ليس بإمكانه ألا يسترجع بالفعل الأوقات الماضية الغابرة ويكتشف ابتسامة ما أو نظرة ما أو أي شكل آخر في إظهار الاحترام والتقدير، الذي كان المقصود به أن يبهج به الشخص الآخرين ويسعدهم في المستقبل!

الكلمة الطيبة لاتكلف أكثرمن نطقها ولاتاخذ وقتاً أطول في نطقها كما أنها عندما يتم النطق بها لا تلذع اللسان والشفتين ولا تتسبّب بأي ألم جسدي من أي نوع، كما لم يسبق أن عرفنا أن أي اضطراب عقلي قد نجم عن ذلك.

الكلمة الطيبة لها تأثير كبير وعلى الرغم من أن الكلمة الطيبة لاتكلف كثيرًا فهي تُعزّز حسن الطباع لدى المرء، ذلك لأن الشخص الذي يعتاد على التصرّف بسلوكية معينة لابدّ أن يتخلى عن الفظاظة والعناد في طبيعته، كما أن الكلمات الرقيقة تُلطف النفس.

يقول الفلاسفة بأن عبارات الغضب التي تصدر عن المرء أشبه بالوقود الذي يزيد من اشتعال النار فهي تُضاعف الغضب وتجعله يتوقّد ويُصبح أكثر ضراوة. فإذن

لِم لا يكون كل ما يصدر عنا، وأن يكون لكل ما نقوله في مختلف المواقف وأمام جميع الانفعالات التي قد تعترينا من الكلمات اللطيفة؟، والأشخاص الذين يتحدثون دوماً بأسلوب لطيف رقيق يمتنعون دوماً عن الاستسلام لثورة الغضب.ولسوء المزاج.

الكلمة الطيبة تجعل الآخرين بمزاج جيد بينما تؤدي الكلمات السيئة إلى تبلد أحاسيسهم.

الكلمات الجارحة تلذع وكلمات السخرية تتوتر أعصاب الآخرين كما أن الكلمات القاسية وكلمات الغضب تجعلهم يقسون تجعلهم يستشيطون غضبًا.

الكلمة الطيبة تعكس على نفوس الرجال صورة جميلة عليها، وهي تُهدىء وتُلطف وتُريح النفس وُتعزي من يسمعها.

الكلمة الطيبة تجعل من يسمعها يشعر بالخجل من مزاجه النكد ومن فساده ومن قسوة مشاعره وتجعله يتصرف بطيبة.

هناك بعض الكلمات التافهة وهناك بعض الكلمات عديمة الجدوى، وهناك بعض الكلمات التي تصدر عن المرء دون تفكير وتكون تلك الكلمات من الكلمات الفارغة.

هناك قدر كبير من الاندفاع في الكلمات القاسية التي قد تصدر عنا لذا فمن الأفضل لنا أن نمنح الكلمة الطيبة فرصتها.

وبذلك بإمكاننا أن نُدرك بأن الكلمة الطيبة هي الأفضل من جميع تلك الكلمات لذا فقد يكون من المؤسف ألا يكون لها في التطور الذي حدث في العصر الحالي مكانتها الأكثر أهمية بين مختلف العبارات الأخرى.

نهاية الحفل

The end of the party

للكاتب غراهام غرين

كان بيتر مورتون قد استيقظ فجأة مع الخطوط الأولى من الضوء. كان بإمكانه أن يشاهد عبر النافذة غصنًا عاريًا يتدلى ضمن إطار فضي. كان المطر يضرب ضربات خفيفة على الزجاج. إنه الخامس من شهر كانون الثاني (يناير)!

نظر إلى السرير الآخر، عبر طاولة كانت عليها شمعة كانت قد ذابت تمامًا في حوض من الماء. كان شقيقه فرانسيس مورتون لا يزال نائمًا، ثم اضطجع في فراشه من جديد وأخذ ينظر إلى شقيقه. كان ما يُضحكه هو أنه عندما ينظر إلى فرانسيس يُخيّل إليه بأن من ينظر إليه هو نفسه. ذات الشعر، وذات العيون، وذات الشفاه، وذات خطّ الوجنات، لكن تلك الفكرة كانت قد تلاشت بسرعة، وعاد بذهنه إلى الأمر الذي يجعل لذلك اليوم مثل تلك الأهمية. فهو الخامس من كانون الثاني (يناير) وهو لا يكاد يُصدّق بأن عامًا كاملًا قد مرّ على آخر حفلة كانت السيدة هين فالكون قد أقامتها للأولاد.

كان فرانسيس قد استدار فجأة في فراشه. وضع ذراعه على وجهه وأغلق فمه بشدّة وبذلك بدأ قلب بيتر يخفق بسرعة ولكن ليس من البهجة، وإنما من الاضطراب.

انتصب في فراشه ونادى بصوت مرتفع: "فرانسيس، استيقظ!"... هزّ فرانسيس كتفيه، وأشار في الهواء بقبضة يده المُطبقة بإحكام دون أن يفتح عينيه. وكانت الغرفة حينئذ قد بدت مظلمة في عيني بيتر، وكان قد تولّد لديه شعور بانقضاض طائر كبير عليه.

ثم صاح للمرّة الثانية: "فرانسيس، استيقظ!"

دعك فرانسيس عينيه وسأله: "هل كنت تُناديني؟"

قال بيتر بكل ثقة: "كنت تحلم حلمًا مزعجًا"

ذلك لأن التجربة كانت قد علّمته إلى أي مدى كان ذهن كل منهما ينعكس على الآخر. إلا أنه الأكبر سنًّا، وإن كان ذلك ببضعة دقائق فقط، وبذلك كان ذلك الفاصل الزمني الإضافي القصير في خروجه إلى الضوء قبل شقيقه، في الوقت الذي كان فيه فرانسيس لا يزال يُكافح وهو يتألم في الظلام، ما منح بيتر ذلك الاعتماد على النفس وذلك الشعور الغريزي بأنه المسؤول عن حماية شقيقه التوأم، الذي كان يخاف من أشياء كثيرة جدًّا.

قال فرانسيس: "كنت قد حلمت بأنني كنت ميتًا!"

سأله بيتر بفضول: "كيف كان ذلك؟"

قال فرانسيس: "ليس بإمكاني أن أتذكّر"

ثم وجّه نظرة ارتياح إلى ضوء النهار، وترك جزئيات تلك الذكريات تبهت.

قال بيتر: "لابد وأنك حلمت بطائر كبير"

سأله فرانسيس: "أكان هذا ما حلمت به؟"

كان فرانسيس يتقبّل كل ما يعرفه شقيقه دون نقاش. استلقى الاثنان على السرير لفترة وجيزة بصمت، كل منهما بمواجهة الآخر ذات العيون الخضر، وذات الأنف المائل، وذات الشفاه الممتلئة المُنفرجة، وحتى ذات الذقن التي بدأت تنمو قبل الأوان.

ثم توارد إلى ذهن بيتر ثانية بأن ذلك اليوم هو الخامس من شهر كانون الثاني (يناير)، وانتقل بأفكاره بتَكاسل من صور الكعكات، إلى جوائز المسابقات التي قد يفوز بها، مسابقات البيضة والمِلعقة، اصطياد التفاحات ضمن الأحواض المائية، لعبة الغميضة.

قال فرانسيس فجأة: "لا أريد الذهاب، من المفترض أن جويس سوف تكون هناك. وكذلك مابل وارن"

كان فرانسيس يكره فكرة الذهاب إلى حفلة قد تشارك بها جويس ومابل. كانتا أكبر منه سنًّا جويس في سن الحادية عشر، ومابل وارين في الثالثة عشر. كانت ضفائرهما الطويلة تتأرجح فوق رأسيهما وهما تمشيان بتشامخ وبخطى واسعة أسوة بالذكور. كان جنسهما قد جعله يشعر بالإذلال عندما كانتا ترقبانه بنظرة احتقار من تحت أجفانهما وهو يعبث بالبيضة أثناء لعبة البيضة والملعقة. استدار فرانسيس بوجهه عن بيتر، ذلك لأن خداه كانا قد اصطبغا بلون قرمزي.

سأله بيتر: "ما الأمر؟"

قال فرانسيس: "لا شيء، أشعر بأنني لست بخير، أصبت نزلة برد، يجب ألا أذهب إلى الحفلة"

دهش بيتر وسأله: "ولكن، فرانسيس! هل هي نزلة برد حادة؟"

قال فرانسيس: "سوف تصبح كذلك إن ذهبت إلى تلك الحفلة، وربما سأموت!"

قال بيتر بحزم: "عليك إذن ألا تذهب إلى تلك الحفلة".

ذلك لأن بيتر كان على استعداد لحلّ جميع الصعوبات بجملة واحدة فقط. وكان فرانسيس قد ترك أعصابه المشدودة تسترخي بشعور بهيج من الراحة، ذلك لأنه اعتاد على أن يُلقي على عاتق بيتر كل ما قد يواجهه من صعوبات، لكن على الرغم من أنه كان قد شعر بالامتنان نحوه، إلا أنه لم يلتفت إليه برأسه، ذلك لأن وجنتيه كانتا تتوهجان من تلك الذكرى المُخزية للعبة الاختباء في الظلام (الغُميضة) التي جرت العام الفائت في ذلك البيت المُظلم، وكيف أنه كان قد صرخ بأعلى صوته عندما وضعت مابل يدها فجأة على ذراعه. لم يكن قد سمع وقع أقدامها عندما دخلت إلى الغرفةهمهم:

"هكذا هنّ الفتيات دومًا، لاتُصدر أحذيتهن أي صوت! هن يدخلن كالقطط التي تُمزّق بمخالبها الوسائد الناعمة، حتى دون أن تئن الأرضية الخشبية تحت وطء أقدامهن"

وكان فرانسيس عندما أحضرت المربية الماء الساخن قد ظلّ مُستلقيًا وألقى على عاتق شقيقه تدبير جميع الأمور.

قال بيتر: "أصيب فرانسيس بنزلة برد"

وكانت المربية قد وضعت المناشف على الصفيحة المعدنية وقالت دون أن تستدير إليه:

"لن يتم تأجيل الاستحمام إلى الغد، وعليك أن تُعيره بعض مناديلك"

قال بيتر: "ولكن أليس من الأفضل بالنسبة إليه أن يبقى في سريره؟"

سألها بيتر: "ولكن أليس من الأفضل أن يبقى في السرير؟"

قالت المربية: "سوف أصطحبه هذا الصباح في نزهة جيّدة، وسوف يُساعده الهواء النقي على طرد الجراثيم، انهضا على الفور..."

ثم خرجت وأغلقت الباب وراءها.

قال بيتر لفرانسيس: "أنا آسف!"، لكنه شعر بالقلق وهو ينظر إلى وجه أخيه الذي كان قد تغضّن من جديد نتيجة معاناته ولما شعر به من نذير بالشؤم.

ثم قال: "لكن لِم لا تبقى في سريرك؟ وسوف أقوم بإعلام أمي بأنك مريض جدًّا، وبأنك لن تتمكن من النهوض من فراشك". لكن لم يكن بمقدور فرانسيس أن يكون بمثل ذلك التمرد على القدر. وهو من ناحية أخرى، إن بقي في سريره فسوف يأتون إليه، وينقرون على صدره، ويضعون ميزان الحرارة في فمه وينظرون إلى لسانه، وسيكتشفون بذلك بأنه ليس مريضًا. صحيح أنه كان يشعر بأنه مريض، وبأنه يشعر أيضًا بنوع من الفراغ في معدته، وبأن قلبه كان يخفق بسرعة، لكنه يعلم جيّدًا بأن سبب كل ذلك هو الخوف، الخوف من تلك الحفلة، الخوف من أن يكون عليه الاختباء في الظلام دون أن يكون بيتر برفقته، وبدون أي ضوء ليلي يجعله يشعر بنعمة اختفاء الظلام.

قال وهو يشعر فجأة باليأس:

"سوف أنهض، لكنني لن أذهب إلى حفلة السيدة فالكون. أقسم بأنني لن أذهب!"

وفكّر، من المؤكد أن كل شيء سوف يكون الآن على ما يرام، فلن يُسامحه الله إن نكث بهذا القَسَم الجليل، وسوف يُنير له الطريق. فلا زالت أمامه فترة الصباح، وكذلك لديه من الوقت حتى الساعة الرابعة من بعد الظهر. لذا لا داعي الآن للقلق فكما يقولون: (لا زال العشب نَضِرًا تحت باكورة الندى)... قد يحدث أي شيء. قد يجرح نفسه، أو قد يُصاب بكسر في رجله أو قد يُصاب فعلًا بنزلة برد. لابد وأن الله سيتدبر الأمور بشكل ما.

كان إيمانه بالله إلى ذلك الحدّ، حتى أنه لم يُعر الأمر تلك الأهمية عندما قالت له والدته:

"فرانسيس، أعلموني بأن لديك نزلة برد"، ثم قالت بعد ذلك بنوع من الدُعابة:

"كنا سنسمع أكثر عن هذا الموضوع، لو لم تكن هناك حفلة هذا المساء"

ابتسم فرانسيس بارتباك وكان قد شعر بالدهشة وبالإحباط من ألّا تكون والدته قد شعرت بما يُعانيه.

كانت سعادته ستستمر لفترة أطول لو لم يكن قد صادف جويس أثناء تلك النزهة الصباحية. كان يمشي بمفرده مع مربيته لأن بيتر كان قد تركهما لكي يستكمل إعداد كوخ الأرانب في عِليّة الحطب. حدث نفسه: "لو كان بيتر معنا لما كنت سأكترث بذلك"، فالمربيّة هي مربية بيتر أيضًا، لكن الأمر بدا الآن كما لو أن تلك المربية كانت مُكلّفة برعايته هو فقط، وذلك لعدم ثقتهم بإمكانية تنزّهه بمفرده في الحديقة، في الوقت الذي كانت فيه جويس، التي تكبره بعامين فقط، بمفردها.

كانت جويس قد توجّهت إليهما وهي تمشي بخطى واسعة، بضفائرها التي تتأرجح على كتفيها، ثم نظرت إلى فرانسيس باحتقار، ثم وجهت حديثها بتعالي إلى المربية:

"مرحبًا أيتها المربية! هل سترافقين فرانسيس الليلة إلى الحفلة؟ سوف نذهب إليها أنا ومابل أيضًا"

ثم تركتهما وتوجهت من جديد إلى الشارع الذي كانت مابل وارنر تُقيم فيه. كانت بمفردها، مسؤولة عن نفسها في ذلك الشارع الطويل الخالي من المارّة.

قالت المربية لفرانسيس: "يا لها من فتاة لطيفة!"... لكن فرانسيس ظلّ صامتًا، وكان قد بدأ يشعر من جديد بذلك الخفقان في قلبه، فقد أدرك مدى اقتراب موعد تلك الحفلة، وبأن الله لم يفعل لأجله شيئًا حتى الآن فقد مرّت الدقائق بسرعة كبيرة، ولم يتبق لديه ما يكفي من وقت لكي يُخطط لكيفية التهرّب من الذهاب إلى الحفلة، أو حتى لكي يستعد قلبه للمحنة القادمة. وكان قد أصيب تقريبًا بالهلع عندما وجد نفسه واقفًا أمام عتبة المنزل، بياقته المرفوعة إلى الأعلى التي يتقي بها الريح الباردة، بينما كان المصباح الكهربائي الذي تحمله مربيته، ينشر خطًّا خفيفًا من الضوء من خلال الظلام. كانت أضواء الرواق تبدو من خلفه، وكان يسمع أصوات الخدم وهم يُعدّون مائدة العشاء الذي سيتناوله والدته ووالده بمفردهما هذه الليلة.

كادت تُسيّطر عليه الرغبة في أن يُسرع في العودة إلى المنزل، لكي يُنادي والدته ويُعلمها بأنه لن يذهب إلى تلك الحفلة، لأنه لا يجرؤ على الذهاب.

حدّث نفسه: "ليس بإمكانهم إرغامي على ذلك"

كاد يسمع صوته وهو ينطق بهذه الكلمات التي كان سيكسر بها وإلى الأبد وكان يعلم بغريزته ذلك الحاجز من عدم إدراك والديه. وبأن هذا ما كان ينقذه دومًا من معرفتهم لما يدور في ذهنه.

"لن أذهب إلى تلك الحفلة. أنا خائف من الذهاب، لست أجرؤ على الذهاب. سوف يجعلوني أختبئ في الظلام وأنا أخاف من الظلام. سوف أصرخ، وأصرخ، وأصرخ"

كاد يرى أمامه تعبير الدهشة الذي سوف يرتسم على وجه والدته، وما سيليه من ردّ بتلك الثقة الفاترة التي يُجيب بها الأشخاص الراشدون من هم أصغر سنًّا: "لا تكن غبيًّا! يجب أن تذهب إلى الحفلة، لقد قبلنا دعوة السيدة فالكون"

"لكن، ليس بإمكانهم إجباره على الذهاب"

كان لا يزال يتردد في الدخول، بينما كانت المربية تتوجه إلى المنزل وهي تطأ بقدميها العشب المُغطّى بالندى. كان يعرف ذلك. سوف يُجيب والدته. حدّث نفسه: "بإمكانكم أن تقولوا لها بأنني مريض. لن أذهب. فأنا أخاف من الظلام"

وسوف تقول له والدته حينئذ: "لا تكن غبيًّا! أنت تعلم بعدم وجود ما يُخيف في الظلام!"... لكنه كان يعلم جيّدًا أيضًا خطأ تلك الفكرة، كما يعلم كيف يقولون أيضًا بأنه لا يوجد ما يُخيف في الموت، وكيف أنهم يتجنبون بكل رهبة حتى مجرد التفكير به، لكن ليس بإمكانهم إجباره الذهاب إلى تلك الحفلة...: "سوف أصرخ، وأصرخ..."

ثم سمع صوت مربيته: "فرانسيس، تعال إلى هنا"

شاهد عبر الوميض الباهت للمصباح الذي تحمله، تلك الحلقة الصفراء الصغيرة من الضوء التي كانت تتنقل من الشجرة إلى الشجيرة ثم تعود إلى الشجرة وأجابها بصوت مرتفع وبقنوط وهو يغادر المنطقة المُضاءة من المدخل:

"أنا قادم"...

فلم يكن بإمكانه أن يضع نفسه في الموقف الذي يكشف فيه عن أسراره الأخيرة تلك، وأن يُنهي ذلك التحفّظ الكائن بينه وبين والدته، لكن لا زال لديه ذلك الملاذ الأخير... سوف يلجأ إلى السيدة هين فالكون.

وكان قد قام بمواساة نفسه بتلك الفكرة وهو يتقدّم بثبات نحو الرواق. كان يبدو صغير الحجم جدًّا بالنسبة إلى حجمها الكبير. كان قلبه قد خفق بشدّة إلا أنه استطاع السيطرة على نبرة صوته وقال للسيدة فالكون بلهجة مُبالغ في رقتّها:

"مساء الخير سيدة فالكون! كان من اللطف أن توجهي إليّ الدعوة إلى حفلتك"

كان يبدو وهو يتكلم بذلك الوجه المشدود المرفوع نحوها وبذلك الأسلوب الخطابي المُنمّق، أشبه برجل عجوز، ذلك لأن فرنسيس لم يكن يختلط كثيرًا مع باقي الأولاد، كما أنه بالنسبة إلى توأم، كان في كثير من الأمور بمثابة الولد الوحيد، فهو عندما يُخاطب بيتر، يكون ذلك بمثابة تحدّثه إلى صورته في المرآة، وكما لو أن في تلك الصورة بعض التعديل كان قد تسبب به صِدع في المرآة، ما يجعلها تعكس له صورة ما كان هو عليه، وليس شبهًا لما كان يتمنى أن يكون عليه. شخص لا يشعر بذلك الخوف المُفرط من الظلام، ولا من وقع أقدام الغرباء، ولا من طيران الخفافيش في الحدائق التي يملؤها الظلام.

قالت السيدة فالكون وهي شاردة الذهن:

"يا لك من طفل لطيف!"

وكانت تُلوّح بيدها للأطفال كما لو أن أولئك الأطفال كانوا سِربًا من الدجاجات. كانت قد وضعتهم في دوامة من برامج التسلية: البيض والملاعق، مسابقة الأرجل الثلاث، اصطياد التفاحات، وغير ذلك من الألعاب التي لم تكن تحمل لفرانسيس سوى الإذلال. كان بإمكان فرانسيس أثناء فترات الاستراحة المتعددة، التي لم يكن أثناءها مُطالبًا بالقيام بشيء، أن يقف بمفرده أبعد ما يمكن عن نظرات الاحتقار التي كانت ترمقه بها مابل وارنر، لكي يُخطط لكيفية تجنّب الخطر القادم إليه من الظلام. وكان يعلم بأنه لا يوجد ما قد يخشاه إلى أن يتم الانتهاء من تناول الشاي، وليس قبل أن يكون قد جلس في حوض الضياء الأصفر الذي كانت تنشره تلك الشموع العشر التي كانت على كعكة عيد ميلاد السيدة فالكون. لكنه أدرك حينئذ فقط قرب حدوث ما كان يخشاه، وبينما كان في ذلك الاضطراب، كانت قد بدأت تتوارد إلى ذهنه فجأة، أكثر من اثنتي عشرة خطّة مُتناقضة، ثم سمع صوت جويس المرتفع وهي تقول:

"سوف نلعب لعبة الاختباء في الظلام (الغميضة) بعد استراحة الشاي"

قال بيتر وهو يرقب وجه فرانسيس بشفقة وبتفهّم تام لمعاناته: "لا، فنحن نلعبها كل عام، لا تطلبي منا أن نلعبها اليوم أيضًا"، وصاحت مابل: "لكنها مُدرجة في البرنامج، شاهدت ذلك بنفسي عندما ألقيت عليه نظرة من خلف كتف السيدة فالكون كانت تكتب: الساعة الخامسة تناول الشاي، ومن الساعة السادسة إلى السابعة والنصف، لعبة الاختباء في الظلام".

لم يعمد بيتر إلى مجادلتها، فما دامت لعبة الاختباء في الظلام قد أدرجت فعلًا في ذلك البرنامج، لن يكون بالإمكان تجنّبها بأية حجّة من الحجج التي قد يُدلي بها.

وكان قد طلب قطعة أخرى من الكعك، وأخذ يرتشف الشاي ببطء وهو يُفكّر: "قد يكون بالإمكان تأخير تلك اللعبة لربع ساعة فقط، مما سيسمح لفرانسيس على الأقل ببضعة دقائق إضافية يضع خلالها خطته"...

لكن بيتر كان قد أخفق في ذلك، فقد بدأ الأولاد يُغادرون المائدة بمجموعات من ثلاثة أو أربعة معًا وكان ذلك هو الفشل الثالث في خططه.

ثم شاهد بيتر مرّة أخرى، بانعكاس الصورة من ذهن لآخر (بين التوائم) صورة طائر كبير يلفّ بجناحيه وجه شقيقه بالظلام، لكنه سرعان ما لام نفسه على ذلك الجنون.

وكان بيتر بعد أن أنهى قطعة الكعك قد بدأ يشعر بالشجاعة وهو يتذكّر العبارة التي يُكرّرها الراشدون على الدوام: "على الرجل الراشد أن يتماسك، فليس هناك ما قد يخشاه المرء من الظلام!"

كان الشقيقان آخر من غادر المائدة. توجها إلى الرواق حيث استقبلتهما عينا السيدة فالكون بنظرة مُتفحّصة ضَجرة، ثم قالت: "سوف نلعب الآن لعبة الاختباء في الظلام"

رقب بيتر وجه شقيقه وشاهد كما كان يتوقع شفتيه المشدودتين. فهو يعلم بأن فرانسيس كان يخشى تلك اللحظة منذ بداية الحفلة، وبأنه كان ولابد قد حاول أن يواجه ذلك بشجاعة، ثم تخلى عن تلك المحاولة. كما أنه كان ولابد قد توسّل إلى الله بيأس لكي يستطيع أن يجد حيلة يتفادى بها تلك اللعبة، التي رحّب بها جميع الأولاد وهم يهتفون بحماس: "دعونا نلعبها، يجب أن نختار الجوانب، هل يوجد في المنزل منطقة خارج حدود اللعبة؟ أين سيكون المركز الخ...؟"

حينئذ تقدّم فرانسيس من السيدة مالكون وقال لها:

"أعتقد بأنه لا مجال لاشتراكي في هذه اللعبة، فسوف تأتي مربيتي لمرافقتي إلى المنزل بعد فترة وجيزة"

وقالت السيدة فالكون وهي شاردة الذهن بينما كانت تُصفق بيديها لاستدعاء باقي الأطفال الذين كانوا قد بدأوا بصعود السلالم العريضة:

"فرانسيس! بإمكان مربيتك أن تنتظر ولن تجد والدتك ضَيرًا من ذلك"

كان ذلك هو الحدّ النهائي لمحاولات فرانسيس الاحتيال للتهرّب من تلك اللعبة. لم يكن بإمكانه أن يُصدّق بأن هذا المبرر الذي كان قد أعدّ له جيّدًا لم يكن ناجعًا، وكان كل ما كان بإمكانه أن يفعله في الوقت الحاضر هو أن يقول، بذات الصوت المُنمّق، الذي كان يجعل باقي الأولاد ينفرون منه دومًا، لاعتقادهم بأن فيه ما يوحي بالغرور: "أظن بأن من الأفضل لي ألا ألعب"

ثم وقف دون حراك... كان مُتماسكًا كما كانت معالم وجهه هادئة على الرغم من الخوف الذي كان يعتريه.

لكن الخوف الذي كان فيه فرانسيس كان قد وصل إلى ذهن شقيقه بيتر (بانعكاس الأحاسيس بين التوائم)... وكان بالإمكان أن يصرخ بيتر أيضًا خوفًا من انطفاء الأضواء الساطعة التي كانت ستتركه في جزيرة من الظلام، مُحاطًا بوقع الأقدام

الغريبة. لكنّه تذكّر بأن ذلك الإحساس بالخوف ليس خوفه هو، وإنما هو خوف شقيقه التوأم وقال باندفاع:

"رجاء سيدة فالكون، لا أعتقد بأن على فرانسيس أن يلعب ذلك لأن الظلام يجعله يقفز هكذا..."

كانت تلك هي الكلمات الخطأ، فقد تحلّق ستة من الأولاد حول فرانسيس بوجوههم التي كانت عليها أقنعة من زهور عباد الشمس الكبيرة، وبدأوا يهتفون بأسلوب أخرق: "الجبان... الجبان"

قال فرانسيس حتى بدون أن ينظر إلى وجه شقيقه:

"سوف ألعب بالطبع... لست خائفًا، كنت قد اعتقدت فقط"

لكن معذبوه من البشر كانوا قد أهملوه، حتى قبل أن يكون قد أكمل كلامه. وبذلك أصبح بإمكانه وهو في عزلته أن يفكّر في اقتراب عذابه النفسي ذلك العذاب الذي لا حدّ له.

ثم تدافع الأولاد حول السيدة فالكون، وكانت أصواتهم الحادّة تُمطرها بالأسئلة وبالاقتراحات، بينما كانت تُجيب:

"نعم، في أي مكان في المنزل، سوف نُطفئ جميع الأنوار، نعم، بإمكانكم الاختباء في الخزائن، يجب أن تبقوا في مخابئكم أطول فترة ممكنة، لا يوجد مكان مُحدّد لاختبائكم في المنزل"

وقف بيتر أيضًا جانبًا، وهو يشعر بالخجل من الأسلوب الأخرق الذي لجأ إليه في محاولة مساعدة شقيقه. ذلك لأن كل ما كان فيه فرانسيس من امتعاض لما أبداه من بطولة كان قد بدأ يزحف إلى ذهنه أيضًا.

ركض بعض الأولاد إلى السلالم ثم تم إطفاء أنوار الطابق العلوي وبدأ الظلام ينتشر، كما لو أن الخفافيش كانت تنشر أجنحتها وتتوضّع على قرص السلالم. كما بدأ آخرون بإطفاء الأنوار في جوانب الرواق، إلى أن اجتمع جميع الأطفال في مركز ضوء المصباح الكهربائي، في الوقت الذي ذلك كانت فيه الخفافيش تضرب بأجنحتها ضربات عنيفة بانتظار إطفاء باقي الأنوار.

قالت فتاة طويلة القامة: "سوف تكون أنت وفرانسيس مع المجموعة التي سوف تختبئ"، ثم تم إطفاء باقي الأنوار.

شعر فرانسيس بأن البساط كان يتحرك تحت قدميه وبأن صوت وقع الأقدام الذي كان أشبه بصوت تيارات الهواء الباردة التي تتسلّل في الزوايا.

تساءل بيتر: "أين فرانسيس؟ لو لحقت به فسوف يتضاءل شعوره بالفزع من جميع الأصوات. تلك الأصوات التي تخترق الصمت، صرير باب المخلوع، وصوت إغلاق أبواب الخزائن باحتراس، وصوت أنين الخشب المصقول عندما تلمسها الأنامل..."

وقف بيتر في منتصف الطابق المظلم الموحش لكنه لم يكن يُصغي، وإنما كان بانتظار توارد ما كان يجول في ذهن شقيقه إلى ذهنه، أينما كان المكان الذي اختبأ فيه.

لكن فرانسيس كان في ذلك الوقت جاثمًا على الأرض، وهو مُغمض العينين، وقد وضع أصابعه على أذنيه. كان ذهنه قد أصبح خَدِرًا تجاه مختلف الأحاسيس والانطباعات، ما عدا الاضطراب الذي كان فيه.

ثم نادى صوت: "أنا قادم"

وكان بيتر قد قفز من وقع الخوف، كما لو أن رباطة الجأش التي كان فيها شقيقه، كانت قد تضعضعت لدى سماعه ذلك الصراخ. لكن ذلك الخوف لم يكن خوفه هو، وإنما كان ما يتوقعّه من ذلك لخوف الذي سيكون فيه شقيقه التوأم الآن. ولم تكن تتوارد إلى ذهنه في تلك اللحظة أية أفكار ماعدا تلك الهواجس التي زادت من اتقاد إحساسه بالعاطفة نحو شقيقه ما جعل ذهنه يتلبّد. وتساءل:

"لو كنت مكان فرانسيس فما هو المكان الذي سيخطر ببالي أن أختبئ فيه؟"

كان ذهنه في مثل ذلك الاضطراب... وبما أنه حتى لو لم يكن فرانسيس، فهو على الأقلّ مرآة عنه، فقد تواردت إليه الإجابة على الفور: "بين الأريكة الجلدية ومكتبة السنديان"

ولم يكن بيتر قد شعر بالدهشة من سرعة توارد الإجابة إلى ذهنه، فليس هناك بين التوائم أي كلام لا يمكن أن يتم فهمه بواسطة تخاطر الأفكار لأنهما كانا معا في رحم واحد ولا يمكن أن يفترقا، وبذلك توجّه بيتر على رؤوس أصابعه باتجاه المكان الذي كان فرانسيس مختبئًا فيه.

كان يُسمع من حين لآخر صوت قعقعة الألواح الخشبية. خاف بيتر من أن يعثر عليه أحد من كانوا يبحثون عن المختبئين، لذا انحنى وخلع حذائه. لكن الجزء المعدني من الحذاء ارتطم بالأرضية وأصدر صوتًا يشير إلى وجود بعض الأقدام الحذرة التي تتوجه إلى ذلك المكان. لكنه في ذلك الوقت كان قد بدأ يمشي بجواربه فقط. كان سيضحك في سره من هذه المطاردة لو لم يكن قلبه قد قفز من وقع

المفاجأة، عندما سمع صوت شخص يتعثر بالحذاء الذي تركه على الأرضية، فلم تعد هناك أية ألواح خشبية قد تكشف عن تقدّمه في السير بجواربه فقط وبدأ يتوجّه نحو هدفه بصمت دون أن يخطئ.

ثم أوحت إليه غريزته بأنه أصبح بقرب الجدار، لكنه عندما مدّ يده إلى الأمام كانت قد وقعت على وجه شقيقه. لم يكن فرانسيس قد صرخ، لكن صوت ضربات قلبه كشفت لبيتر عن مقدار ما كان فيه من ذعر.

همس بيتر وهو يتحسس جسم شقيقه إلى أن توصّل إلى الإمساك بيده:

"لا بأس، هذا أنا، لا أحد سواي، سوف أبقى معك"

ثم أمسك باليد الأخرى بإحكام وكان في ذلك الوقت قد بدأ يسمع فيض من الهمسات التي تسبب بها ما همس به لشقيقه.

كانت يدُ خزانة قد لمست الكتب القريبة من رأس بيتر وبذلك أدرك بيتر بأن خوف فرانسيس لابد أنه قد استمر على الرغم من وجوده بجانبه. لكنه كان يأمل بأن يصبح ذلك الخوف كان أقل حدّة، وبأن يكون بإمكانه احتماله، إلا أنه لم يشعر تمامًا بالاطمئنان.

كان بيتر يعلم جيّدًا بأن ما كان يشعر به هو أيضًا من خوف كان شعور أخيه التوأم، وليس الشعور النابع من ذاته. ذلك لأن الظلام بالنسبة إليه ليس سوى غياب الضوء، وهو اليد التي تتلمّس الطريق الآن في الظلام للوصول إلى طفل يعرفه.

ثم انتظرا بصبر أن يتم العثور عليهما.

لم يكن بيتر قد تفوّه بعد ذلك بأية كلمة، فتلك اللمسة التي تمت بينه وبين فرانسيس كانت كافية لأن تكون وسيلة التواصل الأكثر حميمية بينهما. ذلك لأن الأفكار بإمكانها أن تتدفق بينهما باشتباك الأيدي، وبأسرع مما قد يتم التعبير عنه بالكلمات التي ترتسم على الشفاه، وكان بإمكان بيتر أن يعرف بالخبرة ما يحدث من تطور في انفعالات شقيقه فرانسيس بمجرد لمسه لنبضه الذي كان يتسارع ويتسارع مع ضربات قلبه لشدة الخوف.

فكّر بيتر مورتون وكان يشعر بأنه قوّي:

"أنا هنا. لا حاجة لأن تشعر بالخوف فسوف تُضاء المصابيح بعد قليل. لا يوجد ما يُخيف في هذه التحركات، ولا في ذلك الحفيف الذي تسمعه، إنهما جويس ومابل وارين"

وكان بما كان يورده لنفسه من حجج، قد أوقف خوف شقيقه، ولكن ظاهريًّا، إلا أنه كان يدرك أيضًا بأن ذلك الخوف لا يزال مستمرًا. كان يقول:

"ها قد بدؤوا بالتهامس، هم يبحثون عنا، سوف نفوز، لا تخف، هم يتحسسون الآن الطريق إلى الأضواء. هذه صوت أرجل تتحرك على البساط. هذا صوت احتكاك الأيدي بالجدار. هذا صوت سحب الستارة. هذا صوت صادر عن قبضة يدّ باب الخزانة التي يحاولون فتحها. هذا صوت سقوط كتاب غير ثابت من المكتبة على إثر لمسة. ليته يسقط على رأس جويس أو على رأس مابل أو على رأس السيدة فالكون"

كان ذلك أشبه بهلال من الأفكار المُطمئنةإلى أن قبل أن كان المصباح الهربائي قد أضاء فجأة أشبه بشجرة مُثمرة في أوج تفتّحها.

علت أصوات الأولاد ببهجة وهم يهتفون:

"أين بيتر؟ هل بحثتم في الطابق العلوي؟ أين فرانسيس؟ لكن الأصوات كانت قد صمتت فجأة إثر صرخة أطلقتها السيدة فالكون، ولم تكن السيدة فالكون فقط من لاحظ ما كان عليه فرانسيس من سكون في المكان الذي كان قد سقط فيه بجانب الجدار عندما لمس شقيقه يده.

وكان بيتر قد استمر بالإمساك بأصابع شقيقه المُطبقة بإحكام وهو يشعر بالدهشة وبحزن شديد. لم يكن شقيقه قد مات إلا أنه لم يكن بإمكان ذهن بيتر الذي كان لا يزال غرًّا أن يُدرك سبب ذلك التناقض.

وكان بيتر قد ظلّ يتساءل بإشفاق عن سبب استمرار ذلك الارتفاع في نبض شقيقه لشدة الخوف في الوقت الذي كان فيه قد أعلم فرانسيس بعدم وجود أي سبب للخوف وبأنه لن يكون هناك مزيد من الظلام.

النافذة المفتوحة

The open window

للكاتب مونرو ساكي

قالت شابة في الخامسة عشر للضيف بكل جدّية:

"سيد نوتيل، سوف تكون خالتي هنا بعد قليل، لذا سيكون عليك أن تُحاول احتمالي أثناء ذلك"

وكان السيد فرامتون نوتيل قد حاول أن يقول الشيء المناسب الذي يمتدح به في حينه ابنة الأخت، دون أن يُسقط من حسابه الخالة التي كانت ستأتي بعد قليل، لكنه في سرّه يشكّ، أكثر من قبل بأن يكون لتلك الزيارات الرسمية المُتتالية التي عليه أن يقوم بها لأشخاص غرباء عنه تمامًا، فائدتها في المساعدة على علاج أعصابه.

كانت شقيقته قد قالت له، عندما كان يستعد للنزوح إلى منزله الريفي المُنعزل:

"أنا أعلم تمامًا كيف سيكون الوضع هناك. سوف تدفن نفسك هناك، ولن تتحدث مع أي كائن حيّ، وسوف يسوء وضعك النفسي أكثر من أي وقت مضى من شدّة الاستغراق في التفكير، لذاى سوف أزوّدك فقط ببعض رسائل التعريف إلى جميع الأشخاص الذين كنت عرفتهم هناك. كان بعضهم بقدر ما بإمكاني أن أتذكّر ظرفاء جدًّا"

تساءل فرامتون فيما إذا كانت السيدة سابلتون التي سيُقدم نفسه إليها الآن من تلك الفئة اللطيفة.

وكانت ابنة الأخت عندما وجدت بأن الصمت طال بينهما قد سألته:

"هل تعرف الكثير من الأشخاص هنا؟"

قال فرامتون: "لا أحد على الإطلاق، لكن شقيقتي التي كانت كما تعلمين قد أقامت في الأبرشية لمدة أربع سنوات تقريبًا قد زودتني ببعض رسائل التعريف إلى بعض الأشخاص هنا"

وكان فرامتون قد أدلى ذلك بلهجة من الأسف الواضح.

ثم استأنفت الشابة حديثها بكل رباطة جأش:

"فإذن، أنت عمليًّا لا تعرف شيئًا عن خالتي!"
أكدّ الضيف على كلامها بالقول:
"ما أعرفه هو اسمها وعنوانها فقط"
وكان يتساءل فيما إذا كانت السيدة سابلتون متزوجة أم أرملة، فقد كان في شكل الغرفة شيء غير محدّد يوحي بمسكن ذكوري.
قالت الطفلة: "كانت مأساتها الكبيرة قد حدثت منذ ثلاث سنوات أي في الوقت الذي كانت فيه شقيقتك هنا"
سألها فرامتون باستغراب: "مأساتها؟"
فبشكل وآخر، لم يكن في مثل تلك المنطقة الهادئة، ما يبدو بأنه قد يتسبب بالمآسي.
ثم قالت ابنة الأخت وهي تُشير إلى نافذة فرنسية واسعةٌ تطل على مرج أخضر.
"قد تتساءل عن السبب الذي يجعلنا نترك هذه النافذة مفتوحة في مثل هذا اليوم من أيام شهر تشرين الأول/أكتوبر"
قال فرامتون: "لكن الطقس دافئ تمامًا في مثل هذا الوقت من العام، ولكن هل لذلك علاقة بالمأساة؟"
واستطردت الطفلة:
"منذ ثلاث سنوات، وفي مثل هذا اليوم، ومن هذه النافذة بالذات كان زوجها وشقيقيّها الأصغر سنًّا قد خرجوا معًا إلى الصيد ولم يعودوا أبدًا. فعندما كانوا يجتازون المستنقع إلى المكان المفضّل لديهم لصيد طيور الشُنقب كان جزء إسفنجي غادر من المستنقع قد ابتلعهم.
كان ذلك ما حدث دون سابق إنذار في ذلك الصيف المفزع الرطب، كما تعلم، حيث أن الأماكن التي كانت آمنة في السنوات السابقة قد انخسفت فجأة، والشيء المروّع هو أنه لم يتم العثور على جثثهم أبدًا"
وكان صوت الطفلة هنا قد فقد نبرة الهدوء، وأصبح مضطربًا وعاطفيًّا وهي تقول:
"مسكينة خالتي! هي تعتقد دومًا بأنهم سوف يعودون ذات يوم، ومعهم ذلك الكلب الصغير البني اللون الذي كان قد فُقد أيضًا في ذات اليوم، وبأنهم سوف يدخلون كعادتهم من هذه النافذة بالذات، لذا تبقى هذه النافذة مفتوحة إلى أن يحلّ الغسق تمامًا. مسكينة خالتي العزيزة! هي تروي لي دومًا كيف كان شكلهم عندما خرجوا من المنزل. كان زوجها يحمل على ساعده معطفه الأبيض الواقي من المطر، وكان روني شقيقها الأصغر يُغني: "بيرتي، لماذا تَثبين هكذا؟" لأن هذا ما كان يفعله دومًا

لكي يُغيظها، لأنها كانت تقول بأن ذلك يضرب على أعصابها... أتعلم؟ يستولي عليّ أحيانًا في مثل هذه الليلة الهادئة، شعور مفزع، بأنهم سوف يدخلون عبر هذه النافذة"

ثم توقفت عن الحديث بهزّة خفيفة من كتفيها.

وكان اقتحام خالتها الغرفة بعاصفة من الاعتذارات عن تأخرها في المجيء، بمثابة النجدة بالنسبة إلى فارمتون.

قالت الخالة: "آمل أن تكون فيرا قد آنستك قليلًا"

قال فرامتون: "كان حديثها مُمتعًا جدًّا"

ثم قالت السيدة سابلتون:

"آمل ألا تجد مانعًا في أن نترك هذه النافذة مفتوحة، فسوف يعود زوجي وشقيقيّ إلى المنزل مباشرة من الصيد. خرجوا اليوم لاصطياد طيور الشُنقب في المستنقعات، وهم يدخلون دومًا من هذا المكان، وبذلك سوف ينشرون القذارة على سجاجيدي عندما يدخلون. وهذا مثلكم جميعًا معشر الرجال أليس كذلك؟"، ثم استمرت في الثرثرة بكل غبطة عن الصيد وعن ندرة الطيور، وعمّا هو مُتوقّع بالنسبة للبط أثناء فصل الشتاء.

كان ذلك بالنسبة إلى فرامتون بمنتهى الشناعة. وكان يبذل جهدًا يائسًا في محاولة توجيه مجرى الحديث إلى موضوع أقل رهبة. فقد أدرك بأن مُضيفته لم تكن توليه سوى جزء بسيط من اهتمامها، وبأن عينيها كانتا تتجاوزانه إلى تلك النافذة المفتوحة، والى المرج الذي يقع خلفها. وكان من أتعس المصادفات بالتأكيد أن يقوم بهذه الزيارة مع ذكرى تلك المأساة.

قال فرامتون الذي كان يحاول بما كان فيه من وهم كبير بأن يكون لدى هؤلاء الغرباء عنه تمامًا -والذين تعرّف عليهم بهذه المعرفة الاتفاقية- ولو بعض الاهتمام بمعرفة أقلّ التفاصيل عن أسلوب التغذية وعن العلل/الأمراض:

"أجمع الأطباء على أن عليّ أن ألتزم بالراحة التامة، وأن أبتعد عن الانفعالات النفسية، وأن أتجنب أي نوع من الجهد البدني"، واستمر في القول: "أما بالنسبة للحمية الغذائية فلم يتفقوا تمامًا على ذلك"

قالت السيدة سابلتون بملل وبصوت كان قد حلّ في اللحظة الأخيرة محلّ التثاؤب:

"لا! ألم يتفقوا؟"

ثم أشرق وجهها فجأة بالاهتمام لكن لم يكن ذلك لاهتمامها بما كان يقوله فرامتون، وصاحت:

"ها هم أخيرًا، وفي موعد تناول الشاي بالضبط، ألا يبدون وكأن الوحل قد غطّاهم من الفرق إلى القدم؟"

كان فرامتون قد ارتعد قليلًا واستدار نحو ابنة الأخت بنظرة كان ينوي بها التعبير عن تعاطفه مع خالتها، لكن الطفلة كانت تُحدق بالنافذة المفتوحة، وفي عينيها نظرة رعب وانبهار.

كان فرامتون بقشعريرة من صدمة وفزع لا يمكن أن يوصف، قد استدار بمقعده، ونظر إلى نفس الاتجاه.

وهناك، في عمق الشفق كانت ثلاثة أشكال تتجه عبر المرج نحو النافذة. كانوا جميعًا يحملون بنادقهم تحت ذراعهم، كما كان أحدهم يحمل على كتفيه، بالإضافة إلى ذلك، معطفًا أبيض اللون، كما كان يقف بين أرجلهم كلب متعب صغير وبني اللون.

اقتربوا من المنزل بسكون، ثم سُمع في ذلك الغسق، صوت مبحوح لشاب وهو يُنشد:

"قلت، لماذا تَثبين هكذا بيرتي؟"

وكان فرامتون قد انتزع عصاه وقبعته كالمسعور وكانت عتبة الباب، والطريق المفروشة بالحصى، والسياج الأمامي، وجهته الغامضة في انسحابه الأرعن ذاك، ما أدى إلى أن يقتحم أحد راكبي الدراجات السياج لكي يتفادى تصادمًا كان وشيكا.

حينئذ قالت السيدة سابلتون:

"هذا الشخص غريب الأطوار جدًّا، فليس بإمكانه أن يتحدث سوى عن مرضه. كان قد اندفع بسرعة إلى الخارج عندما وصلتم حتى دون كلمة وداع أو اعتذار، قد يخطر ببال المرء بأنه شاهد شبحًا"

حينئذ قالت ابنة الأخت:

"أعتقد أن ذلك كان بسبب هذا الكلب الصغير، كان قد أعلمني بأنه يخاف جدًّا من الكلاب لأن مجموعة من الكلاب الضالّة كانت قد طاردته في إحدى المقابر على ضفاف نهر الغانج، ما اضطره لقضاء تلك الليلة في قبر كان قد فُتح حديثًا، وبأنه كان يسمع طوال الوقت أصوات تلك المخلوقات وهي تُزمجر وتُكشّر وتُزبد فوق رأسه وفي ذلك ما يكفي لكي يفقد المرء أعصابه.

كان تأليف قصص المغامرات على الفور من اختصاصها.

الشجاعة وحضور البديهة

Courage and presence of mind

من مجموعة قصص كافح وتقدّم الموجهة للناشئين

كان جورج وإدوار وهما صديقان يُقيمان في منزل مُجاور، قد ذهبا معًا ذات يوم للتزلج على الجليد فوق البركة التي تقع إلى جانب الطاحون والتي كان الطقس القارص قد أدى إلى تجمّد مياهها تمامًا، وهو ما جعلهما يعتقدان بأن سطح البُركة قد أصبح بصلابة الصخور وبأنهما سوف يكونا بذلك بأمان بتزلجهما فوق ذلك الجليد.

ركض الولدان ببهجة وهما يحملان أحذية التزلج على الجليد ويتطلعان إلى المتعة التي سيجدانها في التزلج. وكانا عندما وصلا إلى قِمّة الهضبة التي تُطلّ على البركة قد شاهدا هناك هنري وهو أحد رفاقهما في المدرسة. كان هنري بتزلج على السطح الأملس للجليد بسرعة أشبه بطيران الطيور، لكنه كان قبل أن يُتمّ جولته الأولى قد انزلق على الجليد الذي تحطم فجأة تحت قدميه وبذلك سقط داخل الماء المُتجمد وأخذ يصرخ برُعب شديد وهو يكافح للخروج من الماء.

كان إدوار عندما شاهد ذلك قد شعر بفزع شديد ما جعله يرمي حذاء التزلج ويركض عائدًا أدراجه إلى المنزل وهو يصرخ. لكن صديقه جورج الذي كان حاضر البديهة وأكثر شجاعة من إدوار كان قد تناول على الفور قضيبًا طويلًا وجده إلى جانب الشاطئ وأسرع لنجدة الفتى الذي كان على وشك الغرق.

كان هنري قد سقط في منقطة رقيقة جدًّا من الجليد وكان كلما حاول التحرّر من الجليد الذي تحطم من ثقل جسده يغوص من جديد داخل المياه المتجمدة، ولو أن هنري كان قد ظلّ في مكانه وتمسّك بأطراف الجليد لكان بإمكانه أن يصعد إلى السطح، لكن الماء كان باردًا جدًّا وهذا ما جعله يشعر خلال فترة قصيرة بأن جسده قد شُلّ تمامًا، وبأنه قد فقد تمامًا القدرة على التماسك.

كان هنري سوف يغرق بالتأكيد تحت ذلك الجليد قبل أن يتمكن إدوار الذ أصيبب الذعر من إنذار أصدقائه والعودة معهم لنجدته.

أما جورج فكان أكثر شجاعة من إدوار وبذلك كان قد أسرع بتناول قضيب شاهده إلى جانب البركة وركض بأكثر ما بإمكانه من سرعة نحو المكان الذي كان هنري يكافح فيه للخروج من الماء المتجمد. ونادى:

"لا تخف هنري، سوف آتي إليك وسوف أخرجك من الماء"

وبذلك كان هنري قد توقف عن جهوده المُضنية للخروج من المياه وظلّ ساكنًا في مكانه إلى أن اقترب جورج من المكان الأكثر أمانًا في البركة ومدّ إليه القضيب عبر الماء بحيث أصبح كل طرف منه في المكان المُتجمد الصلب من المياه، ثم قال لهنري:

"تمسّك الآن بهذا القضيب الخشبي..."

ومن المؤكد أن الفتى البائس لم ينتظر طويلًا وكان على الفور قد تمسّك بالقضيب بيديه الاثنتين، وكان جورج قد زحف حينئذ نحو المكان الذي سقط فيه هنري لكي يتمكن من الإمساك بإحدى يديه. وهو يقول بصوت هادئ:

"لا ترتبك هنري... لا ترتبك!"

إلى أن استطاع الإمساك بيدّ الفتى الذي كان في الماء على الرغم مما كان في ذلك ما يُعرضّه الخطر، واستطاع بعد لحظة أن يسحب هنري من الماء وبذلك أنقذه من خطر الغرق.

وكان الاثنان وهما في طريق العودة إلى المنزل قد شاهدا مجموعة من الرجال وعلى رأسهم إدوار الذي كانت صرخاته للنجدة قد جعلتهم يسرعون بالقدوم لإنقاذ الفتى الغريق.

كان جورج قد شعر بعد ذلك بالكثير من الفخر والسرور لما لقيه من مديح ومن إشادة الجميع بشجاعته وبحسن تصرفه، لكن سروره لم يكن بقدر سعادته بإنقاذ حياة رفيقه.

وكان والد إداور في مساء ذلك اليوم قد اصطحب ابنه إلى غرفته وكانعندما أصبحا بمفردهما قال له:

"بُني، كيف حدث أنك لم تتصرف مثل جورج بأن تسارع إلى مساعدة هنري عندما شاهدته يسقط داخل المياه الجليدية؟"

أجاب الفتى: "كنت خائفًا وبذلك لم أعلم ما علي أن أفعله"

قال والده: "لكن خوفك كان سيؤدي إلى أن يخسر هنري حياته لولا وجود الفتى الآخر الذي أنقذه"

أطرق إدوار رأسه بأسف وقال:

"آسف جدًّا! لكنني لم أكن قد استطعت السيطرة على خوفي زمن أن أتمالك نفسي"
أجانب والده: "لا تقل هذا بُني فذلك الخوف أو لنقل ذلك الجبن هو ضعف كبير كان قد استولى عليك"
من واجب كل شخص أن يتغلب على ضعفه، علينا أن نتحلى بالشجاعة وأن نكون على استعداد حتى للمخاطرة بأرواحنا لكي نُنقذ الآخرين. لن يصاب من يخاطر بحياته لمساعدة الآخرين بالأذى لأن الله عزّ وجلّ يحمي من يبحثون عن تقديم العون للآخرين. والآن دَعني أروي لك ما حدث معي عندما كنت في سنك:
كان اثنان من الصبية يلعبان إلى جانب جدول المياه. كان أحدهما في الرابعة بينما كان الثاني في السابعة من عمره. وكان فرانك الولد الأكبر وهو يلهو ببناء بيت من بعض القضبان التي كان قشد جمعها من تحت الأشجار قد سمع صوت سقطة، وكان عندما نظر إلى الخلف قد شاهد رأس شقيقه الأصغر الذي كان قد سقط داخل الجدول. كان الصغير يحاول جاهدًا الخروج من الماء، لكن المياه في الجدول كانت عميقة وضيقة وكان الجدول مُحاطًا بالجدران من الجانبين ولم يكن هناك أي أمل بأن يتمكن الطفل من الخروج منها بنفسه.
كان فرانك عندما شاهد ذلك قد شعر بخوف شديد وبدأ قلبه بخفق بشدّة. تساءل ما الذي عليه أن يفعله؟ أن يركض لكي يطلب المساعدة؟ لا... لن يفعل ذلك! صحيح أن فرانك كان صغير السن لكنه كان شجاعًا وسريع البديهة. وبذلك كان بدلاً من أن يسرع إلى المنزل لطلب من يساعده في إنقاذ شقيقه من الغرق، قد أسرع بالإمساك به بكل ما لديه من عزم إلى أن نجح في سحبه من الماء على الرغم من أنه كان على وشك الغرق داخل الجدول. وهكذا كان فرانك بشجاعته وبسرعة بديهته قد أنقذ شقيقه من الغرق.
كان أهل أولئك الأطفال الذين يقيمون إلى جانب الطاحونة قد سمحوا لهم باللعب حول المكان كلما رغبوا بذلك لأنهم لم يعودوا يخشون عليهم من المخاطر، أكثر مما نفعل عندما نرسل أولادنا إلى المدرسة ويكون عليهم اجتياز الجسر عبر الطريق.
حسنًا... وما حدث أيضًا؟
ذات مرّة أنه بينما كان الطفلان يلعبان إلى جانب قناة تصريف المياه، إذا بالطفل الأصغر الذي كان قد سقط سابقًا في الجدول يتعثر ويسقط في الماء. شاهده فرانك وكان خلال لحظة قد خلع ملابسه وركض نحو السياج المفتوح الذي يندفع منه

الماء. كان تأخيره للحظة واحدة سوف يؤدي إلى كارثة، لو أن فرانك كان قد أصيب بالرعب إلى الحدّ الذي يجعله عاجزًا عن التصرف بسرعة، ولو أنه كان قد تردد للحظة لكان شقيقه قد غرق. لكن الطفل الشجاع كان قد أسرع لنجدته وانحنى إلى الأسفل وأمسك بشقيقه من ثيابه.كان المياه تتدفق بسرعة فائقة، وبذلك كان على فرانك أن ينحني كثيرًا إلى الأسفل إلى أن شعر بأن قِواه قد بدأت تخور وبأنه بذلك لن يتمكن من سحب شقيقه من المياه، لكنه كان مع ذلك كان قد تماسك وأخذ يصرخ بأعلى صوته طالبًا النجدة. على الرغم من أن صوت الطاحون كان عاليًا جدًّا بحيث كان من العسير أن يسمع صرخاته أي من العاملين فيها أن يسمع، لكنه مع ذلك ظلّ متماسكًا واستمر في الصراخ. وبعد مرور خمس دقائق من المعاناة كان أحد المارين قرب الطاحون قد شاهده وبذلك ركض إليه وأنقذ الطفل الذي كاد يغرق.

وهكذا كان فرانك بشجاعته وبتماسكه قد أنقذ حياة شقيقه للمرة الثانية.

لنفترض أن فرانك كان قد أصيب بالخوف ما كان سيجعله يعجز عن التفكير وعن التصرف بالطريقة المناسبة فما الذي ستكون عليه النتيجة؟ كان شقيقه سيغرق دون شك أليس كذلك؟ بُنيّ؟"

ارتعش إدوار لمجرد الفكرة.

ثم تابع والده حديثه بالقول:

"أتعلم من كان ذلك الصبي؟ كان ذلك الصبي الصغير والدك وكان عمك فرانك من أنقذ حياته!"

هتف إدوار بدهشة: "أكان ذلك الصغير أنت أبي!"

أجاب والده: "نعم بُني، كنت قد سقطت في الجدول وكان من أنقذ حياتي هو عمك بفضل سرع تصرفه بالطريقة المناسبة، كما كنت أنا من سقط في القناة وكان عمك أيضًا من أنقذني للمرّة الثانية بشجاعته وبصفاء ذهنه"...

استرجع إدوار في مخيلته بركة الطاحون وشاهد هنري الذي كان يكافح مُحاولًا الخروج من ثقب الجليد، وشاهد كم كان من السهل عليه أن يسارع إلى مساعدته لكي يُنقذه من ذلك الوضع الخطر بدلًا من أن يركض هاربًا وقد فقد صوابه لكي يصرخ طالبًا النجدة من الآخرين بعيدًا عما كان عليه أن يقوم به بذات اللحظة، وكان قد شعر بالحزن بأن يكون صديقه على وشك الغرق لو لم يسارع جورج إلى مساعدته على الفور بما يتمتع به من شجاعة حقيقية، كما شعر في تلك اللحظة

بالندم وبتأنيب الضمير. وبذلك كان قد أخذ عهدًا على نفسه بأن يتصرف في المستقبل بشجاعة وبسرعة بديهة وبألا يَدع الخوف يُفقده صوابه مهما كانت المخاطر التي تُحيط به.

النافذة

The window

من مجموعة كافح وتقدم الموجهة للناشئين

كان رجلان يُعانيان من مرض مُزمن يُقيمان في غرفة واحدة في المشفى. كان بإمكان أحدهما أن يجلس في سريره لمدة ساعة واحدة في اليوم لكي يتخلص من السوائل في صدره وكان سريره إلى جانب النافذة الوحيدة في الغرفة، أما الرجل الآخر فكان عليه أن يُمضي الوقت مُستلقيًا على ظهره.

كان الرجلان يتحدثان معًا طوال الوقت. كانا يتحدثان عن زوجتيهما، عن عائلتهما، عن منزلهما، عن عملهما وعن المكان الذي أمضيا فيه العطل. وكان الرجل الذي يقع سريره إلى جانب النافذة عندما يجلس في سريره بعد ظهيرة كل يوم، يُمضي الوقت في وصف الأشياء التي يشاهدها من النافذة لزميله في الغرفة.

وكان الرجل المُستلقي على ظهره يعيش على تلك الساعة التي يتسع فيها عالمه ويصبح مُفعمًا بالحياة بما يرويه له زميله عما يشاهده في العالم الخارجي.

كان زميله يقول له بأن النافذة تُطلّ على حديقة تقع إلى جانب بحيرة جميلة يسبح فيها البط والإوز، ويلهو الأطفال الصغار بمراكب من الألعاب فوق تلك المياه الصافية المتدفقة في البحيرة، كما يصف له كيف يتجوّل المحبون إلى جانبها يدًا بيدّ بين الأزهار المُتعددة الألوان التي تُشبه ألوان قوس قزح، ويصف له الأشجار المرتفعة التي تُضفي جمالًا أخّاذًا على ذلك المنظر الطبيعي الساحر تحت زرقة السماء التي تبدو عن بعيد.

كان الرجل المّمدد إلى جانبه يُغلق عينيه ويتخيّل ذلك المشهد الرائع ماثلًا أمامه كلما كان الرجل الجالس بالقرب من النافذة يصفه له بتلك التفاصيل.

وذات يوم كان الرجل الجالس بالقرب من النافذة قد وصف لزميله استعراضًا عسكريًّا يمرّ إلى جانب المشفى، وعلى الرغم من أن الرجل الممدد لم يكن بإمكانه أن يسمع صوت الفرقة الموسيقية لكنه استطاع بعيني مخيلته أن يراها كما كان زميله يصفها له تمامًا.

وكان قد خطر بباله فجأة خاطرًا غريبًا:
"بإمكان هذا الرجل أن يستمتع بمشاهدة ما ليس بإمكاني أن أشاهده وهذا ليس من العدل"
ثم بدأت تلك الفكرة تتردّد في ذهنه وتثور مرّة بعد مرّة. كان الرجل قد شعر في البداية بالخجل من نفسه، لكن مع مرور الأيام ومع ازدياد شعوره بما يضيع عليه، كان حسده قد تصاعد وتحولّ إلى شعور بالاستياء ثم تحوّل شيئًا فشيئًا إلى شعور بالمرارة.
ثم بدأ ذلك الرجل يكتئب ولم يعد بإمكانه أن ينام وكان طوال الليل يُحدّث نفسه:
"يجب أن يكون سريري إلى جانب النافذة"
إلى أن سيطرت تلك الفكرة تمامًا على حياته ولم يعد يشعر بالمتعة بمجرد الاستماع إلى ما يصفه له زميله في الغرفة.
وفي وقت متأخر من إحدى الليالي بينما كان ذلك الرجل مُمددًا في سريره ينظر إلى السقف، كانت قد أصابت الرجل النائم إلى جانب النافذة فجأة نوبة من السعال الشديد وكان قد بدأ يُحاول بصعوبة إخراج السوائل من رئتيه.
كان الرجل المّمدد على سريره قد راقبه على الضوء الباهت للغرفة وهو يحاول الوصول إلى زر استدعاء الممرضة لكي تساعده، لكنه كان قد ظلّ صامتًا مُتظاهرًا بالنوم ولم يكن قد بادر إلى ضغط الزر الذي كان إلى جانبه تمامًا والذي كان بإمكانه بواسطته استدعاء الممرضة على الفور لمساعدة ذلك الرجل البائس.
كان الرجل البائس بعد خمس دقائق قد توقف عن السعال كما كان صوت تنفسه السريع قد خمُد تمامًا وساد السكون في الغرفة. سكون الموت.
وكانت الممرضة عندما جاءت صباح اليوم التالي قد وجدت ذلك الرجل ميتًا. حزنت جدًّا لأجله واستدعت الممرض لنقله من الغرفة دون أن تتفوّه بأية كلمة ودون أية جلَبة.
بعد مرور فترة مناسبة على ذلك كان الرجل المُمدد على السرير الآخر قد طلب من الممرضة على الفور نقله إلى السرير الكائن بالقرب من النافذة. وكانت الممرضة قد سُرّت بإجراء ذلك التغيير وكانت بعد أن أعدّت له السرير قد نقلته إليه قد غادرت الغرفة وتركته بمفرده.
وكان الرجل بعد مغادرة الممرضة الغرفة قد قام ببطء وبالكثير من الجهد برفع نفسه على مرفقيه لكي يلقي النظرة الأولى من تلك النافذة وهو يتطلع ببهجة إلى

أن يُشاهد بنفسه كل ما كان يصفه له زميله. لكن كل ما شاهده كان عبارة عن حائط فارغ أجوف.

المغزى الأخلاقي من هذه القصّة:

البحث عن السعادة موضوع اختيار. وهو موقف ايجابي وليس بمنحة قد تصل إلينا كل صباح عبر نافذة. وليس لظروفنا سوى دور ضئيل بما داخلنا

البحث عن السعادة رحلة تنبع من داخلنا ومن تصرفاتنا ومن راحة الضمير.

تعلم كيف تقول "لا"

Learn how to say no

من مجموعة كافح وتقدم الموجهة للناشئين

قال السيد أولاند لولده توماس الذي كان على وشك مغادرة بيت العائلة للعيش في مدينة بحيث قد لايكون بإمكانه العودة من جديد إلى محيط العائلة التي نشأ فيها:
"بُنيّ! هناك كلمة... هي كلمة صغيرة جدًّا لكن استخدامها كثير الأهمية"
سأله توماس: "وماهي هذه الكلمة يا أبي؟"
قال الأب: "إنها الكلمة الصغيرة (لا)"
سأله الابن: "ولم لهذه الكلمة مثل هذه الأهمية أبي؟"
قال والده: "ربما كان بإمكاني أن أجعلك تفهم السبب في ذلك لو رويت لك ما حدث معي عدما كنت طفلًا صغيرًا وأنا أتذكر ذلك بكل جلاء كما لو أنه كان قد حدث بالأمس فقط على الرغم من مرور أكثر من ثلاثين عامًا على ذلك...
كان لوالدي جار يحب صيد الأسماك كثيرًا وكنت قد رافقته عدة مرات وكنت أستمتع بذلك كثيرًا... لكن والدي كان قد قال لي ذات يوم:
"ويليم! لست أرغب بذهابك إلى الصيد بعد الآن برفقة السيد جونس"
سألته: "لم لا يا أبي فأنا أحب جدًّا مرافقته كما أنني استمتع جدًّا بذلك، فلم تحرمني من مثل هذه المتعة؟"
قال والدي: "ليست لدي الآن أسباب كافية لعدم ذهابك إلى الصيد لكن يكفي أنني لاأرغب بذهابك وليس علي الآن أن أبيّنها لك، لكن عندما يقرر الآباء أمرًا على الأبناء أن يتقبلونه"
لم يكن بإمكاني حينذاك أن أفهم لم حرّمني والدي من مثل تلك المتعة، وكنت قد شعرت بالكثير من الأسف بامتثالي لأوامره لأنني كنت أرغب كثيرًا بالذهاب.
كنت في صباح اليوم التالي وأنا أتجول في الغابة قد التقيت بالسيد جونس. كان يحمل على كتفه أدوات الصيد وبيده سلّة. قال لي وهو يبتسم:

"أنت تمامًا الشخص الذي كنت أودّ أن ألتقي به. أنا ذاهب إلى الصيد وأريدك أن ترافقني وسوف نستمتع معًا بهذا اليوم الجميل"
وكنت قد أجبته بأنه ليس بإمكاني ذلك لأن والدي كان قد أعلمني أمس بأنه لا يوافق على مرافقته إلى الصيد.
سألني السيد جونس: "ولم لا؟ من فضلك!"
أجبت: "لست أعلم لماذا وإن كنت بالفعل أرغب كثيرًا بمرافقتك"
قال السيد جونس: "لا بأس! لا تهتم بذلك... تعال معي ولن يعلم والدك بذلك"
وكنت وأنا أفكر أكثر بما قد يتسبب ذلك التصرف لوالدي من ضيق حتى أكثر مما في تصرفي من إثم:
"نعم، لكنني أخشى أن يعلم بذلك"
"ليس هناك أي خطر من أن يعلم بذلك. سوف نعود قبل موعد العشاء"
وكنت قد تردّدت لكنه كان قد أصرّ ما جعلني آخر الأمر أوافق على مرافقه لكنني لم أكن قد اجتزت بعد مائة خطوة إلا وتوقفت وقلت:
"لست أرغب بالذهاب سيد جونس..."
قال السيد جونس: "ما هذا السخف ويليم؟ ليس هناك أي ضرر من ذهابك للصيد. أنا متأكد من ذلك كما أننا كنا نذهب معًا دومًا وحتى أنني كنت أذهب مع أبيك"
كنت بقدر ما كنت أرغب بالذهاب برفقته قد تردّدت لأنه لم يكن بإمكاني أن أقرر مخالفة رغبة والدي وكان السيد جونس قد قال أخيرًا:
"ليس بإمكاني أن أنتظرك هنا أكثر تعال معي أو عدّ أدراجك، قل نعم أو لا"
كانت تلك هي اللحظة الحاسمة وكان علي أن أقرر بأن أقول نعم أو لا.
ثم قال لي السيد جونس بخشونة عندما شاهد بأنني أتردّد:
"تعال فليس بإمكاني انتظارك طوال اليوم"
لكن صورة وجه والدي كانت قد ظهرت أمامي بوضوح وكنت قد شاهدت عينيه تنظرا إلي بثبات وتأنيب ما جعلني اتخذ قراري وأتلفظ بكلمة "لا"، وكنت قد ركضت بسرعة وعدت إلى المنزل. ليس بإمكاني أن أقول لك كم شعرت حينذاك بالراحة عندما أصبحت بعيدًا عن الإغراء.
وكان ما راعني وما أدهشني عندما اجتمعنا على مادة الإفطار أنني علمت أن السيد جونس كان قد غرق بذات اليوم في النهر لأنه كان بدلًا من أن يعود بعد بضع

ساعات قد أمضى اليوم بكامله في الصيد، وبأن عاصفة كانت قد هبّت ما جعل المركب تنقلب وبذلك كان قد غرق.

كنت عندما سمعت بذلك الحادث المؤلم قد شعرت بالكثير من الحزن. كانت كلمة (لا) الصغيرة قد أنقذت حياتي.

وكان أبي قد قال لي:

"سوف أعلمك الآن ويليم لِم لم أكن قد رغبت بالذهاب مع السيد جونس. كان ذلك لأنني علمت مؤخرًا بأنه كان في الفترة الأخيرة قد بدأ يُدمن على الشراب، كما علمت من بضعة أيام بأن كان يحمل معه الشراب كلما ذهب للصيد. لذا لم يكن بإمكاني أن أشعر بالأمان بذهابك معه. لم يكن من الضروري أن أروي لك ذلك لأنني كنت أثق بك وأعلم بأنك سوف تطيعني بمجرد أن أبدي رغبتي بعد مرافقتك له"...

كنت قد شعرت بالكثير من الندم وبذلك أخذت عهدًا على نفسي منذ ذلك اليوم بألا أدَع فكرة عدم الامتثال لرغبة والدي تخطر بذهني. وكنت منذ ذلك الوقت قد شعرت بقيمة كلمة لا وكنت بشكل عام منذ ذلك الوقت أستخدمها في المواقف الصحيحة، وكانت تلك الكلمة قد أنقذتني من الكثير من المشكلات، كان قد طلب مني في كثير من الأحيان بإصرار القيام بأشياء كان محاكمتي العقلانية تعلمني بأنها خطأ.

كنت بمثل تلك المواقف أتذكّر دومًا ما تعرضت إليه من إغراء وكنت أقول: "لا..."

بتصميم! ـ"والآن يا بُنيّ هل أدركت أهمية كلمة (لا)؟"

وكان توماس قد أجاب:

"أعتقد أنني فهمت ذلك لكن أليس هناك أي ضرر من استعمال تلك الكلمة؟ فقد يؤدي ذلك إلى بعض الأنانية وإلى عدم الاستعداد لأداء الخدمات للآخرين؟"

وكان والده قد أجابه:

"هناك بالتأكيد في الاستخدام الصحيح لتلك الكلمة مقاومة المرء لوساوس الشطان، أما أن يرفض المرء القيام بعمل صالح فسوف يكون ذلك بالطبع من الخطأ"

قال توماس: "فإذن لو طلب مني أحدهم أداء عمل أو تقديم خدمة له فعليّ ألا أقول لا أو أرفض"

قال والده: "هذا يتوقف على الطريقة التي سوف تقدم إليه بها تلك الخدمة، فلو كان بإمكانك أن تؤديها دون أن تؤذي نفسك أو تؤذي الآخرين فسوف يكون من واجبك أن تكون طيبًا تجاه جميع من حولك وأن تؤدي لهم الخدمات".

قال توماس: "لكن الصعوبة التي سوف أواجهها هي في التمييز. فعندما يطلب مني شخص أحترمه القيام بأمر لابدّ أن تكون لدي رغبة شديدة بتقديم الخدمة إليه ما سوف يؤثر على محاكمتي العقلانية وعلى حكمي على الأمور"
قال والده: "ومجرد إدراكك لهذا الأمر سوف يجنبك اتخاذ القرار الخاطئ"
أجاب ابنه: "هذا صحيح تمامًا والدي لكن ليس بإمكاني إلا أن أخشى على نفسي من الوقوع في الخطأ، لكنني لن أنسى ما قلته وسوف أحاول دومًا أن اتخذ القرار الصائب"
قال والده:
"افعل هذا بني! ولا تنس أبدًا بأن التصرف الخاطئ يليه دومًا الندم كما قد تكون له كثير من الأحيان الكثير من العواقب السيئة لذا عليك عندما ستختار الطريق الصحيحة ألا تفكر مطلقًا برأي الآخرين، فلو طلب منك الآخرون القيام بعمل تجده خاطئًا لا تتردّد في الرفض"
وكانت قاعدة السلوك تلك ووصية والد توماس قد ظلت في ذهنه وكانت محبته لوالده واحترمه له قد جعلاه يقرر التصرف دومًا بموجبها.
كان توماس بعد مغادرته السقف العائلي قد أقام في مدينة بعيدة وبدأ العمل في أحد المتاجر حيث كان يعمل أيضًا عدد من الشبان الذين هم تقريبًا من سنه.
كان أحدهم يدعى بـــويد وكان بعد وقت قصير قد أصبح من أصدقائه المقربين. لكن من سوء الحظ أن أخلاقيات وتصرفات ذلك الشاب كانت مع الأسف بعيدة جدًّا عن العفّة، ولم تكن مبادئه تستند على الصدق والشرف. وبما أن علاقته كانت تتوطد بذلك الشاب يومًا بعد يوم فكان بدأ تأثيره على توماس قد يتزايد أيضًا. كان توماس قد حاول مقاومة ذلك التأثير لكنه كان يشعر بالحياء من استخدامه كلمة (لا).
كانت هناك عدة أمور لم يرفضها لأن من حوله كانوا يعتبرونها قليلة الأهمية لكنه كان مع ذلك في قرارة نفسه يشعر بالألم عندما كان يفكر بأن والده لو علم بالأمر فسوف يشعر بالكثير من الأسف. كان ذلك التأثير كان قد بدأ يتزايد شيئًا فشيئًا... وكان أول مخالفته لتلك المبادئ بأن اعتاد على الذهاب بشكل متواتر إلى المسرح على الرغم من أن والده كان قد أعرب عن رغبته بابتعاده عن تلك الأماكن التي يرتادها الكثير من الأشخاص المشبوهين. ثم كان ذلك الشاب قد أقنعه بارتياد بعض المطاعم حيث كانا يُمضيان ساعات طويلة في الأكل والتدخين وبتعاطي الشراب.

ثم كان بعد فترة قد بدأ يلهو مع الآخرين بلعب الورق، كان توماس يرتكب كل تلك المخالفات على الرغم من أن والده قد كان قد حذره منها وكان يشعر بعدم الراحة وبالألم لكنه كان قد خضع للإغراء ولم يعد بإمكانه أن يقاومها.

وكان بويد بعد أشهر من دخول توماس إلى ذلك الجو، قد وجه إليه الدعوة لمرافقته لزيارة أحد الأصدقاء وكان في ذلك اليوم قد استلم من والده مبلغ خمسة جنيهات، كان قد اشترى لنفسه بها مجموعة جديدة من الملابس وكان قد ذهب بالطبع مع صديقه بويد. وكانا بعد بضع دقائق قد بدآ بالتدخين وبتناول المشروبات وكان قد تعرفا هناك على شاب كان يبدو دمثًا مهذبًا.

وكان صديق بويد قد قال له أثناء الحديث:

"تعال! دعنا نلعب الورق لبعض الوقت"

قال بويد: "ليس لدي أي اعتراض"، ثم التفت إلى توماس وقال له:

"سوف تشاركنا اللعب أليس كذلك؟"

لكن توماس قال بأنه لا يعرف شيئًا عن اللعب بالورق.

وقال صديقه من جديد:

"لا أهمية لذلك! بإمكانك أن تتعلم خلال دقيقتين"

كان توماس قدشعر بالندم وبتأنيب الضمير لأنه لم يكن بإمكانه أن يُقاوم تأثير ذلك الصديق وكان قد وافق على الاشتراك باللعب لكنه قال وقد اصطبغ وجهه بالحمرة:

"ليس بإمكاني اللعب لأجل المال لأنه كان قد شعر بالحياء بأن يعلن عن تردّده"

سأله صديق بويد: "لم لا؟"

تمتم توماس وقد ازداد وجهه حمرة:

"لأنني أرى أن هذا خطأ"

قال الشاب: "هذا من السخف أليس المال ملكك؟ فما هو الضرر؟ أليس بإمكانك التصرف بمالك كما يحلو لك؟"

قال توماس: "لكن ليس لدي ما يكفي من مال لكي أخاطر باللعب به"

قال بويد: "لا أظنك تعتقد بأننا سوف نستغل جهلك بأصول اللعب؟ بإمكانك اللعب للتسلية ولو خسرت مالك سوف نعيده إليك في نهاية اللعبة"

لكن توماس كان قد شعر بالتردّد لكنه كان مع ذلك قد فكر بالأمر وكان في كل لحظة يزداد ضعفًا أمام الإغراء.

سأله بويد من جديد: "هل قررت اللعب أم لا؟"
أجاب توماس وهو يحاول الابتسام كما لو أنه يرغب بإرضاء صديقيه الزائفين:
"من الأفضل ألا أفعل ذلك"
قال بويد: "يبدو أنك تخشى خسارة ما لديك من مال"
قال توماس: "ليس الأمر هكذا بويد"
"فإذن ما الأمر؟"
"لأنني أرى أن هذا الأمر ليس سويًّا"
كانت تلك الإجابة قد جعلت كل من الشابين يُطلقا ضحكة عالية كانت قد أثرت بتوماس كثيرًا وجعلته يشعر بالخجل بما أورده من أسباب.
قال بويد من جديد: "تعال وشاركنا اللعب"
كان توماس قد مدّ يده إلى جيبه وكان على وشك وضع الجنيه على طاولة اللعب لكن أصابعه كانت قد انكمشت وكان قد تردّد من جديد.
ثم قال صديق بويد بنفاذ صبر:
"هل ستشارك باللعب أم لا؟ عليك أن تقرر"
كان توماس قد شعر بالارتباك ثم عادت إلى ذهنه العبارة التي كان والده قد زوده بها بأن من الخطأ اللعب بالورق. كان تذكر أيضًا الكلمة التي قالها له والده وبذلك قال بتصميم: "لا لن ألعب"
كان كل من رفيقه وصديقه قد شعرا بخيبة الأمل والغضب.
ثم سمع بأذنيه صديق بويد يقول:
"لم اصطحبت هذا الرجل معك؟"
لم تكن الإجابة قد وصلت إلى أذنيه وكان قد نهض وتمنى لهما ليلة سعيدة وغادر المكان بسرعة، وكانت تلك الكلمة الصغيرة (لا) قد أنقذته.
كانت الخطة أن يخسر ما لديه من مال وأن يضطر للاستدانة أو أن يضطر لطلب المزيد من المال من والده أو بأن يطلب قرضًا من رئيسه في العمل.
وكان قد علم بعد ذلك بأن بويد كان على يتعاون بشكل سرّي مع أحد المقامرين وبأنهما كانا يتقاسمان المال الذي يتورط من يشارك اللعب بخسارته.
كان ذلك الحدث قد جعل توماس يدرك الخطر الذي قد يتعرض إليه في مدينة كبيرة وكان قد عرف أهمية وصية والده ومدى أهمية كلمة (لا) وكان قد حدث نفسه:

"سوف أكون حرًّا! سوف أكون حرًّا! من الآن فصاعدًا! لن يكون هناك من بإمكانه أن يقودني إلى التصرف بشكل خاطئ"
وكان ذلك القرار قد أنقذ توماس طوال حياته.

المؤلفات التي تم نشرها للكاتبة أمل الرفاعي

المنشورات عن طريق دار ناشري للنشر الالكتروني

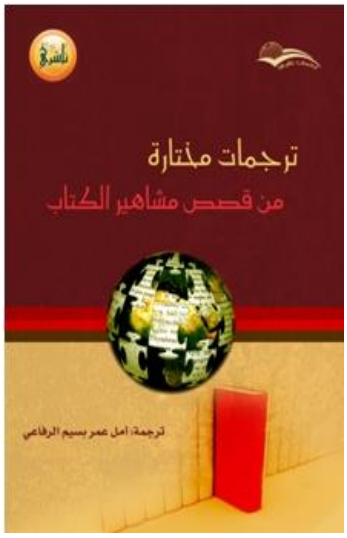

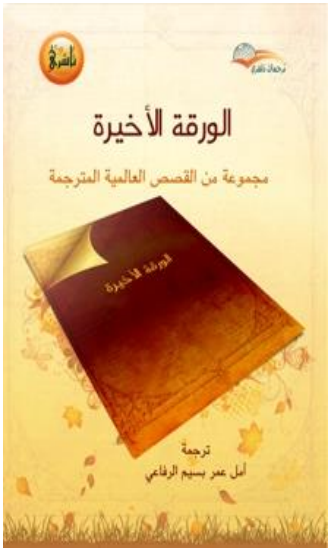

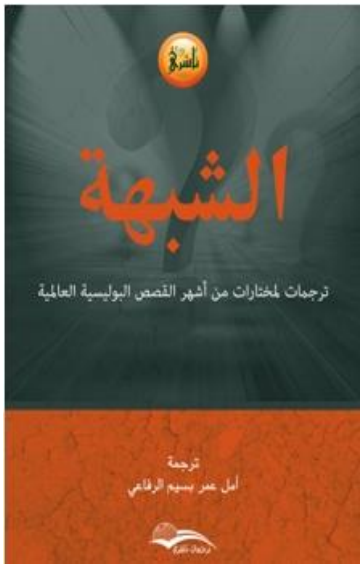

السبيل إلى
السكينة
ترجمة: أمل عمر بسيم الرفاعي

المرأة اللغز
ترجمة: أمل عمر بسيم الرفاعي

قوة الإيمان
ترجمات لقصص قصيرة من الأدب العالمي
ترجمة: أمل عمر بسيم الرفاعي

قصص
مترجمة
للناشئين (1)

قصص مترجمة
للناشئين 2
ترجمة
أمل الرفاعي

معجم ناشري
إنكليزي عربي
معجم المصطلحات
الدبلوماسية والسياسية
Dictionary of
Diplomatic and Political Terms
English Arabic
أمل عمر بسيم الرفاعي
Amal Al Rifai

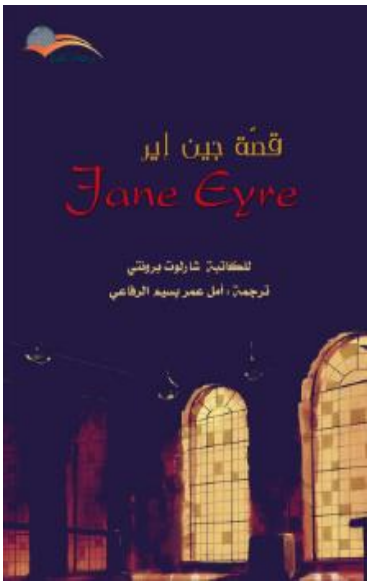
قصة جين اير
Jane Eyre
للكاتبة: شارلوت برونتي
ترجمة : أمل عمر بسيم الرفاعي

نساء صغيرات
Little Women

الارتقاء في الإنسانية
قصص ومقالات مترجمة
ترجمة : أمل الرفاعي

ترجمة لمختارات من قصائد الأخوات برونتي

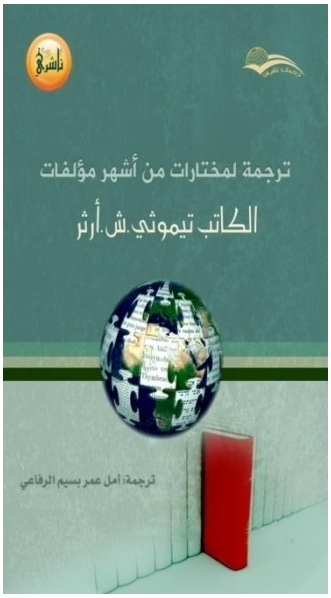
ترجمة لمختارات من أشهر مؤلفات
الكاتب تيموثي ش. أرثر
ترجمة: أمل عمر بسيم الرفاعي

مختارات من قصائد مشاهير الشعراء
الحياة محبة

المؤلفات التي نُشرت ورقياً عن طريق دار شعاع

الكتاب الذي تم نشره عن طريق دار النشر الالكتروني

العربي

المقالات والقصص القصيرة التي تم نشرها على موقع دار ناشري

المقالات:

- كلمة الشكر وحسن التعامل مع الآخرين
- محكمة التاريخ
- الفساد الأخلاقي
- الطموح والقناعة
- قانون الأخلاق
- قانون الاختيار ثمن النجاح
- الآثار الاجتماعية والنفسية للحروب
- أهمية الصداقة في حياة المرء
- الضمير
- نعمة الصبر والنسيان
- الجرائم الخفيّة
- تأملات زاهدة
- الرصيد المعنوي بين التواضع والتكبّر
- لمحة عن الأدب الإفريقي الأمريكي
- الأمل ودوره في الحياة

القصص القصيرة:

- حديث المرآة
- سارة والوردة الأخيرة
- تضحية أم
- الشمعة رمز العطاء والإيثار
- اللقيطة
- عدالة الله أحكم الحاكمين
- جريمة العصر
- ببغاء يكشف عن جريمة
- الزهرة المسحوقة
- حكاية الزهرة
- برعم الورد الصغير
- الزهرة الأميرة
- الفراشة التي لم تتمكن من الطيران
- نكبات الحروب
- أحاديث الطيور